



مركز
للبحوث والتحريات الكمبيوترية

اصبهان

العلماء



عمر
عليه السلام

www. **Ghaemiyeh** .com
www. **Ghaemiyeh** .org
www. **Ghaemiyeh** .net
www. **Ghaemiyeh** .ir

مِيقَاتُ الْحَجِّ

تَهْتَفُ بِرُؤْيَا كَسْبِ كَوْنِهِ فَعَنَى وَالشُّؤْرُ وَالْفَتَا الْهَادِي
وَالشَّارِ وَالْمَكْتَبَةُ وَالْإِسْكَانِيَّةُ وَالْإِحْتِيَادِيَّةُ وَالْمَكْتَبَةُ وَالْمَسْجِدُ



٢٤

رَجَب - نَوَاحِي الْعَقَبَةِ

١٤٢٦ هـ

السَّنَةُ ٢٢

- « الْحَجُّ ، رَمُوزٌ وَجَنَاحٌ (١٣) » حَيْجُ أَهْلِ الشَّرِيْعَةِ ... »
- « كَفَايَةُ الْمُحْتَاجِ إِلَى مَنَاسِكِ الْحَجِّ » سُلْمَانُ الْفَارِسِيُّ »
- « التَّصَرُّفُ الْمُعْجَزُ عَنِ بَقَاءِ الْإِسْتِطَاعَةِ »
- « مَوْضِعُ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ »
- « فَهْمُ الْجِدَالِ فِي الْحَجِّ (١٦) » الْحَجُّ مَائِدَةٌ مَبَارَكَةٌ ... »
- « مَكَّةُ وَأَسْمَاؤُهَا وَمَا تَرْمِزُ إِلَيْهِ فِي اللُّغَاتِ السَّامِيَّةِ »

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

دو فصلنامه « میقات الحج »

کاتب:

محمدی ری شهری

نشرت فی الطباعة:

مشعر

رقمی الناشر:

مركز القائمیة باصفهان للتحریات الكمبيوتریة

الفهرس

٥	الفهرس
١٢	المجلد الرابع والعشرون
١٢	اشارة
١٢	الحج، رموز وِحَكَم (٣)
١٢	اشارة
١٦	مظهر التوحيد
١٧	الوحى المجتمع
١٩	المعاد المجتمع
٢١	الولاية روح الحج
٢١	منشأ حرمة الكعبة وعزتها
٢٣	ارتباط الحج وشؤونه بالولاية
٢٨	تذكر:
٢٩	الحج والوجه السياسى
٣٤	المظهر التام للتبرى من الطاغوت
٣٥	محور البراءة من المشركين
٣٨	حج أهل الشريعة والطريقة والحقيقة
٣٨	اشارة
٣٨	المؤلف فى سطور
٤١	مؤلفاته
٤٣	وفاته
٤٤	وأما حج أهل الشريعة
٤٦	وأما حج أهل الطريقة
٥٩	وأما حج أهل الحقيقة

٧٣	كفاية المحتاج إلى مناسك الحاج
٧٣	اشارة
٧٣	مقدمة التحقيق:
٧٤	اسمه ونسبه:
٧٤	ولادته ونشأته:
٧٥	أقوال العلماء فيه
٧٦	أسانذته ومشايخه:
٧٧	تلامذته والراوون عنه:
٧٧	مصنفاته:
٧٩	وفاته ومدفنه:
٨٠	نحن والرسالة:
٨١	نسبها وتسميتها:
٨١	النسخة المعتمدة:
٨٤	الباب الأول في العمرة
٨٤	اشارة
٨٥	الفصل الأول الإحرام:
٨٧	الفصل الثاني في الطواف:
٨٨	الفصل الثالث صلاة الركعتين:
٨٩	الفصل الرابع في السعي:
٩٠	الفصل الخامس في التقصير:
٩٠	الباب الثاني في الحج
٩٠	اشارة
٩١	البحث الأول في الإحرام:
٩١	البحث الثاني في الوقوف بعرفات:

- ٩٢ البحث الثالث فى الوقوف بالمشعر:
- ٩٣ البحث الرابع فى مناسك منى يوم النحر:
- ٩٤ البحث الخامس فى طواف الحج:
- ٩٤ البحث السادس فى السعى:
- ٩٤ البحث السابع فى طواف النساء:
- ٩٧ البحث الثامن فى العود إلى منى:
- ١٠٠ التصرف المعجز عن بقاء الاستطاعة
- ١٠٠ اشارة
- ١٠١ الأول: هل يحرم التصرف المعجز؟
- ١٠٢ الثانى: ما هو حدّ حرمة التعجيز؟
- ١٠٥ الثالث: فى صحّة التصرف وعدمه
- ١٠٧ فقهيات معاصرة فى الحج «٢» موضع مقام إبراهيم (١)
- ١٤٢ فقه الجدل فى الحج
- ١٤٢ دراسة فقهية استدلالية حول مفهوم الجدل وأحكامه (القسم الأول)
- ١٤٢ تمهيد
- ١٤٣ المبحث الأول: مفهوم الجدل المحرم
- ١٤٣ اشارة
- ١٤٤ مستند نظرية التفسير اللغوى للجدال
- ١٤٥ مستند نظرية التفسير الشرعى للجدال
- ١٥٢ نظرية الجدل بالمعنى الأخص
- ١٦١ نتيجة البحث:
- ١٦١ المبحث الثانى: شمول الحكم للرجل والمرأة
- ١٦٣ مختارات شعرية «من ديوان الشريف الرضى قدس سره»
- ١٧٠ (هذه من غلاه إحدى المعالى)

- ١٧٠ اشارة
- ١٧١ أ- ذكر موارد لوقوع الاختلاف فى ثبوت هلال ذى الحجة فى مكة وفقاً للتسلسل التاريخى.
- ١٩٥ ب- الجهود المبذولة لرفع هذا الإشكال
- ٢٠٣ ج) الاختلاف فى ثبوت هلال ذى الحجة فى المصادر الفقهيّة
- ٢١١ د) كيفية ومبنى ثبوت وإعلان رؤية هلال ذى الحجة
- ٢١٢ لائحة حول رصد أوائل الشهور الهجرية
- ٢١٥ حساب القمر
- ٢١٧ برامج كومبيوترية
- ٢٢١ الحج مائدة مباركة...!
- ٢٢١ اشارة
- ٢٢٤ انه السعى!
- ٢٢٧ وانها عرفات!
- ٢٢٨ إنها الروضة المباركة!
- ٢٢٩ انها قرائح رائعة!
- ٢٣٠ إنها الروح!
- ٢٣٠ انها الروح!
- ٢٣٤ ترنيمه فى بطحاء مكة:
- ٢٣٧ والحج شعيرة الشعائر وحياة الأبدان والضمان، ورحلة الولاء والبراء:
- ٢٤٣ الرمزية:
- ٢٤٥ النسل الجديد!
- ٢٤٨ العهد والعمل:
- ٢٥٠ شخصيات من الحرمين الشريفين (٢٠) سلمان الفارسى
- ٢٥٠ اشارة
- ٢٥٢ اسمه ونسبه

- ٢٥٢ قصة إسلامه
- ٢٦١ زوجته:
- ٢٦٢ أولاده:
- ٢٦٢ سيرته وفضائله
- ٢٦٩ أخلاقه
- ٢٧٠ مواعظه وحكمه
- ٢٧٢ شعره:
- ٢٧٣ خطبه:
- ٢٧٤ ما قيل فيه:
- ٢٧٧ ما نزل فيه من القرآن
- ٢٧٩ مالقيه من أذى الآخرين:
- ٢٨٠ وفاته ومدفنه:
- ٢٨٣ مكة وأسمائها وما ترمز إليه في اللغات السامية
- ٢٨٣ اشارة
- ٢٨٣ مقدمة
- ٢٨٦ المبحث الأول: أسماء مكة
- ٢٨٦ اشارة
- ٢٨٧ ومن أهم الآراء التي قيلت في معنى «بكة»:
- ٢٨٧ الآراء التي قيلت في التفرقة بين «مكة» و «بكة»:
- ٢٨٨ الآراء التي قيلت في ترادف «مكة» و «بكة»:
- ٢٨٨ ثانياً: أسماء أخرى لمكة:
- ٢٩٠ المبحث الثاني آراء المصادر والمراجع في دلالات «مكة» و «بكة»
- ٢٩٠ اشارة
- ٢٩٠ أولاً: آراء المصادر والمراجع حول دلالات «مكة»:

- ٢٩٢ ثانياً: آراء المصادر والمراجع حول دلالات بكّة:
- ٢٩٣ ثالثاً: التفرقة بين «مكة» و «بكة»:
- ٢٩٤ المبحث الثالث مكة وبكة في المعاجم العربية:
- ٢٩٤ اشارة
- ٢٩٤ أولاً: دلالات مكة وبكة في المعاجم العربية:
- ٢٩٨ ثانياً: دلالات «الباسة» و «البساسة» في المعجم العربي:
- ٢٩٩ ثالثاً: دلالات «الناسة» و «النساسة» في المعجم العربي:
- ٢٩٩ رابعاً: أسماء مكة في المعاجم العربية: نتائج نهائية:
- ٢٩٩ اشارة
- ٢٩٩ ١- اشتقاق مكة من الجذر (م ك ك) يعطى مكة عدة دلالات:
- ٣٠٠ ٢- اشتقاق مكة من الجذر (م ك ا) يعطى اسم مكة الدلالات التالية:
- ٣٠١ ٣- اشتقاق اسم مكة من الجذر (م ق ق):
- ٣٠٣ ٤- اشتقاق اسم مكة من الجذر (م ق ا):
- ٣٠٣ ٥- اشتقاق اسم مكة من الجذر (م ق ه):
- ٣٠٣ ٦- اشتقاق اسم بكّة من الجذر (ب ك ك) يعطى الدلالات التالية:
- ٣٠٤ ٧- أن اشتقاق اسم بكّة من الجذر (ب ق ق) يعطى الدلالات التالية:
- ٣٠٤ ٨- أن تسمية مكة بالباسة والبساسة:
- ٣٠٥ ٩- أن تسمية مكة بالناسة أو النساسة:
- ٣٠٥ المبحث الرابع دلالات أسماء مكة في المعاجم السامية:
- ٣٠٥ اشارة
- ٣٠٦ أولاً: التسمية «مكة» في المعجم العبرى:
- ٣٠٦ اشارة
- ٣٠٦ ١- الجذر Makhakh مَاخَخ:
- ٣٠٧ ٢- الجذر العبرى (مُوخ) (مَا أْخ):

- ٣- الاسم (مَكَّا) makkah: ٣٠٧
- ٤- الجذر العبرى (مَاقُّ) يقابل الجذر (م ق ق) فى العريية: ٣٠٧
- ثانياً: التسمية «بكة» فى المعجم العبرى: ٣٠٨
- ثالثاً: المعجم السريانى: ٣٠٩
- رابعاً: فى المعجم الحبشى: ٣١٠
- خامساً: فى العريية الجنوبية: ٣١١
- اشارة ٣١١
- ضعف الأدلة فى كون مكربة اسماً لمكة: ٣١٣
- الخاتمة: فائدة المعاجم العريية والسامية فى تحديد دلالات أسماء مكة ٣١٥
- ونقترح فى النهاية تصورين للتطور الذى حدث للتسميتين: ٣١٨
- تعريف مركز ٣٢٠

المجلد الرابع والعشرون

إشارة

عنوان و نام پديدآور : ميقات الحج : مجله نصف سنويه، تعنى بالشوون الثقافيه محمد محمدى رى شهرى.
مشخصات نشر : [بى جا: بى نا، ١٤١٧ ق = ١٣٧٥.
مشخصات ظاهرى : ٣٠٠ ص.: نمونه، عكس.
شابك : ٥٠٠٠ ريال
وضعيت فهرست نویسی : فهرست نویسی توصيفى
يادداشت : عربى.
يادداشت : شماره پنج اين مجله بنام ميقات الحج است.
يادداشت : پشت جلد به انگليسى: Mighat al – Haj.
يادداشت : کتابنامه.
شناسه افزوده : محمدى رى شهرى، محمد، ١٣٢٥ -، مدير مسئول
شناسه افزوده : قاضى عسكر، سيدعلى، ١٣٢٥ -
شماره كتابشناسى ملي : ١٥٤٢٨٩٦
ص: ١

الحج، رموز و حکم (٣)

إشارة

مظهر التوحيد

ص: ٥

الشيخ عبدالله جوادي آملی

الخلوص شرط معتبر في تمام العبادات، إلا أن تجليته في بعضها يبدو أكثر ظهوراً، كما وطرد الشرك أكثر قوةً ووضوحاً، ومن بين هذه العبادات الحجّ، الذي يتجسد فيه التوحيد، ويظلّ من بدايته وحتى نهايته، أنموذجاً عن التوحيد ونفى الشرك، من هنا كان تركه كفراً (١).

ومعنى تجلي التوحيد في الحج أن تنزله في درجاته يصيره حجاً، كما أن صعود الحجّ كذلك يبلغ به الله تعالى أو يتحوّل إلى التوحيد. يقول الإمام الصادق عليه السلام فيما ينقل عنه من دعاء سفر الحجّ: «... بسم الله دخلت، بسم الله خرجت وفي سبيل الله...» إلى أن يقول: «فإنما أنا عبدك وبك ولك» (٢).

وعلى أساس هذه الرواية، يغدو الحج سيراً نحو الله سبحانه، ورحلةً إلى لقائه، وسعيّاً للقرب منه، ومن الواضح أن العبد لا يقدر على التقرب من مولاه إلا

١- آل عمران: ٩٧.

٢- وسائل الشيعة ٨: ٢٧٩.

ص: ٦

بالتوحيد الدائم الأصيل، ونفى الشرك الجلي والخفي.

الشاهد الآخر هنا كلام النبي صلى الله عليه وآله في سفر الحج بعد حمل الجهاز على الراحلة:

«هذه حجة لا رياء فيها ولا سمعة»، ثم قال: «من تجهّز وفي جهازه علمٌ حرام لم يقبل الله منه الحج» (١).

وعليه، فالحج توحيد مجسم وأنموذج من التوحيد الجامع، والتوحيد هو تلك الفطرة التي خلق الله الناس عليها، والتي لا تبديل لها...

الوحي المجسم

الحجّ تمثيل للوحي، ذلك أن مناسكه تجلّت بالوحي وظهرت، وقد أخذها الأنبياء عن الملائك الأمين على الوحي جبريل عليه السلام. وتوضيح ذلك أن النبي إبراهيم عليه السلام طلب من الله سبحانه بعد بناء الكعبة أن يُبدي له كيفية العبادة في هذا البيت: «وأرنا مناسكنا» (٢)، وبعد هذا الطلب جاءه جبرائيل، وأنجز أمامه أعمال الحجّ، ودلّه على مناسكه بصورةٍ عينيةٍ خارجيةٍ، ليقوم الخليل عليه السلام بتكرار هذه الأعمال بعده (٣).

إنّ هذه الإراءة والتعليم لم يكونا شيئاً جديداً ولا من مختصات إبراهيم عليه السلام، بل قد تقدّمه آدم عليه السلام في هذا المضمار، حيث ظهر له جبرئيل، كما ظهر أيضاً على أفضل الأنبياء وخاتمهم (٤)، حيث أخذ منه الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله مناسكه. يقول الإمام الصادق عليه السلام في هذا المجال: «إنّ الله بعث جبرئيل إلى آدم، فقال: ... إنّ الله أرسلني إليك لأعلمك المناسك التي تطهر بها...» (٥).

١- المصدر نفسه ٨: ١٠٣.

٢- البقرة: ١٢٨.

٣- وسائل الشيعة ٨: ١٦٠ - ١٧١.

٤- المصدر نفسه.

٥- المصدر نفسه.

ص: ٧

ويقول الإمام الصادق عليه السلام أيضاً: «كنت أطوف مع أبي، وكان إذا انتهى إلى الحجر مسحه بيده، وقبله، وإذا انتهى إلى الركن اليماني التزمه، فقلت: جعلت فداك، تمسح الحجر بيدك وتلزم اليماني؟ فقال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ما أتيت الركن اليماني إلا وجدت جبرئيل قد سبقني إليه يلتزمه» (١).

وبعد أن اتضح أن الحجّ وحى ممثل، وأنّ باني الكعبة قد تعلّم مناسكه بالمشاهدة والعيان، لزم أن يكون الناس مأمورين بإقامته هذه المناسك التي ورثها عنه، عليهم يرون بعضاً قليلاً مما كان رآه عليه السلام، قال تعالى: «وأذن في الناس بالحج يأتوك...» (٢)؛ ذلك أن ما يفهم من كلمة (يأتوك) في هذه الآية هو مجيء الناس عند إبراهيم عليه السلام، وبلوغهم ما كان عليه السلام قد بلغه من قبل، لا مجرد السفر إلى مكة وزيارة الكعبة، ذلك أنّ هذا التعبير لا ينحصر بدائره عمل المناسك والقيام بها.

فالحديدون الذين يأتون إبراهيم عليه السلام هم أولئك الذين كانوا مثله في الوقوف بوجه عابدى الهوى والأصنام (٣)، والتبرّى من الكفر والنفاق وما يعبدون (٤)، مهئين لتلقى ألوان المخاطر (٥)، بعقيدة حنيفية وسلوك كذلك (٦)، وقلب سليم (٧) حاضر في محضر الله تعالى.

ومع الأخذ بعين الاعتبار هذه الخصوصيات، قال تعالى: «إنّ أولى الناس

١- المصدر نفسه ٩: ٤١٩.

٢- الحجّ: ٢٧.

٣- الأنبياء: ٦٧.

٤- الزخرف: ٢٦.

٥- الأنبياء: ٦٨.

٦- الأنعام: ٧٩.

٧- الصافات: ٨٤.

ص: ٨

بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا» (١)

، من هنا قدّم رسول الله صلى الله عليه وآله قربانه الذى لم يقدّمه إبراهيم عليه السلام نفسه، ألا وهو الحسين بن على عليه السلام. ومع ملاحظة النقاط المشار إليها يتضح أمامنا سرّ عرض إمام الزمان عليه السلام نفسه فى بداية نهضته ضدّ الظلم ولأجل العدل على أّنه أولى الناس بالأنبياء سيما إبراهيم الخليل ورسول الله عليهما السلام: «إن القائم إذ خرج، دخل المسجد الحرام فيستقبل الكعبة، ويجعل ظهره إلى المقام، ثم يصلّى ركعتين، ثم يقوم فيقول: يا أيها الناس! أنا أولى الناس بآدم. يا أيها الناس! أنا أولى الناس بإبراهيم...» (٢).

ومن ذلك كلّ يتضح التبعّد السياسى للحج، أى البراءة من المشركين وتجافيههم وإعلان الانزجار منهم، وقطع أيديهم وتدخلاتهم، ذلك كلّ بشكل واضح وعلنى هو ما يمثل المناسك السياسيه للحج.

المعاد المَجَسَّم

لا يُعثر على الحج بمناسكه الخاصة به فى أى عبادةٍ أخرى، ولا يعلم تأويلها غير الله سبحانه، فهو معاد مجسّم، وحكاية عن يوم البعث والنشور، وكاشف واضح عن يوم الحشر، ذلك أن الناس تلبى هناك نداءً واحداً على ما بينها من اختلاف فى اللغات والألوان، فتجيب أمراً واحداً، وتستجيب لصرخة واحدة، ولا أمر يُصدر أو امره لهم عدا الله الواحد القهار.

إن مناسك الحج أنموذج حتى لأحداث القيامة والحشر الأكبر، وتمثّل جلى لحشر الناس يوم القيامة عراة فى يوم معاد.

ونشير هنا إلى نماذج من تجلّى المعاد فى الحجّ:

١- اجتماع الحجاج فى المواقيت وعند المواقف.

٢- انفراد كل إنسان لوحده فى ظلّ هذا الجمع، تماماً كما هو الحال يوم المعاد، فهو وإن كان «جمعاً» تلتئم الناس فيه وتلتف حول بعضها «يوم يجمعكم

١- آل عمران: ٤٨.

٢- بحار الأنوار ٥١: ٥٩.

ص: ٩

ليوم الجمع» (١)، «إنَّ الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم» (٢)، إلماً أنَّه يوم يعود الجميع فيه إلى الله فرادى، كما قال تعالى: «وكلهم آتية يوم القيامة فرداً» (٣).

٣- فرار الناس من غير الله إلى الله تعالى، كما يقول الإمام الباقر عليه السلام في تفسير قوله تعالى: «ففرّوا إلى الله» (٤): «حجّوا إلى الله عزّ وجلّ» (٥).

٤- تعزّيهم من اللباس ومظاهر الحياة الدنيوية.

٥- تجرّدهم عن زينة الدنيا وبهرجها.

٦- رؤية الآيات الواضحة التي كانت مخفية عليهم في ديارهم.

٧- خلعتهم على أنفسهم لباس الإحرام، وهو لباس شبيه بالكفن، ويستحب للحاج أن تكون قطعتا الإحرام كفته، كما كُفّن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في لباس إحرامه (٦).

٨- تذلل الحجيج وتواضعهم أمام الله سبحانه، حتى أنّهم يحجون مشاةً حفاةً بأرجل عارية، ذلك أنّهم «ما عبد الله بشيء أفضل من المشى» (٧).

من هنا، حجّ الإمام الحسن المجتبي عليه السلام عشرين حجةً ماشياً (٨)، وفي هذا الصدد يقول الإمام الصادق عليه السلام: «جعل السعى بين الصفا والمروة مذلةً للجبارين» (٩).

٩- اعتراف الناس بذنوبهم التي ارتكبوها.

١- التغابن: ٩.

٢- الواقعة: ٤٩- ٥٠.

٣- مريم: ٩٥.

٤- الذاريات: ٥٠.

٥- وسائل الشيعة ٨: ٥.

٦- المصدر نفسه ٩: ٣٧.

٧- المصدر نفسه ٨: ٥٥.

٨- المصدر نفسه.

٩- المصدر نفسه ٩: ٥١١.

ص: ١٠

١٠- أمن الناس بل والوحوش والطيور.

١١- حماية الحجاج من التعدي والجدال، وكل ما يوجب أذية المحرم أو عذابه، وهو تجسيد واضح لقوله تعالى: «لا ظلم اليوم» (١).
وحصيلة القول: الحج مظهر المعاد وتجسيده، وحيث كان المعاد رجوعاً إلى المبدأ كان أساساً للإسلام الكلي والخالد، لذا غدا الحج من أهم مظاهر الإسلام وأركانه.

الولاية روح الحج

لا- نفع للحج بدون الولاية، ولا- لقصد الكعبة من دون الإمامة، ولا- لحضور عرفات دون معرفة الإمام، ولا للأضحية في منى دون التضحية في طريق الإمامة، ولا لرمى الجمرة دون طرد شيطان الاستكبار الداخلي والخارجي، ولا للسعي بين الصفا والمروة دون السعي لمعرفة الإمام وطاعته... ذلك أنه وإن كان من أركان الإسلام ومبانيه، إلا أن الحج والصلاة والزكاة والصوم لا يباهون الولاية في ركنيتها الراسخة والقوية للإسلام، «ولم يُناد بشيء كما نودى بالولاية» (٢).

منشأ حرمة الكعبة وعزتها

من جملة الأمور التي أقيمت عليها البراهين العقلية، ضرورة انتهاء كل ما بالعرض إلى ما بالذات، ووفقاً لهذا المبدأ الذي توافق عليه البرهان والقرآن، وكما أن كل عزة- طبقاً لتصريح النص القرآني- تنتهي إلى عزة الله سبحانه: «لله العزة ولرسوله وللمؤمنين» (٣) و«لله العزة جميعاً» (٤)
... وفقاً لذلك كله فإن حرمة الكعبة وعزتها لا بد أن تنتهي إلى حرمة الحق سبحانه وعزته تماماً، كما إذا دار

١- غافر: ١٧.

٢- الكافي ٢: ١٨.

٣- المنافقون: ٨.

٤- فاطر: ١٠.

ص: ١١

الأمر بين هدم الكعبة وهدم الحَقِّ فإن الكعبة تغدو حينئذٍ قرباناً فداءً للحق.

ولتوضيح الأمر لابد من القول: للحرم أحكام تبيّن عزّته وفضيلته، وتمام هذه الأحكام ناتج عن حرمة الكعبة وعزتها، وشاهد ذلك ما جاء في الرواية عن أمير المؤمنين عليه السلام حول سرّ الوقوف في عرفات، وعدم وجوب الوقوف في الحرم حيث قال: «لأن الكعبة بيته، والحرم بابه، فلما قصدوه وافدين وقفهم بالباب يتضرّعون»، ثم سئل الإمام عليه السلام عن جعل المشعر الحرام من الحرم فقال: «لأنه لما أذن لهم بالدخول وقفهم بالحجاب الثاني، فلما طال تضرعهم بها أذن لهم بتقريب قربانهم، فلما قضوا تفثهم تطهروا بها من الذنوب التي كانت حجاباً بينهم وبينه أذن لهم بالزيارة على الطهارة» (١).

وعليه، فحرمة الأرض التي احترم الله كلّ ما فيها إنما جاءت من حرمة الكعبة نفسها، إلّا أنّه مع كون الكعبة القبلة الوحيدة، ومطاف العالمين، وموت المسلمين جميعهم إلى جهتها، والقصد إليها قصد للهجرة إلى الله سبحانه، وأيضاً رغم أنّ لمكة خصائص فقهية وسياسية ثابتة، تفتقدها سائر الأماكن والبقاع والمدن، ورغم أن للحج ومواقفه أبعاداً سياسية - عبادية تفتقدها بقية العبادات...

ص: ١٢

إلّا أن تمام هذه الخصائص والمزايا مرهونة للولاية والإمامة.

وسرّ هذا الكلام أن الإرشادات والإدارات الملكوتية للأعمال والنيات، والأدعية، ومشاهدة الآيات البينات، وفهم الأسرار المعنوية للحج، وأمثال ذلك يتمّ جميعه في ظلال الولاية التكوينية للإمام المعصوم عليه السلام، كما أنّ الإدارة والرعاية السياسية للحج ومواقفه، وتوجيه حركة هذا الاجتماع العظيم للصالحين على محور البناء الطاهر الحر، والاستفادة من أفكار أقطار العالم، وارتواء عطاشى الاستقلال والنجاة من الاستعباد والاستكبار العالمى، إنما يكون بالأصالة تحت مظلة إمامة الإمام المعصوم عليه السلام وبالنيابة فى عصر الغيبة تحت شعاع نوابه.

ارتباط الحج وشؤونه بالولاية

ترتبط الجوانب والشؤون المختلفة للحج بالولاية، ونعرض هنا شرحاً لكيفية هذا الارتباط بين الكعبة والولاية، وكذلك طبيعة العلاقة بين كلّ من عرفات والمشعر ومنى وزمزم والصفاء... وبين الإمام المعصوم عليه السلام، وذلك فى ثقافة الوحي ووفق ما جاء على لسان الأئمة المعصومين عليهم السلام.

١- تتمتع مدينة مكة ودائرة الحرم كلّه ببركة خاصة إثر دعاء الخليل إبراهيم عليه السلام، وقد جعلت بهذا الدعاء بلداً آمناً، تماماً كما يقول الله تعالى: «أولم نمكّن لهم حرماً آمناً يجيبى إليه ثمرات كلّ شيء» (١).

إن هذا الأمن الاجتماعى، والاقتصادى وغيره، الذى جاء بيانه فى آية «أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف» (٢)

وآية: «أولم يروا أننا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم» (٣)

إنما كان لما للكعبة من حرمة، إلّا أنّ هذا الاحترام الخاص الذى كان أساساً لقسم الله سبحانه بهذا البلد إنما جاءها من

١- القصص: ٥٧.

٢- قريش: ٤.

٣- العنكبوت: ٦٧.

ص: ١٣

بركات الوحي، والنبوة، والرسالة، والولاية.

وتوضيح ذلك، أن القرآن الكريم أقسم ببلاد وبقاع هامة وتاريخية، كما أقسم بالزمان والأوقات الحساسة والتاريخية، نظير عصر الوحي والرسالة (١)، قال تعالى: «لا أقسم بهذا البلد* وأنت حل بهذا البلد» (٢).

ففي هذه الآيات يقسم الله سبحانه بأرض مكة، لكن قسماً مقيداً بكون نبي الإسلام صلى الله عليه وآله فيها، وإلا فإن مكة من دون النبي، والكعبة من دون قائد سماوي ليستا سوى أرض عادية وبيت عادي غذا تدريجياً بيتاً لعبادة الأصنام، وأصبح أسيراً في قبضة عبدة الأوثان والسائرين خلف ميولهم وشهواتهم حتى أن «أبو غبشان» سادن الكعبة ومن بيده مفاتيحها يبيع مفتاح الكعبة وغلقها إلى رجل يدعى قصي بن كلاب مقابل بعير وزق خمر، وذلك في ليلة ثملة (٣).

٢- ويعرّف الإمام السجاد عليه السلام نفسه وسائر الورثة الحقيقيين الإلهيين في المسجد الجامع بدمشق، بعد الحمد والثناء الإلهيين، والسلام على النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ويقول: «.. أنا ابن مكة ومنى، أنا ابن زمزم والصفاء» (٤).

إن كلمة «ابن» وأمثالها في اللغة العربية تحكى عن علاقة شديدة وارتباط دائم ومستحکم، فالإنسان الكامل، وهو أصل حرمة المراكز العبادية، وفي الوقت عينه إنها ووارثها، يرجع في طبيعة الأمر إليها ويعمل طبق أحكامها، بل يجعل ذلك كله ضمن الشعارات الرسمية للموحدين، فيرغب فيها، ويرهب من الإعراض عنها أو الاعتراض عليها أو معارضتها، وفي المحصلة النهائية: إنه حافظ مآثرها وحارس آثارها، إن الأنبياء والأولياء الإلهيين عليهم السلام هم كذلك بالنسبة إلى مناسك الحج.

١- العصر: ١.

٢- البلد: ١- ٢.

٣- الميزان ٣: ٣٦٢.

٤- بحار الأنوار ٤٥: ١٣٨.

ص: ١٤

وبعبارة أخرى: إنهم أبناء هذه المواقف العبادية بلحاظ بعض النشآت الوجودية، وهم أمراؤها وأصلها ومصدرها بلحاظ نشآت وجودية أخرى.

ومعنى الكلام النوراني للإمام السجاد عليه السلام أن الابن الحقيقي لمكة إنما هو حامى روح القبلة، وحارس قلب المطاف ونفسه، إن الابن الواقعي لمنى هو ذاك الذى لا يأسف على إثارة بدم أو نثار، بغية حفظ الوحي وما فيه، إنه يُحكم علاقته بأرض التضحية عبر الفداء والعطاء.

إن المولود الحقيقي لمزمع إنما هو الذى يرش أفضل الدماء تحت أقدام غرس الإسلام حتى تنمو بذلك وتكبر، كما أن الابن الواقعي للصفاء هو الذى لا سبيل للرجس والنجس والرجز إلى حرم قلبه، فهو منزّه - طبقاً لآية التطهير (١) - عن مختلف أنواع الرجس، وكل قذارة ولوث وذنس.

لانفع للحج بدون الولاية، ولا لقصد الكعبة من دون الإمامة، ولا لحضور عرفات دون معرفة الإمام الإنسان الكامل هو الإمام المعصوم عليه السلام والذى بدونه لا حرمة للحرم ومواقفه، من هنا، فالزائر الذى لا يعرف الإمام المعصوم، ويضع جانباً مسألة الإمامة، ويتخذ إدارة أمور المسلمين فى العالم هدواً وباطلاً، ويفصل ما بين قيادة سواد الناس وبين الحج والزيارة وسائر العبادات، ويرأها أمراً عادياً يرجع إلى خيار كل فرد من الناس، ولا يرى كرامةً لهداية خلق الله وتديير أمورهم... لا يعرف فى الحقيقة الإنسان، بل لم تطأ قدمه حريم الإنسانية، من هذا المنطلق يتحدّث الإمام الباقر عليه السلام عن مثل هذا الزائر والحاج فيقول: «أترى هؤلاء الذين يلبون، والله لأصواتهم أبغض إلى الله من أصوات الحمير» (٢).

١- الأحزاب: ٣٣.

٢- وسائل الشيعة ٩: ٥٧.

ص: ١٥

ومع الأخذ بعين الاعتبار مقولة رسول الله صلى الله عليه وآله: «من مات ولم يعرف إمام زمانه فقد مات ميتة جاهلية» (١) و «كما تعيشون تموتون، وكما تموتون تبعثون، وكما تبعثون تحشرون» (٢)، فإن حياة الإنسان الذي لا يعرف إمامه هي حياة جاهلية، وكل سننها وشؤونها إنما هي جاهلية في جاهليته، ومن المؤكد قهراً أن زيارة مثل هؤلاء للبيت وحجهم سيكون حجاً جاهلياً، ولن يكون لهم نصيب من الحج التوحيدى، وسيأتى مزيد توضيح.

٣- لقد أعد الله سبحانه عذاباً لكل من أراد بالكعبة ظلماً وقصدًا سيئاً:

«ومن يرد فيه بإلحادٍ بظلم نذقه من عذاب أليم» (٣)٧

، من هنا وانطلاقاً من هذه السنّة الإلهية التى لا تبدل فيها، والحكم الإلهى الخالد، لم تكن واقعة الفيل، التى تلقى فيها جيش أبرهه عذاباً إلهياً، واقعة حصرية لا تكرر فيها أو مجرد صدفة تاريخية.

الأمر الرئيس الذى لا ينبغى الغفلة عنه، وهذه الدراسة متكفلة لبيانها، هو أنّ الكعبة رغم قداستها الخاصة، وحمايتها- منذ قديم الأيام- من أذى حملات أصحاب الفيل وأمثال ذلك، إلّا أنه عندما التجأ إليها ابن الزبير وتحصن فيها، أقدمت حكومة ذلك العصر الجبارة، وعلى يد المنحوس الحجاج الثقفى على قصف الكعبة بالمنجنيق وتدميرها، ثم اعتقال ابن الزبير (٤)، دون أن تمتد يد من الغيب

١- المناقب ١: ٢٤٦.

٢- عوالى اللئالى ٤: ٧٢.

٣- الحج: ٢٥.

٤- بحار الأنوار ٢: ٢٨٧.

ص: ١٦

لتفعل فعلها أو تتدخل.

يتحدث الشيخ الصدوق، المحدث الشيعي الشهير، عن هذا الأمر فيقول:

«وإنما لم يجر على الحجاج ما جرى على تبع وأصحاب الفيل؛ لأن قصد الحجاج لم يكن إلى هدم الكعبة، إنما كان قصده إلى ابن الزبير، وكان ضدًا لصاحب الحق، فلما استجار بالكعبة أراد الله أن يبين للناس أنه لم يجره، فأمهل من هدمها عليه» (١).

وعليه، فاختلاف أبرهة عن الحجاج في أنه ظالم أراد تخريب الكعبة وتدمير القبلة، أما الحجاج فلم يكن يقصد الكعبة بسوء، بوصفها قبله ومطافاً، بل كان يريد - فقط - السيطرة على ظالمٍ مثله لم يكن يعرف إمام زمانه، ألا وهو سيد الشهداء والإمام السجاد عليهما السلام.

نعم، الحجاج كابن الزبير جرثومة لا تعرف الحق، وعنصر مناهض للولاية، وقد كان الطرفان ساعيين للإطاحة بنظام ولاية أهل البيت عليهم السلام، وكان خصامهم على حطام الدنيا، لا لعدم مساعدة ابن الزبير لسيد الشهداء والإمام السجاد عليهما السلام.

ومن هذا الحدث يتضح جيداً أن معارضة الولاية والإمامة أمر منبوذ جداً إلى حد أن كل من يخالف قيادة الإمام عليه السلام ويذره وحيداً فريداً دون أن يساعده، بل يتخذ موقفاً مضاداً له، ثم يزعم لنفسه أنه داعية الولاية، لن ينعم بالأمان الخاص الإلهي حتى لو احتفى بالكعبة وقصدها.

ومن هذه الحادثة يعلم جيداً قدر الإمام وحرمة الولاية وعزّة الخلافة الإلهية، تماماً كما يعلم قدر حقه (الإمام) ونورانيته، وجماله، وجلاله، وكبريائه، ومشيتته، وقدرته جيداً بالتحليل العقلي، ذلك أن حرمة الحرم والبلد الأمين إنما تنتهي إلى الكعبة، وحرمة الكعبة تنتهي إلى الإمام الذي اختاره الله سبحانه للولاية، وحرمة الإمام تنتهي بدورها إلى الحق المطلق، أي الله تعالى الذي تخضع له تمام الموجودات وتخضع في حضرته ومكانته.

وعليه، فلو أمهل الله سبحانه ظالماً ليخرب الكعبة، فلا ينتقض بذلك قوله تعالى: «ومن يرد فيه بإلحادٍ بظلمٍ نذقه من عذاب أليم» (٢).

١- من لا يحضره الفقيه ٢: ٢٤٩.

٢- الحج: ٢٥.

ص: ۱۷

تذکرہ:

رغم أنهم قتلوا الإمام المعصوم عليه السلام وغدا على أيديهم شهيداً، إلّا أنّ حقيقة الإمامة قائمة بروحه الملكوتية التي لا مجال للشهادة فيها، ولا سبيل للموت إليها، على خلاف بدنه الذي يعرف الشهادة، وهذا ما يختلف الحال فيه مع الكعبة التي لا وجود فيها إلّا للأحجار والأبعاد المادية.

۴- ويشاهد الإمام الباقر عليه السلام الطائفين بالكعبة، فيقول: «هكذا كانوا يطوفون في الجاهلية»، فلم يأت الإسلام لكي تستمر السنن الجاهلية، ثم يقول: «إنما أمروا أن يطوفوا، ثم ينفروا إلينا، فيعلمونا ولايتهم، ويعرضوا علينا نصرهم» ثم قرأ: «فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم» (۱).

وعليه، فثمة وظيفتان على كاهل القادمين من بعيد أو قريب للتشرف بالكعبة المعظمة هما:
أ- أن يطوفوا ببدنهم حول الكعبة، بوصفها طيناً وأحجاراً.

ب- أن يطوفوا بأرواحهم حول «كعبة القلب» وحرم ولاية أهل بيت النبوة.
وعليه، فأولئك الذين جاؤوا بأرواحهم ليعرضوا ولايتهم على أهل البيت عليهم السلام، ويعلنوا جهوزيتهم للتضحية والفداء وتقديم النفوس والإيثار بالمال يحققون حينئذٍ «حضور الحاضر، وقيام الحجة بوجود الناصر» (۲).

۵- يقول الإمام الباقر عليه السلام: «تمام الحج لقاء الإمام» (۳)، بعرض الولاية عليه والإعلان عن الاستعداد للفداء والتضحية؛ وعليه فالحج الذي لا ظهور فيه للإمام

۱- إبراهيم: ۳۷؛ وانظر: بحار الأنوار ۶۵: ۸۷.

۲- نهج البلاغة، الخطبة رقم: ۳ الشقشقية، المقطع ۱۶.

۳- وسائل الشيعة ۱۰: ۲۵۴.

ص: ١٨

والقائد والمرشد سيكون حجاً ناقصاً.

نعم، ذكر الحج فى هذا الحديث الشريف إنما جاء من باب التمثيل، لا التعيين، أى أنه ليس الحج فقط حاله «تمام الحج لقاء الإمام»، بل إن «تمام الصلاة والصيام والزكاة لقاء الإمام» أيضاً.

ويؤيد هذا الكلام، أى أن الصلاة والزكاة والصيام وسائر العبادات إنما يتممها لقاء الإمام وتوليّه، ما جاء فى قسم من الحديث المعروف الذى يتحدّث عن قيام الإسلام على خمسة أسس، إذ- وفى إطار التأكيد على مبدأ الولاية- يشير الحديث إلى دور «الوالى» وكونه حجّةً ودليلاً على الأركان الأربعة الأخرى، فيقول: «والوالى هو الدليل عليهنّ» (١).

وهذه المسألة مستفادّة من الآية الكريمة: «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً» (٢)، فقد رضى الله سبحانه لنا الإسلام مع الولاية الإلهية، وعليه، فليس الحج وحده «تمام الحج لقاء الإمام» بل يمكن القول: «تمام الإسلام لقاء الإمام». ونشير أخيراً إلى أنه رغم انتهاء احترام الحرم بالكعبة، وحرمة الكعبة بالوحي والنبوة والرسالة والولاية، إلّا أنه- وكما أشرنا مطلع هذا البحث- تختتم تمام هذه الحرمات بالحرمة الإلهية.

من هنا ذكر الله تعالى فى إطار شرحه لسبب احترام الكعبة ما جعلها تنتسب إليه فقال: «بيتى» (٣)، أى أن الحرمة الذاتية لله سبحانه هى السبب وراء الحرمة العرضية للبيت الذى ينتسب إليه، حتى لو كانت الكعبة هى الأصل فى حرمة الأشياء اللاحقة.

الحج والوجه السياسى

الحج مظهر الحكومة الإلهية السامية

الحج- كما تبين- مظهر لأصول الدين المتينة وتجسّد للعقائد الثلاثة:

١- الكافى ٢: ١٨.

٢- المائدة: ٣.

٣- البقرة: ١٢٥، والحج: ٢٦.

ص: ١٩

التوحيد، والنبوة والعدل، تلك الأصول التي تعدّ ثماراً لشجرة الإسلام الطيبة.

وأحد أظهر هذه الثمار في هذه الشجرة الطيبة هو الحكومة الإسلامية، وهي من أهم مظاهر الإسلام، فالمجتمع الذي لا يديره الله ولا يسرى فيه أمره مجتمع كفر وطغيان، ومعبود مثل هذه المجتمعات إنما هو الأهواء المختلفة والرغبات المتنوعة.

بهذه المقدمة، نصل إلى فهم أسرار بعض مضامين أدعية عرفه، فالمضمون المشترك لدعاء سيد الشهداء الإمام الحسين عليه السلام - وهو أهم دعاء في عرفه - مع دعاء الإمام السجاد عليه السلام الذي اعتبر وجود الإمام العادل أساساً لإحياء آثار الدين... المضمون المشترك هو أهمية الولاية في النظام الإسلامي.

وثمة شواهد عدّة على أن الحجّ مظهر الحكومة الإسلامية، وأن لهذه الحكومة تأثيراً على بقائه واستمراره وتكرره، نشير إليها هنا على الترتيب التالي:

١- كان من أدعية إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام عند بناء الكعبة: «ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم» (١).

وسرّ هذا الدعاء والطلب أن الموحدون قد دعوا للحج من تمام نقاط العالم المختلفة وفي تمام الأزمنة والعصور، إذ لا بد أن يكون هناك من ينظم أمورهم، فعلاوة على المناسك العبادية للحج لا بد أن تكون لديهم أصول وأحكام أخرى تتعلق بحياتهم السياسية، وهذه هي الحكومة الإسلامية عينها، التي تغدو ضرورةً لتنظيم أمور الحجيج وسياستهم وإرشادهم.

إنّ الدين الذي يقول: «إذا كنتم ثلاثة في سفر فأمرّوا أحدكم» (٢)، حاشاه أن يذر الناس على حالهم هناك، ولا يضع على هذا الجمع العظيم الذي لا يحصى حاكماً أو أمراً، بل يتركهم يسّرون أمورهم بأهوائهم ورغباتهم.

١- البقرة: ١٢٩.

٢- المحجّة البيضاء ٤: ٥٨.

ص: ٢٠

وبناءً عليه، كان لزاماً أن يكون هناك من يكون القائد لهم والرائد فيهم، حتى تنظم معاملاتهم، وتصوّب نزاعاتهم، وتنتهي خصوماتهم، وترتب أنماط معيشتهم وعلاقاتهم ببعضهم بل وعلاقاتهم بسائر الملل والشعوب.

على هذا الأساس، يقول الإمام على عليه السلام لواليه على مكّة: «أقم للناس الحج» (١)، والمستفاد من هذا الأمر أن الحج لم يقم بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله طيلة خمس وعشرين عاماً، عنيت الحج الإبراهيمي والمحمدي (٢).

٢- يجب على مرشد الدولة الإسلامية وقائدها، أن ينفق قدراً من بيت المال لدفع الناس إلى الذهاب إلى مكّة عندما يمتنع عامة المسلمين عن الذهاب إليها أو لا يكون ذلك في مقدورهم، فيدعم مالياً العاجز، ويجبر الممتنع على ذلك.

جاء في الحديث: «لو عطل الناس الحج لوجب على الإمام أن يجبرهم على الحج، إن شأؤوا وإن أبوا، فإن هذا البيت إنما وضع للحج» (٣).

وسرّ تعبير الإمام الصادق عليه السلام في هذا الحديث: «إن هذا البيت إنما وضع للحج»، هو أن للكعبة خصوصيات قيمة تدفع الناس للسفر إليها، فإذا لم يسافروا إليها- لقصور أو تقصير ولم يؤدوا فريضة الحج عندها، كان على والي المسلمين أن يجبرهم حتى يتجهوا ناحية البيت الحرام، وبلتحقوا بدائرة الطواف، ولا يتركوا ذلك.

إن هذه هي الحكومة الإسلامية التي يديرها حاكم عادل، ويكون بيت مال

١- نهج البلاغة، الرسالة: ٦٧، المقطع ١.

٢- إقامة الحج غير أداء الحج، لذا رغم أن الأئمة عليهم السلام قد ذهبوا إلى الحج مراراً، كما كان الحال مع الإمام الحسن عليه السلام حيث حج ماشياً عشرين مرّة، وسائل الشيعة ٨: ٥٥، وكذا الإمام السجاد عليه السلام حيث حج اثنتين وعشرين مرّة في الحد الأدنى الكافي ١: ٤٦٧، إلّا أنهم لم يستطيعوا إقامة الحج أبداً إلّا في تلك الفترة التي كانت الدولة فيها والسلطة بيد أمير المؤمنين الإمام على عليه السلام، نظراً لعدم كون الدولة في أيديهم، ولعلّه لذلك جاء في زيارة الأئمة المعصومين عليهم السلام: «أشهد أنك قد أقيمت الصلاة وآتيت الزكاة، وأمرت بالمعروف...» دون إشارة إلى إقامة الحج.

٣- وسائل الشيعة ٨: ١٥-١٦.

ص: ٢١

المسلمين في يده.

جاء عن الإمام الصادق عليه السلام في حديث آخر: «لو أنّ الناس تركوا الحج لكان على الوالى أن يجبرهم على ذلك، وعلى المقام عنده، ولو تركوا زيارة النبي صلى الله عليه وآله لكان على الوالى أن يجبرهم على ذلك، وعلى المقام عنده، فإن لم يكن لهم أموال أنفق عليهم من بيت مال المسلمين» (١).

ويستظهر من هذه الرواية أن زيارة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله بمنزلة تجديد للبيعة معه والميثاق لتحكيم الحكومة الإسلامية. ٣- قال الإمام الباقر عليه السلام: «إنما أمر الناس أن يأتوا هذه الأحجار، فيطوفوا بها، ثم يأتونا فيخبرونا بولايتهم، ويعرضوا علينا نصرهم» (٢).

فإذا كانت الحكومة والولاية بغير معنى السياسة فلا حاجة لإخبار الإمام بالولاية وعرض النصر عليه.

٤- تجلّى الإسلام الذى بعث به الأنبياء فى التوحيد الذى يطرد مختلف أنواع الشرك وألوانه، «ولقد بعثنا فى كلّ أمّة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت» (٣).

ولا- ينحصر هذا الإبعاد للشرك والطرده له فى مجرّد الاعتقاد القلبى أو الذكر القالبي، بل يستوعب إعلان الانزجار، ونداء التبرى، وصرخة البراءة من الطغاة الأراذل وكل متجبر متمرد لئيم، وهذا ما يتحقق فى الحج، ذلك أنّه موضع «الإعلام» و«الأذان» بتبرى الإسلام من ألوان الشرك، وأن المسلمين بريؤون من المشركين، وأنّه لا مودّة ولا ألفة بين المسلمين والمشركين: «وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أنّ الله برىء من المشركين ورسوله» (٤).

١- المصدر نفسه.

٢- المصدر نفسه ١٠: ٢٥٢.

٣- النحل: ٣٦.

٤- التوبة: ٣.

ص: ٢٢

ومفاد هذه الآية تبلور البعد السياسي في الحج، وتجلّى الاستقلال الثقافي، حتى لا تبقى سيطرة لأحد من الكفار والمشركين على أيّ من المسلمين، فهل يمكن أن يكون ذلك غير تجسيدٍ لأرفع مراتب الحكومة الإسلامية في الحج؟ وهل يمكن طرد رؤوس الإلحاد وتدمير مواقعهم ومتاريسهم إلّا في ظلّ الحكومة الإسلامية؟!

إذا لم يكن للإسلام حضور سياسي في منى، وهي التي فسّر بها «الحج الأكبر» (١)، فلا يمكن إعلان البراءة من عمّال الجور وعبدة الطاغوت، تماماً كما لا يمكن قيام الناس والمقاومة بحجم العالم، ونشر الاستقامة وتعميمها على العالم - وهو ما بُنيت الكعبة لأجله - سوى بإقامة نظام إسلامي.

ولعلّه لهذه الأسباب أو سائر الأسرار الإلهية المستورة عنا، لم يحج سيد الشهداء الإمام الحسين عليه السلام عام ٦٠ للهجرة رغم مجيئه إلى مكّة، فأدى عمره مفردةً احتراماً للكعبة (٢)، ويؤيد ذلك، ما جاء في كلامه عليه السلام في دعاء عرفه حول الحكومة

١- وسائل الشيعة ١٠: ٦١-٦٢.

٢- كانت لدى الإمام الحسين عليه السلام عزيمة للخروج من مكّة ومنذ البداية، لا أنه شرع بعمره التمتع، ثم أوقفها بحج التمتع، فصار الحج واجباً عليه، لكنه أبدل حج التمتع بالعمره المفردة إثر صدّه عنه، والشاهد على ما نقول، رواية عن الإمام الصادق عليه السلام، جاء فيها: «.. وإن الحسين بن علي عليهما السلام خرج يوم التروية إلى العراق، وكان معتمراً». انظر: وسائل الشيعة ١: ٢٤٦.

ص: ٢٣

الإسلامية.

ولمزيد من إيضاح فكرة ظهور الحكومه في الحج وتجليها فيه، لابد من التركيز المضاعف على ما قام به الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله في حجة الوداع، وما قاله للناس، وما قرره لهم من القضايا السياسية الهامة وغيرها.

المظهر التام للتبّرى من الطاغوت

بُعث الأنبياء الإلهيون جميعهم كى لا- يفرش نسر الشرك وطائره ريشه فوق قلته هرم التوحيد، وأن لا- يحرّموا بشيطان الطاغوت والعصيان فى حرم الوجدانية السامى (١)، فالكعبة والحج والزياره محور التقوى، وأساس الاجتناب عن الطغيان، والتمرد فى وجه الطاغوت.

لقد أظهر المولى سبحانه مناسك الحج بالوحى لخليله إبراهيم (٢)، ولا ثمر لذلك ولا نتاج سوى التوحيد، وهذه المناسك التوحيدية هى التى علمها خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله لسالكى طريقه ومتبعيه، حيث قال: «خذوا عنى مناسككم» (٣).
وحيث قام بناء التقوى الفولاذى على قاعدة التوحيد التى لا تهتز أو تختل، وكان الحج هو التجسيد الجلى للتوحيد؛ قال الله سبحانه- ضمن إصداره أوامر الحج:- «الحج أشهر معلومات... وترودوا فإن خير الزاد التقوى» (٤).

وحول الأضحى، وهى من مناسك الحج، التى كانت ممتدة فى تاريخ السنن والعادات الجاهلية مشوبةً بالشرك، يكلمنا الله تعالى فى إرشاد تقوائى فيقول: «لن ينال الله لحومها ولا- دماؤها ولكن يناله التقوى منكم» (٥)، أى يناله الاجتناب عن الذنوب، والقيام ضد العاصى، والتورّع عن المعصية، والثورة ضد المذنبين المتمردىن، والإمساك عن العصيان، والصرخة ضد العاصى، والاجتناب عن

١- النحل: ٣٦.

٢- البقرة: ١٢٨.

٣- عوالى اللثالى ١: ٢١٥.

٤- البقرة: ١٩٧.

٥- الحج: ٣٧.

ص: ٢٤

الطغيان، والهجوم على الطواغيت و...

كلّ عبادة هي تبرؤ من الشرك وانزجار من الطاغوت، أما الحج فهو عبادة خاصة امتزجت بالسياسة واختلطت، وإن حضور مختلف شرائح المجتمع العالمي وطبقاته يمثل ظرفاً مناسباً لتجلى روح هذه العبادة- كسائر العبادات الإلهية- في هذا الجمع العظيم، وظهور هذه العبادة الممتازة في تلك الساحة ظهوراً تاماً.

من هذا المنطلق، أمر رسول الله صلى الله عليه وآله- بأمر من الوحي الإلهي- الناطق باسم الحكومة الإسلامية- وهو على بن أبي طالب عليه السلام- أن يعلن البراءة من المشركين (١)، حتى تمتاز بشكل قاطع حدود التوحيد عن الطغيان والشرك، وتتخرج صفوف المسلمين المتناسفة عن صفوف الكفار، فتظهر- عبر ذلك- الصورة السياسية العبادية للحج، ويحمل زوار الكعبة زاد التوحيد معهم مع استماعهم إلى قرار الحكومة الإسلامية الصادر بالانزجار من الشرك، وإعلان نبذ الصلح والمصالحة مع المشركين (٢). من هنا، ينتشر قرار التوحيد وإعلانه ببركة الكعبة في أقطار العالم المختلفة، تماماً كما يتوجه المسلمون كافة في الكثير من شؤون حياتهم ناحية الكعبة.

محور البراءة من المشركين

لا كمال أرفع ولا أسمى من نيل التوحيد الأصيل الخالص، ولا يمكن ذلك ولا يتسنى إلّا بالتزهد والتبرّي التام من مختلف ألوان الشرك والإلحاد، والرفض لكلّ مشركٍ وملحد.

من هنا، جعل الله سبحانه الكعبة بيت التوحيد، واعتبرها محوراً للبراءة من الذنوب والعصيان والتهاوي، بل مهّد لذلك وهياً سبله عبر الأمور التالية:

١- بحار الأنوار ٣٥: ٣٠٣.

٢- التوبة: ٣

ص: ٢٥

أولاً: أصدر المولى سبحانه وتعالى أوامر لخليله إبراهيم عليه السلام بعد إتمام بناء البيت العتيق الطاهر، بيت المواساة والمساواة، وبعد تشريع قرار الأمن للحرم أمام الضيوف والزوار والركع السجود والعاكفين والطائفين، فقال: «وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق» (١).

والهدف من هذا الإعلان العام دعوة أولئك القادرين على الحضور بشكل طبيعي ومتعارف.

ثانياً: عندما يأتى الجميع، من الشرق والغرب، ومن الشمال والجنوب، ومن القريب والبعيد... فيشتركون في هذا الملتقى الشامل الواسع، تصل النوبة للإعلان المحمدي والأذان، من هنا قال تعالى: «وأذن من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله» (٢).

كان هذا الإعلان الذى سبق مقدماً للإعلان الثانى، الذى هو الهدف النهائى لبناء الكعبة، وإعلامه هذا الهدف النهائى يعنى الوصول إلى التوحيد متبلوراً على صورة إعلان براءة الله ورسوله الأكرم صلى الله عليه وآله من المشركين، ومادام الإنسان حياً يرزق على وجه البسيطة فإن الحج والزيارة يبقيان فى عهده وضمن مسؤولياته، ومادام ثمه مشرك فى هذا العالم مادام إعلان البراءة منه جزءاً من أهم وظائف الحج.

من هنا، تتضح مسؤولية نهوض الأمة لتطهير الكعبة المقدسة من ولاية الطغاة والنفعين الوصوليين، أولئك السراق الذين قال عنهم الإمام الصادق عليه السلام:

«أما إن قائمنا لو قد قام لقد أخذهم، فقطع أيديهم، وطاف بهم، وقال: هؤلاء سراق الله» (٣)

١- الحج: ٢٧.

٢- التوبة: ٣، ومن مصاديق أيام الحج الأكبر الواردة فى هذه الآية الكريمة يوم عرفه، ويوم عيد الأضحى، تماماً كما الحج الأكبر قياساً بالعمرة، والعمرة قياساً إليه حج كبير.

٣- وسائل الشيعة ٩: ٣٥٥.

ص: ٢٦

إنَّ القيام لتطهير الكعبة وتخليصها من يد الأشرار شريعة إبراهيمية، لا يصرف النظر عنها سوى فاقد العقل، «ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلّا من سفه نفسه» (١).

وحيث كان رسول الله صلى الله عليه وآله ومن اتبعه وآمن به أولى الناس بإبراهيم، وهو الذى طهر الكعبة من ألوان اللوث والنجاسة والخسة... (٢) فعلى الأمة الإسلامية اليوم أن تطهر بيت الله سبحانه من مختلف القبائح والدنائس والنجاسات.

نعم، ليس المقصود مجرد إبعاد الجسم المادى للمشرك حتى يُقال: لا- مشرك فى الحجاز اليوم كى يحصل التبرى منه فى موسم الحج! بل المراد من البراءة إعلان الرفض والتنديد والانزجار من كل فكر مشوب بالشرك، وكل تمدن باطل لأولئك الذين تأثروا بهذا الشرك، وكل استعمار ظالم للملحدين، وكل استثمار طاغ للماديين، وكل استعباد قاسٍ مجحف للمستكبرين، وكل استعمار سامرى (٣) للإسرائيليين، وكل استضعاف ماكر للدول العظمى.

والحج أهم الأمكنة التى يتجلى فيها هذا الأمر، وقمم هذه النهضة، حيث يلزم على المسلمين فيه حفظ حرمة الله تعالى، والسعى لرفع عزة الحق عالياً، والتقوى بقوته، وأخذ المدد والعون منه، والتخلق بالأخلاق الإلهية، حتى لا يصيروا موضعاً لظلم الظالمين وبطشهم، فالحج هجرة إلى الله تعالى، يقصده الناس لأداء مناسكه من مختلف نقاط الدنيا.

١- البقرة: ١٣٠.

٢- آل عمران: ٦٨.

٣- نسبة إلى السامرى الذى جاء ذكره فى القرآن الكريم.

حجّ أهل الشريعة والطريقة والحقيقة

إشارة

حجّ أهل الشريعة والطريقة والحقيقة (١)

السيد حيدر الآملي

تحقيق: السيد أبو الحسن المطليبي

المؤلف في سطور

السيد حيدر بن علي بن حيدر بن علي العلوي الحسيني الآملي المازندراني، كما ذكره القاضي نور الله في مصائب النواصب، في مدحه من أصحابنا الإمامية المتألهين، وأنه السيد العارف المحقق الأوحدي، وأنه من علماء الشيعة، والمعاصر للشيخ فخر المحققين ولد العلامة الحلّي، والحسين بن حمزة الهاشمي، ويروي عنهما قدس سرهما (٢). كانت ولادة السيد المؤلف في بلدة آمل، حوالي سنة ٧١٩ أو سنة

١- الجدير بالذكر أننا أخذنا هذا العنوان وما يبحث تحته من أحد الآثار العرفانية القيمة، الموسوم بـ «أسرار الشريعة وأطوار الطريقة وأنوار الحقيقة» ص ٢٢١ - ٢٤٤ للعارف المتأله السيد حيدر الآملي، والذي صحّحه محمد خواجه جوي، ونشرته مؤسسة مطالعات وتحقيقات فرهنگي، في طهران، دون تاريخ. استند المؤلف في هذه الكلمات الثلاث: «الشريعة» و «الطريقة» و «الحقيقة» لتسمية كتابه من قول رسول الله صلى الله عليه وآله: «الشريعة أقوالى، والطريقة أفعالى، والحقيقة أحوالى»، وقوله تعالى: «لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمَنْهَاجًا» النساء: ٥٢، وقوله تعالى: «وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً» الواقعة: ٧. ورد الحديث في كتاب «الإنسان الكامل» لعزير الدين النسفى: ٣..

٢- راجع: رياض العلماء ٢: ٢١٨.

ص: ٢٨

٧٢٠ للهجرة، والحقبه الممتده من هذا التاريخ حتى سنه ٧٥١، أى ما يزيد قليلاً على ثلاثين عاماً، يمكن تسميتها بالدور الفارسى الأول لنشأته الزمنية، خلال هذه الفترة المحدده أتم تكوينه الفكرى وثقافته الإسلاميه فى المراكز العلميه الفارسيه، ولاسيما بإصبهان، إحدى عواصم الفكر الإسلامى الخالد، على مرّ الأجيال.

وفى هذه الفترة أيضاً- وبتعبير أكثر دقه فى مستهل شبابه المتفتح- مارس بعض الوظائف الاجتماعيه المرموقه، وهى- على حد قوله- تصدر الرياسه والوزاره، ومن المحتمل أن يكون هذا فى حدود ٧٤٠-٧٥١ للهجرة.

وأما بعد هذا العام (٧٥١) فقد ترك السيد المؤلف الوزاره والرياسه... كما يحدثنا عن نفسه بنفسه:

«إن الله تعالى لما أمرنى بترك ما سواه، والتوجه إليه حقّ التوجه، ألهمنى بطلب (كذا) مقام و منزل أسكن فيه، وأتوجه إلى عبادته و طاعته، بموجب أمره وإشارته (مكان) لا يكون أعلى منه، ولأشرف فى هذا العالم.

فتوجّهت إلى مكه شرفها الله تعالى- بعد ترك الوزاره والرياسه و المال والجاه والوالد والوالده، وجميع الأقارب والإخوان والأصحاب- وخرجت من بلدى الذى هو الآمل والطبرستان من طرف خراسان.

وكنت وزيراً للملك الذى (هو) بهذا البلد، وكان من أعظم ملوك الفرس؛ لأنه كان من أعظم أولاد كسرى، وكان اسمه الملك السعيد فخر الدوله بن الملك المرحوم شاه كتخدا- (طيب) الله ثراهما و جعل الجنه مثاوما- وكان عمرى فى هذه الحاله ثلاثين سنه.

وقد جرى علىّ إلى حين الوصول إلى مكه، فى هذه الصوره أنواع

ص: ٢٩

من البليات، وأصناف من المجاهدات، لا يمكن شرحها إلا بمجلدات.

ومع ذلك كان (في) أكثر الحالات جارياً على لساني قول الله جلّ ذكره:

«وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً» (١)، وقول العارف المشتاق مثلي وهو قوله:

تركت الخلق طراً في رضاكا وأيتمت العيال لكي أراكا

فلو قطعني إرباً فإرباً لما حنّ الفؤاد إلى سواكا

وعلى الجملة (مازال هكذا شأني)، حتى وصلت إلى مكة وحججت وجوباً، وقمت بالفرائض والنوافل، من المناسك وغيرها، سنة إحدى وخمسين و سبع مائة من الهجرة. وأردت المجاورة بها، فحصل لي شوق إلى المجاورة بالمدينة؛ فإني ما كنت زرت رسول الله صلى الله عليه وآله ولا أولاده وأصحابه.

فتوجهت إلى المدينة وزرت رسول الله صلى الله عليه وآله وعزمت على المجاورة، فحصل لي أيضاً مانع من الموانع، أعظمها المرض الصوري، بحيث وجب الرجوع إلى العراق، والمكان المألوف الذي هو المشهد الغروي المقدس سلام الله على مشرفه.

فرجعت بالسلامة إليه، وسكنت فيه، مشغلاً بالرياضة والخلوّة والطاعة والعبادة، التي لا يمكن (أن يكون) أبلغ منها، ولا أعظم؛ ففاض على قلبي من الله تعالى، و (من) حضراته الغيبية، في هذه المدّة...» (٢).

١- النساء: ١٠٠.

٢- جامع الأسرار ومنبع الأبرار، الشيخ حيدر الأملي. الطبعة الثانية، طهران، شركة انتشارات علمي وفرهنگي وانجمن ايران شناسي

فرانسه، ١٣٦٨ شمسي، ص ١٠-١٢.

ص: ٣٠

مؤلفاته

- ١- الأركان فى فروع شرائع أهل الإيمان.
- ٢- أسرار الشريعة وأنوار الحقيقة.
- ٣- اصطلاحات الصوفية.
- ٤- أمثلة التوحيد وأبنية التجريد، فارسى.
- ٥- البحر الخضم فى تفسير القرآن.
- ٦- تلخيص اصطلاحات الصوفية.
- ٧- جامع الأسرار ومنبع الأبرار.
- ٨- جامع الحقائق. فارسى.
- ٩- رسالة الأركان؛ موضوعها: بيان الأركان الدينية الخمسة: الزهد، الصلاة، الصوم، الزكاة، والحج، والجهاد، شريعة وطريقة وحقيقة.
- ١٠- رسالة الأسماء الإلهية.
- ١١- رسالة الإمامة الإلهية فى يقين الخلافة الربانية.
- ١٢- رسالة التنزيه، فارسى.
- ١٣- رسالة التوحيد.
- ١٤- رسالة الجداول الموسومة بمدارج السالكين فى مراتب العارفين.
- ١٥- رسالة الحجج و خلاصة الكتب.
- ١٦- رسالة رافعة الخلاف عن وجه سكوت أمير المؤمنين عن الاختلاف، ألفها الشيخ السيد الآملى فى العراق، إثر مجيئه إليها؛ إجابة لرغبة الشيخ فخر المحققين محمد بن بن الحسن بن المطهر الحلى (٧٧١هـ).

ص: ٣١

- ١٧- رسالة العقل والنفس.
- ١٨- رسالة العلم وتحقيقه.
- ١٩- رسالة العلوم العالیه.
- ٢٠- رسالة الفقر وتحقیق الفخر.
- ٢١- رسالة كنز الكنوز وكشف الرموز.
- ٢٢- رسالة المعاد فی رجوع العباد.
- ٢٣- رسالة منتخب التأویل فی بیان كتاب الله وحروفه وكلماته وآياته.
- ٢٤- رسالة النفس فی معرفة الرب.
- ٢٥- رسالة نقد النقود فی معرفة الوجود.
- ٢٦- رسالة الوجود فی معرفة المعبود.
- ٢٧- كتاب الأصول والأركان فی تهذيب الأصحاب والإخوان.
- ٢٨- كتاب تعيين الأقطاب والأوتاد.
- ٢٩- الكشكول فیما جرى على آل الرسول.
- ٣٠- المحيط الأعظم والطود الأشم فی تأویل كتاب الله العزيز الحكيم.
- ٣١- المسائل الآملیه.
- ٣٢- منتخبات أنوار الشریعة.
- ٣٣- منتقى المعاد فی مرتقى العباد.
- ٣٤- نص النصوص فی شرح الفصوص.
- ٣٥- نهاية التوحيد فی بداية التجريد (١).

١- جامع الأسرار ومنبع الأنوار: ١٩- ٣٥.

ص: ٣٢

وفاته

لم نعر على تاريخ وفاته، ولكن وردت ترجمته في المصادر الآتية:

مجالس المؤمنین للقاضي نور الله الشوشتري، ج ٢، ص ٥١-٥٤؛ روضات الجنّات لمحمد باقر الخوانساري، ج ٢، ص ٣٧٧-٣٨٠؛ أعيان الشيعة لمحسن العاملي، ج ٦، ص ٢٧١-٢٧٣؛ ريحانة الأدب لمحمد على التبريزي، ج ١، ص ٦٤؛ فوائد الرضوية للمحدّث القمي، ج ١، ص ١٦٥-١٦٦؛ معجم بروكلمان، الذيل ٢، ص ٢٥٩؛ الأعلام للزركلي، ج ٢، ص ٢٩٠ و....

وأما حج أهل الشريعة

فالحج عندهم من حيث اللغة القصد، ومن حيث الاصطلاح الشرعي القصد إلى بيت الله الحرام؛ لأداء مناسك مخصوصة متعلقة بوقت مخصوص، وهو واجب ومندوب، فالواجب على ضربين:

مطلق ومقيد، فالمطلق هو حجة الإسلام، وهي واجبة بشروط ثمانية:

البلوغ، وكمال العقل، والحريّة، والصحة، ووجود الزاد والراحلة، والرجوع إلى كفاية من المال أو الصناعة أو الحرفة، وتخليّة السرب من الموانع، وإمكان المسير، ومتى اختل واحد من هذه الشروط سقط الوجوب، ولم يسقط الاستحباب.

ومن شروط صحة أدائها: الإسلام وكمال العقل، وعند تكامل الشروط تجب في العمر مرة واحدة، وما زاد عليها فمستحب، ووجوبه على الفور دون التراخي.

وأما المقيد فهو يجب عند سبب، وذلك ما يجب بالنذر أو العهد، وهو بحسبهما إن كان واحداً فواحداً، وإن كان أكثر فأكثر، ولا يتداخل الفرضان على الأقوى، وإذا اجتمعا لا يجزى (١) أحدهما عن الآخر، وقد روى أنه إذا حج بنية النذر أجزأ عن حجه الإسلام (٢)، والأول أحوط، ولا ينعقد النذر به إلا من كامل العقل الحرّ، ولا يراعى باقى الشروط.

وأما أقسامه، فالحج على ثلاثة أضرب: تمتع، وقران، وإفراد، فالتمتع هو فرض من لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام، والإفراد والقران فرض من كان (كانوا) حاضريه، وحده من كان بينه وبين المسجد الحرام اثنا عشر ميلاً من أربع جوانب البيت، أعنى أربع فراسخ؛ لأن كل فرسخ ثلاثة أميال، وكل ميل أربعة

١- يجوز.

٢- عوالى اللآلى ٣: ١٥٢، ح ٨.

ص: ٣٤

آلاف ذراع، وكل ذراع أربعة وعشرون إصبعاً، فيكون المجموع أربعة فراسخ.
وأما أفعاله، فأفعال الحج على ضربين: مفروض، ومسنون، والمفروض على ضربين: ركن وغير ركن في الأنواع الثلاثة التي ذكرناها، فأركان التمتع عشرة:

أربعة منها للعمرة، وستة للحج، أما التي للعمرة: فالتبئة، والإحرام، من الميقات في وقته، وطواف العمرة، والسعي بين الصفا والمروة، أما التي للحج، فالتبئة بالحج، والوقوف بعرفات، والوقوف بالمشعر، وطواف الحج، والسعي للحج، وما ليس بركن فثمانية أشياء: التلبيات الأربع مع الإمكان أو ما يقوم مقامها مع العجز، وركعتا طواف العمرة، والتقصير بعد السعي، والتلبئة عند الإحرام بالحج أو ما يقوم مقامها، والهدى أو ما يقوم مقامه من الصوم مع العجز، وركعتا طواف الحج، وطواف النساء، وركعتا الطواف له.

وأما أركان القارن والمفرد فستة: التبئة، والإحرام، والوقوف بعرفات، والوقوف بالمشعر، وطواف الزيارة، والسعي، وما ليس بركن فيهما أربعة أشياء:

التلبئة أو ما يقوم مقامها من تقليد أو إشعار، وركعتا طواف الزيارة، وطواف النساء، وركعتا الطواف له، ويتميز القارن من المفرد بسباق الهدى، ويستحب لهما تجديد التلبئة عند كل طواف.

وأما المسنونات فتلك كثيرة تعرف من مظانها، والسلام على من اتبع الهدى، هذا حج أهل الشريعة على طريقة أهل البيت عليهم السلام.

وأما حج أهل الطريقة

بعد القيام بالحج المذكور والاعتقاد فيه، فهو القصد إلى بيت الله الحقيقي والكعبة المعنوية بحسب السير والسلوك، وليت الله عندهم اعتبارات، اعتبار في الآفاق واعتبار في الأنفس، أما الآفاق فهو عبارة عن قلب الإنسان الكبير المسمى بالنفس الكلية والبيت المعمور واللوح المحفوظ، وأما الأنفس فهو عبارة عن قلب الإنسان الصغير المسمى بالفؤاد والصدر والنفس الناطقة الجزئية، وغير ذلك من الأسماء الواردة فيهما، والأول يتعلق بأهل الحقيقة؛ لأنه قبلتهم، والثاني يتعلق بأهل الطريقة فإنه أيضاً قبلتهم، أما أهل الحقيقة وكيفية قصدهم وتوجههم إلى قبلتهم فستعرفها بعد هذا البحث إن شاء الله تعالى.

وأما أهل الطريقة وكيفية قصدهم وتوجههم إلى قبلتهم التي هي قلبهم، فهي موقوفة على تقرير مقدمه، وهي أنه ورد في الخبر: أن أول بيت مدت على الماء وظهرت على وجهه كانت الكعبة، قبل الأرض وما عليها من البيوت، وهو قوله عليه السلام: «الكعبة أول بيت ظهرت على وجه الماء عند خلق السماء، خلقه الله قبل الأرض بألفى عام، وكان زبداء بيضاء على وجه الماء فدحيت الأرض تحته» (١)، وقد شهد بصحته ذلك قوله تعالى:

«إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ» (٢).

والمراد من إيراد الخبر والآية أنك تعرف أن هناك كعبة صورية وكعبة معنوية، وكل واحدة منهما تنقسم إلى قسمين: أما الصورية فتنقسم منها المسجد الصوري المسمى ببيت الله الحرام، وقسم آخر القلب الصوري المسمى أيضاً ببيت الله

١- راجع: مستدرک الوسائل ٩: ٣٣٥، باب ١٢، ح ٢.

٢- آل عمران: ٩٦-٩٧.

ص: ٣٦

الحرام، وأما المعنوية فقسم منها قلب الإنسان الكبير المعبر عنه بالنفس الكلية، وقسم آخر قلب الإنسان الصغير المعبر عنه بالنفس الناطقة الجزئية، فكما أن يصدق الخبر والآية من حيث التطبيق على القسمين الأولين، كذلك يصدق على القسمين الآخرين، لأن أول حقيقة ظهرت في العالم الروحاني من روح الإنسان الكبير المعبر عنه بأول ما خلق الله الروح أو العقل، كانت قلبه الحقيقي المعبر عنه بالنفس الكلية؛ لقوله تعالى: «يَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ» (١)

كما أن أول صورة ظهرت في العالم الجسماني المعبر عنه بالأرض كانت صورة البكة الصورية؛ لقوله تعالى: «إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ» (٢)

وأول حقيقة ظهرت في العالم الروحاني من روح الإنسان الصغير المعبر عنه بقوله: «فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي» (٣) كانت قلبه الحقيقي المعبر عنه بقوله: «لا يسعني أرضى ولا سمائي، ولكن يسعني قلب عبدى المؤمن» (٤)، كما أن أول صورة ظهرت

في العالم الجسماني المعبر عنه بالبدن كانت صورة القلب الصوري المعبر عنه بالصدر لقوله: «أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ» (٥) فكما أن من الكعبة الصورية يستدل على الكعبة المعنوية التي هي قلب الإنسان الكبير، فكذلك في الصورة القلبية يستدل على الكعبة

المعنوية التي هي قلب الإنسان الصغير، بحكم قوله: «سُنِّرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ» (٦)

وهذا بيان إجمالي محتاج إلى بيان تفصيلي، وهو أن نقول:

إعلم أن قوله عليه السلام: «الكعبة أول بيت ظهرت على وجه الماء عند خلق

١- النساء: ١.

٢- آل عمران: ٩٦.

٣- الحجر: ٢٩.

٤- علل الشرائع ١: ٣٦، باب ٣٢، ح ٧.

٥- الشرح: ١.

٦- فصلت: ٥٣.

ص: ٣٧

السماء...» (١) الحديث، بالنسبة إلى الإنسان الكبير أول بيت يكون نفسه الكلية المسماة بيت الله الأعظم، وظهورها على وجه الماء يكون إشارة إلى العوالم الروحانية التي صدرت منها قبل العوالم الجسمانية، فإن كل شيء يكون فوق شيء يكون هو عليه، ولا شك أن النفس الكلية فوق النفوس الجزئية والعوالم الروحانية، فتكون هي عليهما، وقوله تعالى: «وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ» (٢)

هذا معناه أيضاً، يعنى كان العرش قبل خلق السموات وأرض الجسمانيات على الروحانيات من العقول والنفوس، إن أراد بالعرش العرش المعنوي الذي هو العقل الأول، وإن أراد بالعرش العرش الصوري على قول بعض المفسرين (٣)؛ لأنهم قالوا: إن بين العرش والماء حيث لم يكن في أول الحال حائل يجوز أن يقال: إنه عليه، وهذا القائل ناصر الدين البيضاوي، هذا وجه.

أما حج أهل الطريقة.. فهو القصد إلى بيت الله الحقيقي والكعبة المعنوية بحسب السير والسلوك ووجه آخر، أن الماء هو العلم الإلهي الذي عليه كل شيء من حيث الثبوت فيها دائماً أبداً، وتخصيصه بالعرش يكون لعظمته، أعنى إذا كان قيام العظيم وبقاؤه به فالصغير بالطريق الأولى، والغرض أنا إذا فرضنا هذا الماء الذي عليه العرش نطفة الإنسان الكبير من حيث الصورة، كما هو مقرر عند أهل الله، فيكون الماء بمعنى الماء الصوري، ويكون ظهورها عليه بمعنى تعلقها بالنطفة التي يوجد منها صورة العالم بأسرها، فإن أهل الشرع قد اتفقوا على أن ابتداء العالم كان من الماء، بحكم ورد عن النبي صلى الله عليه وآله في هذا الباب، وهو قوله: «أول ما خلق الله تعالى جوهره، فنظر إليها فذابت حياءً أو قهراً»- على اختلاف الروايتين- فصارت نصفها ناراً ونصفها ماءً، فخلق من الماء السماوات، ومن النار الأرضون، أو خلق من الماء الجنة، ومن النار الجحيم، أو خلق من الماء الروحانيات، ومن النار الجسمانيات، ولا مشاحة في الألفاظ.

وبرهانهم على ذلك التطابق بين العالمين الآفاقي والأنفسي، فإن ابتداء العالم الصغير وإيجاده بحسب الصورة (٤) كان من الماء الذي هو النطفة، والصغير أنموذج (٥) الكبير من جميع الوجوه، فيجب أن يكون هو أيضاً كذلك، وهذا أقرب الوجوه، لأن إيجاد الإنسان الصغير الذي هو نسخته وأنموذجه (٦) حيث كان على هذا الوضع، لأنه أوله كان نطفة، ثم صار مضغاً، ثم صار علقة إلى آخر الأطوار، فيجب أن يكون هو كذلك.

وقوله: «عند خلق السماء» يكون إشارة إلى تقديم الروحانيات على الجسمانيات، بناءً على هذا الترتيب الأول لا الثاني، أعنى من حيث النزول من العلويات إلى السفليات لا العكس.

وقوله: «قبل الأرض بألفى عام» يكون إشارة إلى أن النفس الكلية المسماة بالكعبة الحقيقية خلقها الله قبل الأجسام المعبر عنه بالأرض بألفى عام، يكون المراد بألفى عام طورين كاملين: الأول طور العقل، ثم طور النفس؛ لأنهما سابقان على الأرواح والأجسام بمدّة مديدة، وأما دورين من أدوار الكواكب؛ لأن لكل كوكب منها دور خاص، وهو ألف سنة، ودور مشترك، وهو ستة آلاف سنة، ويكون المراد أن عالم الأجسام خلق بعد خلق الأنفس والأرواح بدورين كاملين، وقد سبق أيضاً هذا البحث مبسوطاً، وقد تقرّر أن في مدّة دور زحل يكون العالم

١- مّ تخريجها.

٢- هود: ٧.

٣- تفسير البيضاوي ٢: ٢٥٣

٤- بحسب الصورة ساقطة.

٥- كذا في النسختين.

٦- كذا في النسختين.

ص: ٣٩

خراباً، وفي ابتداء دور المشتري بيتدى بالعمارة، وفي آخرها توجه الحيوانات حتى ينتهي إلى الإنسان، فيكون المراد بألفى عام دور هذين الكوكبين على الوجه الذى قرناه، أو طورى العقل والنفس، وعندى هذا أنسب، وإن كان الوجهين [الوجهان] من عندى، وتقديم الأرواح على عالم الأجسام أظهر وأبين من أن يحتاج إلى بيان وبرهان، وسيما قد شهد به الخبر والقرآن، فإن النبى صلى الله عليه وآله قال:

«خلق الله تعالى الأرواح قبل الأجساد بألفى عام»، والقرآن قد نطق بأن الأرواح قبل الأجسام فى مواضع شتى، منها قوله: «وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ» (١) الآية، قوله: «ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ» (٢)، وثم لا يكون إلالتراخى.

«وكان زبده يضاء على وجه الماء»، إشارة إلى صفاء النفس الكلية ولطافتها بالنسبة إلى الروحانيات الأخر التى كانت تحتها المشار إليها بالماء، لأن كل ما هو أعلى من الروحانيات فهو أطف، وكذلك من الجسمانيات أيضاً. وقوله: «فدحيت الأرض تحتها» يكون إشارة إلى إيجاد عالم الأجسام بعدها، لأن عالم الأجسام وجد بعد عالم الأرواح بمدة مديدة، وفيه قيل: إن عالم الأمر والأرواح هو الذى لا يحتاج إلى مدة ومادة، وعالم الخلق والأجسام هو الذى يحتاج إلى مادة و مدة.

هذا من حيث الخبر، وأما من حيث المعنى (٣) يمكن هذا المعنى بعينه لكن يطول، فالإعراض عنها اعتماداً على أهلها أولى وأحسن. وأما تطبيق الخبر بالنسبة إلى الإنسان الصغير، فقوله عليه السلام: «الكعبة أول بيت ظهرت على وجه الماء عند خلق السماء...» الحديث، البيت بالنسبة إليه يكون القلب الحقيقى المسمى بيت الله الحرام، وظهوره على وجه الماء يكون بمعنى تعلق

١- الأعراف: ١٧٢.

٢- المؤمنون: ١٤.

٣- الآية.

ص: ٤٠

روحه بالنطفة من حيث التدبير والإيجاد إن قلنا بالتجرد، وإن لم نقل بالتجرد فذلك ظاهر، وخلقه عند خلق السماء يكون عبارة عن خلق الروح الإنساني المعبر عنه بالقلب قبل الروح الحيواني المعبر عنه بالسماء، وقبل الأرض بألفى عام يكون إشارة إلى خلق روحه قبل بدنه بالطورين الكاملين المذكورين أو الدورين المعلومين، أعنى كان إيجاد روحه قبل إيجاد بدنه ومادته الصورية بالطورين الكاملين من طورى العقل والروح، أو الدورين اللذين هما دور زحل والمشتري المتقدم ذكرهما.

وقوله: «زبدۀ بيضاء»، يكون إشارة إلى صفاء جوهريته و لطافته قبل تعلقه بالبدن المعبر عنه بالأرض، وعلى وجه الماء يكون إشارة إلى النطفة التى هى مادة البدن وصورة الإنسان، ويكون المراد تعلق الروح بإيجاده وإظهاره فى عالم الغيب وعالم الأمر.

وقوله: «فدحيت الأرض تحته» يكون إشارة إلى البدن، ويكون معناه أن الروح إذا توجهت إلى النطفة من حيث التدبير والتعلق، دحيت وبسطت البدن بحسب حكمه وأمره؛ لينتظم حال الصورة الإنسانية باجتماعهما واتحادهما، وذلك تقدير العزيز العليم، وبناءً على هذا فمعنى الآية وهو أن يقول: «أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ» (١)

البدن، الذين هم قواه وجوارحه وأعضاؤه كان (٢) صورة القلب الصورى دون المعنوى، ليتوجهوا إليه فى تحصيل مقاصدهم ومعارفهم.

و «بَيْكَةً مُبَارَكًا» يكون إشارة إلى صدره الذى يحيط به كمكة بالمسجد والمسجد بالكعبة، لأن الكعبة بمثابة القلب، والصدر بمثابة المسجد، والبدن بمثابة الحرم أو مكة، ومباركاً، يكون صفة للبركات التى تحصل منها من (٣) المعارف

١- آل عمران: ٩٦.

٢- كانت.

٣- ساقطة.

ص: ٤١

الإلهية والحقايق الربانية.

و «وَهْدَىٰ لِلْعَالَمِينَ» أى هذا البيت هدى للطوائف التى (١) حوالية من أهل عالمه، أى من قواه الروحانية والجسمانية والأرواح الحيوانية والنفسانية والنباتية وغير ذلك، والطائفتين والقائمين والركع السجود إشارة إليهم، كما سبق بيانه فى معنى الشكر الحقيقى والحديث النبوى: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته».

«فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ» يكون إشارة إلى حضرة العقل المستفاد التى هى حضرة القدس ومقام التدانى، فإنه من أعظم آيات الله وأعلاها (٢).

«وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا» يكون (٣) تقديره أن من دخل هذا البيت المسمى بالقلب على ما ينبغى أمن من إغواء الشياطين النفس (٤) الأمارة، وإغواء عفريت الخيال، واختطاف جنود الوهم، وتصرف صعاليك (٥) الجن والإنس.

«وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتِطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا»، معناه أى ولله على الناس التى ذكرناهم حج هذا البيت، أى القصد إليه والطواف له؛ ليطلعوا على آياته وأسراره وحقايقه، ويصلوا به إلى الله وإلى جناته وحضراته، لكن من استطاع إلى هذا سبيلًا، أى من استطاع إلى هذه الطريقة والقيام بها طريقًا وتمكّنًا، أى يتمكّن من سلوك هذا الطريق بقوة الزاد الحقيقى الذى هو العلوم اليقينية والفناء الكلى والموت الإرادى المعبر عنهما بالعلم والعمل، لأن كل من لم يكن له هذه الاستطاعة

١- الذى من.

٢- أعلاه.

٣- فيكون.

٤- والنفس.

٥- صعاليك.

ص: ٤٢

يسقط عنه هذا الحج، كما تقرّر في الحج الشرعي الظاهر، ومن كفر بهذا الحج وخالف أمر الله وانتكس عن طريقه وانحرف عن استقامته، فإن الله غنى عنه وعن العالمين الذين هم من أهل مدينته وبلده المعبر عنهما بالقوى والأعضاء والأرواح وأمثال ذلك، ومن يعتصم بالله في سلوك هذا الطريق والسير فيه، بالانقطاع إليه والتمسك بعنايته وهداياته، فقد هدى إلى صراط مستقيم، أى قد هدى إلى صراط مستقيم توحيد حقيقى الذى هو المقصود من السلوك والتوجه إلى بيت الله المعنوى، هذا بالنسبة إلى الأنفس والحج الحقيقى المعنوى السلوكى.

وأما بالنسبة إلى الآفاق والحج الآفاقى، والاطلاع على حقايق الملكوت والجبروت والطواف بهما، فقس على كل واحدة من هذه القوى عالم (١) من العوالم ومظهر (٢) من المظاهر، فإنك تجده حذو النعل بالنعل والقذة بالقذة.

وإذا تقرّر هذا وتحقق، فاعلم: أن كل من يريد أن يحج هذا الحج وأن يقصد هذا البيت يجب عليه أولاً أن يحرم من الميقات الذى هو الإحرام من مقام النفس وحفظها، بمعنى أن يحرم عليه جميع الملذات والمشتبهات من المحرمات والمحللات، إلا بقدر الضرورة؛ لقوله تعالى: «فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا مَعَادٍ»، ويمنعها عن إيذاء كل حيوان وإنسان (٣) قوةً وفعلاً ونيةً وعزماً، ثم يتوجه إلى الحرم الحقيقى والبيت المعنوى الذى هو البدن وقواه؛ ليشاهد حاله وما حوالية من القوى المعبر عنها بالآيات والمشاعر، ويحصل له من ذلك علوماً ومعارف، لأن كل واحدة من قواه ومشاعره مشحونة بمعارف لا يطلع عليها إلا الكامل الفرد من أفراد العالم.

ويجب له الاشتغال فى هذه الحالة بالتلبيات الأربع، ومعناها التى هى الإقرار باستغناء مالكه عن طاعته وعبادته وطاعة كل أحد وعبادته، واحتياج كل موجود إليه ذاتاً ووجوداً وحولاً وقوة، بحيث يسمع منه هذا النداء بسمع الحال، ويستقبل عليه بليتك لبيك على لسان الحال دون المقال، ليتحقق له حقيقة العبودية

١- عالمًا.

٢- مظهرًا.

٣- ساقطة.

ص: ٤٣

وكمال الربوبية.

ثم يدخل مسجد الصدر الذي هو المسجد الحرام، حول القلب الذي هو الكعبة الحقيقية، ويطوف به سبعة أشواط، أعنى يطلع عليه سبع مرات؛ ليعرف حاله ويرتفع عنه حجاب الذي هو أخلاقه الذميمة وأفعاله الرديئة المعبرة عنه بسبعة حجب (١) عدد أبواب الجحيم التي هي: العجب، والكبر، والحسد، والحرص، والبخل، والغضب، والشهوة، بحيث تزول منه هذه السبعة بسبعة من الطواف، ويكون كل واحدة منها علّة إزالة كل واحدة منها، وعلّة اتصاف القلب بما يقابلها من الأخلاق الحميدة، كالعلم، والحكمة، والعفة، والشجاعة، والعدالة، والكرم، والتواضع.

ثم يصلّى في مقام إبراهيم العقل صلوة (صلاة) الشكر؛ لاتصاله إلى هذا المقام بمحض الطاقة وعين إشفاقه، وقد عرفت حقيقة الصلوة (الصلاة) قبل هذا، وتحققت أن المراد بها الإقرار بالعبودية الصرفة والألوهية المحضة بعد فناءه في السجود الأول فيه ورجوعه إلى القيام وبقائه به.

ثم يسعى بين الصفا والمروة، أى يسير بين عالمى الظاهر والباطن؛ ليشاهد محبوبه فيهما، ويطلع على الآيات التي يتعلّق بهما بحكم قوله: «سَيُزَيِّرُهُمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ» (٢)، وتحصل له هذه المشاهدة الحقيقية والمعارف اليقينية ويتحقق معنى قوله: «أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ» (٣).

ثم يقصّر في المروة، أى يسقط عن رأسه ما بقى فيه من الأنانية والإثنية، ليخرج بهذا عن الإحرام وأفعال العمرة التي هي بمثابة الوضوء إلى

١- أشواط حجب.

٢- فصلت: ٥٣.

٣- فصلت: ٥٣.

ص: ٤٤

الصلوة (الصلاة)، ويحل عليه كل ما حرم به قبل ذلك، لأن العبد في مقام الأنانية والغيرية لا يحل له شيء أصلاً بمذهب العارفين، فإذا خرج منها وصار فانياً فيه باقياً به حل عليه كل شيء، وبإل بقله: يحرم ويحل، لأنه الخليفة والأمر والناهي، فافهم ذلك جداً؛ ليحصل لك معرفة مقام النبوة ثم الولاية، لأنه ليس غيرهما بعد الحق متصرف في الوجود.

ويشهد بذلك قوله تعالى: «أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ» ثم يحرم إحرماً (١) آخر من حضرة العقل تحت ميزاب القلب، لأن العقل كالميزاب بالنسبة إلى القلب، لأن من بحر القلب تجرى الحكمة والمعارف على ميزاب العقل، ويصل إلى ما تحته من القوى، لقوله عليه السلام: «مَنْ أَخْلَصَ لِلَّهِ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا ظَهَرَتْ يَنْبِيعُ الْحِكْمَةِ مِنْ قَلْبِهِ عَلَى لِسَانِهِ»، أى لسان العقل الذى هو المترجم بالنسبة إلى القلب.

ثم يتوجه إلى عرفات الدماغ وجبل العرفان؛ للوقوف به والاطلاع على ما حوالبه من الآيات والمعارف والحقايق، لأن الدماغ بالنسبة إلى البدن تارة كجبل أبوقبيس أو جبل هراء (٢)، وتارة كعرش المجيد أو عرش الكريم المتقدم ذكره، وفي هذا المقام يقع العارف بين آدم الحقيقى الذى هو الروح وبين النفس الكليئة (٣) التى هى حواء، وما سمي تلك الحضرة بعرفة إلهذا، ويشهد به قوله عليه السلام: «من عرف نفسه فقد عرف ربه».

ثم يرجع إلى المشعر، أى (٤) الوقوف بمشاعره الصورية والمعنوية المعبرة عنها بالحواس العشرة، ليطلع على أحوال كل واحدة منها، ويخرجها من حكمه ويجعلها مطيعة لخالقه وربّه بحكم «كنت سمعه وبصره ولسانه ويده ورجله...» الحديث،

١- إحرام.

٢- كذا وفي النسخة الاخرى هرات، والظاهر حراء.

٣- الكلى الذى هو.

٤- إلى.

ص: ٤٥

لأن الحواس ما دامت في حكم العبد فهي مطيعة للنفس الأمارة متابعه لشيطان الهوى المردى، فأما إذا صارت بحكم الرب مطيعة لما أمر به من الأوامر والنواهي، فهي مطيعة للنفس المطمئنة متابعه للعقل الذي هو الأمير والحاكم في مدينتها وبلدها. ثم يرجع إلى منى عالم الصدر لرمى أحجار أخلاقه الذميمة وأوصافه الرديئة عند الجمار الثلاث التي هي المعدن والنبات والحيوان، أعنى في عالم المركبات وما يتعلّق به، وسبب ذلك أن هذا مقام الإخلاص ومقام الخطر العظيم؛ لقوله عليه السلام: «العالمون كلّهم هلكى إلا- العاملون، والعاملون هلكى إلا المخلصون، والمخلصون على خطر عظيم»، فصاحب هذا المقام إن خلص عند الإحرام من أخلاقه وأوصافه، لكن إذا رجع إلى مقام التكميل وحالة البشرية بحكم قولهم: النهايات الرجوع إلى البدايات، يجب الاحتراز أيضاً عن رجوعه إلى تلك الأخلاق، لأن بهذا ورد: «حسنات الأبرار سيئات المقربين».

ثم يتوجه إلى خلق رأسه، أى رأس نفسه من الأنانية، ورؤيته الفعل والحوال والقوة منه الذى هو الأعظم من الأول، والحجب والموانع من الاستقامة على ما هو عليه من الكمال والتكميل.

ثم يتوجه إلى ذبح نفسه مرة أخرى، بحيث لا يبقى منها اسم ولا رسم لقوله تعالى: «فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ» (١). ثم يرجع إلى الكعبة للطواف الثانى، أى يرجع إلى الكعبة الحقيقية التى هى القلب للطواف الثانى، أى للاطلاع مرّة أخرى عليه ليطهرها من دنس مشاهدة الغير بالكلية، وهذا مقام قوله عليه السلام: «وأنّه ليغان على قلبى وإنى لأستغفر الله فى اليوم والليلة سبعين مرّة»؛ لأن النبى المعصوم ما له ذنب شرعى حكى حتى يستغفر من

ص: ٤٦

ذلك الذنب، بل ذنبهم في طريق سلوكهم وتوجههم إلى الله تعالى هو مشاهدة الغير ولو طرفه عين، وذلك من غلبه عالم البشريه وقوة النفس الحيوانية بمقتضاها، وقد مرّ تفصيل ذلك أيضاً.

ثمّ يصلّى في مقام إبراهيم عليه السلام ركعتي طواف الحج، أي ركعتي صلوة الشكر بوصوله إلى محبوبه ومقصوده في توجهه وقصده في صلوته (صلاته) الحقيقية.

ثمّ يسعى مرّة أخرى بين صفاء العالم الروحاني ومروة العالم الجسماني، أو بين صفاء القلب ومروة النفس، ليشاهده (١) فيهما آيات كمال مظهره ومشاهدة علامات جماله وجلاله.

إنّ العبد في مقام الأنانيّة والغيريّة لا يحل له شيء أصلاً بمذهب العارفين

ثمّ يقصر في مروة العالم الجسماني أو مروة النفس بحذف ما بقى فيه مشاهدة الكثرة في عالم الوحدة.

ثمّ يرجع إلى منى لرمى الجمار الثلاث في أيام التشريق، أي يرجع من كعبة القلب مرّة أخرى إلى منى الصدر في أيام التشريق التي هي أيام التوحيد التفصيلي المعبر عنه بالفعل والوصفي والذاتي، لحذف كلّ ما سواه في المراتب الثلاث بحيث لا يبقى عنده إلا الحقّ تعالى جلّ ذكره، ويرتفع عن نظره الخلق بأسره، بحيث لا يبقى لهم وجود أصلاً عنده ولا له أيضاً، ويشاهد الحق من حيث هو الحق تارةً في عالم وحدته مجرّداً عن جميع الاعتبارات، وتارةً في عالم كثرته تحت ملابس أسمائه وصفاته وجماله وجلاله، وتارةً في عالم الجمع بينهما المتقدم ذكره عند التوحيد

١- ليشاهد فيهما وآيات كمال مظهره وعلامات مشاهدة جماله وجلاله.

ص: ٤٧

الجمعي المحمدي، وهذا هو المقصود من الحج المعنوي عند أرباب الطريقة. وإذا عرفت هذا، فلنشرع في حج أهل الحقيقة وبيان، وهو هذا:

وأما حجّ أهل الحقيقة

فالحج عنهم بعد قيامهم بالحجّين المذكورين عبارة عن القصد والتوجه من حيث السير المعنوي إلى قلب الإنسان الكبير، الذي هو بيت الله الأعظم المسمّى بالبيت المعمور وحضرة القدس والنفس الكليّة وأمثال ذلك، كما أن حجّ أهل الطريقة عبارة عن قصدهم وتوجههم إلى قلب الإنسان الصغير، وبيان ذلك يحتاج إلى تمهيد مقدمات.

منها: قول بعض العارفين في تطبيق العالمين:

إعلم أن سلطان الروح الجزئي الذي هو روح الإنسان الصغير كما لا يكون إلا في الدماغ، فكذلك سلطان الروح الكلي الذي هو روح الإنسان الكبير المسمى بالعالم لا يكون إلا في العرش الذي هو بمثابة الدماغ منّا، وكما أن مظهره الأول في الإنسان الصغير هو القلب الصوري الذي هو منبع حيوة (حياة)، فكذلك مظهره الأول في الإنسان الكبير هو الفلك الرابع، الذي هو فلك الشمس ومنبع حيوة (١) العالم، فإنه بمنزلة الصدر فيه، والشمس بمنزلة القلب الصوري.

وأما القلب الحقيقي فهو النفس الكلي المسماة باللوح المحفوظ والكتاب المبين و آدم الحقيقي المشار إليه في قوله تعالى: «يَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً» (٢)

الآية، وروح الفلك الرابع بمثابة الروح الحيواني الذي في القلب: إذ به تحيا جميع الأعضاء، وهو البيت المعمور المشهور في الشريعة أنه في السماء الرابعة، المقسم به في التنزيل حيث قال: «وَالطُّورِ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ وَالسَّقْفِ

١- حياة.

٢- النساء: ١.

ص: ٤٨

الْمَرْفُوعِ وَالْبَحْرِ الْمَشْجُورِ» (١)

ولهذا جعلت (٢) مقام عيسى روح الله، وكانت معجزته إحياء الموتى، والطور هو العرش، والكتاب المسطور هو النفس الكلية التي هي قلب العالم، والرق المنشور هو الفلك الثامن الذي هو مظهره، والسقف المرفوع يجوز أن يكون العرش، ويجوز أن يكون سماء الدنيا، والبيت المعمور يجوز أن يكون الفلك الرابع، ويجوز أن يكون النفس الكلية، والفلك الثامن أيضاً (٣) الذي هو مظهر النفس الكلية، والبحر المسجور هو بحر الهيولى السائلة المملوءة بالصور، ويجوز أن يكون عالم البرزخ الأول المركب من العالمين الروحاني والجسماني المسمى بالخيال المطلق المملوء بصور الموجودات كلها، ومع ذلك نشرع في تفصيله بحكم الحديث النبوي والآية المذكورة مرة أخرى، ليتحقق عندك ما قررناه.

أما الحديث، فقوله عليه السلام: «الكعبة أول بيت ظهرت على وجه الماء عند خلق السماء، خلقه الله قبل الأرض بألفى عام، وكان زبداء بيضاء على وجه الماء ودحيت الأرض تحته».

وأما الآية فقوله تعالى: «إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا» إلى آخرها (٤).

وبيان الحديث وهو أنه يكون المراد من قوله: الكعبة أول بيت ظهرت على وجه الماء عند خلق السماء، ما تقدم ذكره عند حج أهل الطريقة، وهو أن الكعبة هي النفس الكلية المسماة ببيت الله الأعظم، وظهورها على وجه الماء يكون إشارة إلى العوالم الروحانية التي صدرت منها قبل العوالم الجسمانية، فإن كل شيء يكون فوق شيء يكون هو عليه، ولا شك أن النفس الكلية فوق النفوس الجزئية والعوالم

١- الطور: ١-٦.

٢- جعل.

٣- ساقطة.

٤- آخره.

ص: ٤٩

الروحانية فتكون هي عليها.

وقوله تعالى: «وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ» (١)

هذا معناه أيضاً، يعنى كان العرش قبل خلق (٢) السموات والأرض الجسمانيان [الجسمانيين] على الروحانيان [الروحانيين] (٣) من العقول والنفوس إن أردنا بالعرش العرش المعنوى الذى هو العقل الأول، وإن أردنا بالعرش العرش الصورى الذى هو الفلك الأعظم الأطلس أعنى التاسع، يكون المراد بالماء الماء الصورى على قول بعض المفسرين، لأنهم قالوا: إن العرش والماء حيث لم يكن فى أول الحال حايلاً وكان بينهما خلاء يجوز أن يقال: إنه عليه، وهذا ذكره ناصر الدين البيضاوى فى تفسيره (٤) وهاهنا أبحاث:

ويجوز أن يكون الماء إشارة إلى الهيولى الكلية التى هى بمثابة الماء بالنسبة إلى النفس الكلية التى فوقه بمراتب، ويجوز أن يكون ذلك قبل الفتق فى حالة الرتق الذى هو إجمال المادة كلها فى حالة كانت العقل والنفس والعرش والكرسى حقيقة واحدة ومادة كلية، لقوله تعالى: «أَوَلَمْ يَرَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا» (٥) الآية.

وهكذا ورد فى اصطلاح العارفين فى تعريف الفتق والرتق وهو قولهم: الرتق إجمال المادة الوجدانية المسماة بالعنصر الأعظم المطلق المرتوق قبل السموات والأرض، المفتوق بعد تعيينها بالخلق، وقد يطلق على نسب الحضرة الواحديه باعتبار لا ظهورها، وعلى كل بطون وغيبه كالحقايق المكنونه فى الذات الأحديه

١- هود: ٧.

٢- ساقطة.

٣- الروحانيات.

٤- تفسير البيضاوى ٢: ٢٥٣.

٥- الأنبياء: ٣٠.

ص: ٥٠

قبل تفصيلها في الحضرة الواحديّة مثل الشجرة في (١) النواة، والاستشهادات في ذلك كثيرة.
هذا وجه ووجه آخر:

إن الماء هو العلم الإلهي الأزلي عليه كل شيء من حيث فيه دائماً أبداً، وتخصيصه بالعرش يكون لعلو شأنه وعظمته جلاله وكبريائه، أعنى إذا كان قيام العظيم الذي هو العرش به وبوجوده فالصغير بالطريق الأولى، والغرض أنا إذا فرضنا هذا الماء الذي عليه العرش نطفة الإنسان الكبير من حيث الصورة، كما هو مقرر عند أهل الله، فيكون الماء بمعنى الماء الصوري، ويكون ظهورها عليه بمعنى تعلّقها بالنطفة التي توجد منها صورة العالم بأسرها، فإن أهل الشرع قد اتفقوا على أن ابتداء العالم وإيجاده كان من الماء، وتمسكوا في ذلك بقوله بالحديث النبوي بعد القرآن والبحث الذي في سورة الدخان كقوله عليه السلام: «أول ما خلق الله تعالى جوهره، فنظر إليها فذابت تلك الجوهره حياءً أو قهراً» على اختلاف الروايتين - فصار نصفها ماءً ونصفها ناراً، فخلق من الماء السموات و من النار الأرضون، أو خلق من الماء الجنّة و من النار الجحيم، أو خلق من الماء الروحانيات و من النار الجسمانيات ولا مشاحة في الألفاظ، واستدلوا بذلك (٢) التتابع بين العالمين، فإن ابتداء العالم الصغير وإيجاده بحسب الصورة كان من الماء الذي هو النطفة، والصغير أنموذج (٣) الكبير من جميع الوجوه، فيجب أن يكون هو أيضاً كذلك، وهذا أقرب الوجوه، لأن إيجاد الصغير الذي هو نسخته وأنموذجه (٤) حيث كان على هذا الوضع، لأن أوله كان نطفة، ثم صار علقه، ثم صار مضغاً إلى آخر الأطوار، فيجب

١- و.

٢- على ذلك بالتتابع.

٣- هكذا في النسختين.

٤- كذا في النسختين.

ص: ٥١

أن يكون هو كذلك.

وقوله: عند خلق السماء، يكون إشارة إلى تقديم الروحانيات على الجسمانيات بناءً على الترتيب الأول لا الثاني، أعني من حيث النزول من العلويات إلى السفليات لا العكس.

وقوله: «قبل الأرض بألفى عام» يكون إشارة إلى أن النفس الكلية المسماة بالكعبة الحقيقة خلقها قبل الأجسام المعبر عنها (١) بالأرض بألفى عام، ويكون المراد به طورين كاملين: الأول طور العقل ثم طور النفس، لأنهما سابقان على الأرواح والأجسام بمدّة مديدة، أو دورين من أدوار الكواكب السبعة، لأن لكل كوكب منها دور خاص وهو ألف سنة، ودور مشترك وهو ستة آلاف سنة، ويكون المراد بذلك أن عالم الأجسام خلق بعد خلق الأنفس بدورين كاملين من أدوار الكواكب السبعة.

وقد سبق هذا البحث أيضاً، وقد تقرّر هناك أن في مدّة دور زحل يكون العالم خراباً، وفي ابتداء دور المشتري يتدى بالعمارة، وفي آخرها توجد الحيوانات حتى تنتهي إلى الإنسان، فيكون المراد بألفى عام دورى (٢) هذين الكوكبين على الوجه الذى قرناه أو طورى العقل والنفس، وعندى هذا أنسب، وإن كان الوجهان من عندى.

١- عنه.

٢- دورين.

ص: ٥٢

وتقديم عالم الأرواح على عالم الأجسام أظهر وأبين من أن يحتاج إلى بيان وبرهان، وسيما قد شهد به الخبر والقرآن، فإن النبي صلى الله عليه وآله قال: «خلق الله تعالى الأرواح قبل الأجساد بألفى عام»، والقرآن قد نطق بأن الأرواح قبل الأجسام فى مواضع شتى، منها قوله: «وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ» (١)

الآية، وقوله: «ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَبَتَّارِكِ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ» (٢)، وثم لا يكون إلالتراخى.

«وكان زبده بيضاء على وجه الماء»، إشارة إلى صفاء النفس الكلية ولطافتها بالنسبة إلى الروحانيات الأخر التي كانت تحتها المشار إليها بالماء، لأن كل ما هو أعلى من الروحانيات فهو أطف، وكذلك من الجسمانيات أيضاً.

قوله: «فدحيت الأرض تحته» يكون إشارة إلى إيجاد عالم الأجسام بعدها، أى بعد الأرواح، لأن عالم الأجسام وجد بعد عالم الأرواح بمدة مديدة، وفيه قيل:

إن عالم الأمر والأرواح هو الذى لا يحتاج إلى مدة ومادة، وعالم الخلق والأجسام هو الذى يحتاج إلى مادة ومدة، هذا تأويل الخبر.

وأما تأويل الآية على سبيل البسط فيطول ويخرج المبحث من المقصود، وأما على سبيل الاختصار فاعلم:

أن فى قوله تعالى: «إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ» (٣).

«أَوَّلَ بَيْتٍ» إشارة إلى البيت المذكور الذى هو النفس الكلية ومظهرها الذى هو الفلك الثامن.

١- الأعراف: ١٧٢.

٢- المؤمنون: ١٤.

٣- آل عمران: ٩٦-٩٧.

ص: ٥٣

و «وُضِعَ لِلنَّاسِ» إشارة إلى مطلق الإنسان من حيث العموم وتكليف الكل بالتوجه إليه، وإلى أشرف الناس منهم الذين هم الأنبياء والرسل والأولياء والأوصياء والعارفين من أمه كل نبي على الخصوص.

و «بِبَكَّةٍ مُبَارَكًا» إشارة إلى الفلك الثامن الذى هو مظهرها المعبر عنه بالكبرى، «مُبَارَكًا» إلى البركات التى هى حوالها من المعارف والحقايق النازلة منها إلى ما دونها من المخلوقات والموجودات.

و «وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ» إشارة إلى فيضانه وتجلياته لجميع العالمين، فإن فيضان (١) جميع العالمين من جنبه القدسى وحضرته العليا، والمراد بالفيضان إما الوحي وإما الكشف وإما الإلهام، فإن حصول (٢) العلوم والفيض من الله غير هذه الوجوه الثلاث [الثلاثة] مستحيل.

و «فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ» إشارة إلى مشاهدة آيات الملكوت والجبروت بواسطتها، فإنها محل تفصيل المعلومات والموجودات، كما أن العقل الأول محلّ تجميل المعلومات والموجودات.

و «مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ» إشارة إلى وصول السالك بواسطتها إلى مقام التوحيد الجمعى الحقيقى الإبراهيمى الذى لم يكن منشأه فى عالم الشهادة إلا منه، ولهذا أمر نبينا صلى الله عليه وآله بمتابعته فى قوله تعالى: «إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ» (٣)

ولقوله: «وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى» (٤).

ولولا خصوصية إبراهيم عليه السلام بهذا المقام ما قال تعالى فى حقه: «وَكَذَلِكَ نُرَى

١- فيضانها.

٢- ساقطة.

٣- آل عمران: ٦٨.

٤- البقرة: ١٢٥.

ص: ٥٤

إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ» (١).

وقوله: «وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا» إشارة إلى أن من دخل البيت المذكور على الوجه المذكور أمن من جميع الشبهات والشكوك، وعلى الخصوص من المشركين (٢) المذكورين أعنى الجلى والخفى، وعلى الجملة عن حجب رؤية الغير مطلقاً.

وقوله: «وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ» أى ولله على الناس المستعدين لهذا المقام حج هذا البيت، أى قصد هذا البيت على الوجه المذكور، أى من حيث المعرفة والمشاهدة والكشف والشهود.

وقوله: «مَنْ اشْتَرَطَ إِلَيْهِ سَبِيلًا» دليل على تخصيصه بطائفة متمكنين منه مستطيعين لسبيله بقوتى العلم والعمل، فإن زاد هذا الحج وراحلته المسمى بالاستطاعة العلم والعمل، أى العلم النافع والعمل الصالح.

والعلم النافع يحصل بوجهين: إما من الله تعالى بغير واسطة أحد من البشر، وهو المعبر عنه بالوحى والإلهام، والكشف، وإما منه بواسطة بعض عبيده من العارفين كالأنبياء والأولياء (٣) والرسل، وإليهما أشار بقوله فى الأول:

«اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ» (٤).

وفى الثانى بقوله: «وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبَسَّ مَا يَشْتَرُونَ» (٥).

والعمل الصالح أيضاً يكون على قسمين:

١- الأنعام: ٧٥.

٢- الشركين.

٣- وأولياء.

٤- العلق: ٣- ٥.

٥- آل عمران: ١٨٧.

ص: ٥٥

قسم يختص بأهل الشريعة والطريقة، وهو الذى لا يدخل فيه الرياء والسمعة والشك والشبهة وأمثال ذلك، بل يكون خالصاً مخلصاً لله تعالى لقوله:

«قُلْ إِنْ صَلَّاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» (١)

، ولقوله: «أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ» (٢).

وقسم يختص بأهل الحقيقة وأهل الوصول، وهو الذى لا يشاهد صاحبه فى الوجود غير الحق تعالى جل ذكره، وقد عرفت تحقيقه مراراً.

وإليه أشار بقوله: «فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا» (٣).

وقوله: «وَمَنْ كَفَرَ» أى بهذا الحج ولم يفعل ولا يقر به فهو من المشركين المحجوبين ليس الخطاب إليه، فإن الله غنى عنه وعن أمثاله من العالمين إنساناً كان أو جنأً، وإن الله لغنى عن العالمين وعن طاعتهم وعبادتهم من حيث هو هو، فإن الطاعة والعبادة فايدهما عايدتان إلى المكلف لا غير، ولا الحق تعالى فإنه غنى عن العالمين وطاعتهم وعبادتهم؛ لأنه لا يجوز أن يستكمل هو غيره، والغرض العايد إليه نوع استكمال فلا يجوز، فحينئذ لا يكون عايداً إليه، والعللة فى ذلك أنه لا يقع فعل الحكيم الكامل (٤) عبثاً، فإن كل فعل يصدر من فاعل لا لغرض يكون عبثاً والعبث على الله تعالى محال، لقوله: «وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ» (٥)، ولقوله: «أَفَحَسِبْتُمْ أَنْتُمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنْتُمْ لَاتُرْجَعُونَ» (٦)، فيجب أن يكون لغرض، وحواله الغرض إليه كما ذكرنا محال، فيجب أن يكون إلى

١- الأنعام: ١٦٢.

٢- الزمر: ٣.

٣- الكهف: ١١٠.

٤- العامل.

٥- الدخان: ٣٨.

٦- المؤمنون: ١١٥.

ص: ٥٦

العبيد وهو المطلوب.

ولهذا قال فى مواضع كثيرة من القرآن: «مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا» (١)، وقال: «قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ» (٢).

وهاهنا أبحاث كثيرة نختصر (٣) على ذلك، وإذا تقرر هذا، وعرفت هذه المقدمات والضوابط والقواعد التى فيها بحكم الآية والخبر، فلنشرع فى الترتيب والتفصيل، وكيفيه ترتيب هذا الحجج، والوصول إلى المقصد، وهو هذا:

إعلم أنه من أراد أن يتوجه إلى هذا البيت ويقصد زيارته، أعنى الوصول إليه، يجب عليه أولًا أن يأخذ الإحرام من مشاهدة عالم المحسوسات مطلقًا، بمعنى أن يحرم على نفسه مشاهدة عالم الجسمانيات وما يتعلق به من اللذات، ثم يتوجه إلى عالم الروحانيات التى هى بمثابة الحرم ومكة وبكة وغير ذلك من الاعتبارات حتى يصل إليهم بالفعل، ويتصف بصفاتهم ويتخلق بأخلاقهم، ويحصل له معارف ذواتهم وخواصهم ولوازمها، ثم يتوجه إلى الكعبة الحقيقية التى هى النفس الكلية ومعارفها وحقايقها، ويطوف بها سبعة أشواط ليحصل له بكل شوط معرفة كل فلك من الأفلاك السبعة أو العلوم السبعة القرآنية (٤) المشار إليها بقوله عليه السلام: «إن للقرآن ظهرًا وبطنًا ولبطنه بطنًا إلى سبعة أبطن».

١- فصلت: ٤٦.

٢- الأنعام: ١٠٤.

٣- نقتصر.

٤- هاهنا حاشية للمؤلف قدس سره فى النسخة الأولى، وليست فى الثانية، ولهذا نذكرها، وهى: هذه: أى فى العلوم السبعة القرآنية: وهى علم التوحيد، والتجريد، والفناء، والبقاء، وعلم الذات، والصفات والأفعال، وعلم النبوة والرسالة والولاية، والمروءة، وعلم الوحي والإلهام والكشف، وعلم المبدأ والمعاد والحشر والنشر، وعلم الأخلاق والسياسة والتهديب والتأديب، وعلم الآفاق والأنفس والتطبيق بينهما، فإنه أعظم العلوم وأشرفها، وقيل: المراد بالعلوية السبعة غير ما ذكرنا آنفًا، وإلاصح ما ذكرناه، لأنه مناسب لما نحن بصدده فى هذا الكتاب.

ص: ٥٧

ثم يتوجه إلى مقام إبراهيم الذي هو مقام الوحدة والحضرة الواحديّة المعبرة عنها بالعقل الأول والروح الأعظم، ويصلى فيه ركعتي الشكر بوصوله إلى تلك الحضرة، والركعتان عبارتان عن فنائه أولًا عن عالم الظاهر، وثانيًا عن عالم الباطن وما اشتمل عليهما من المخلوقات والموجودات حتى نفسه.

ثم يتوجه إلى السعي بين الصفا والمروة، أي بين عالمي الظاهر والباطن؛ ليطلع عليهما بسعيه واجتهاده مرة أخرى، ويقطع النظر عن الكثرة بمطالعة ما في ضمنها من الوجود الواحد الحق، ويستقرّ في المقام الجمعي المقصود بالذات، كما قال عليه السلام: «الدنيا حرام على أهل الآخرة والآخرة حرام على أهل الدنيا، وهما حرامان على أهل الله».

ويعرف هذا أيضاً من تقسيم أهل الشمال وأهل اليمين والمقربين المتقدم ذكرهم، وإليه أشار العارف بقوله: وعليكم بهما، فإن جامعهما موحد حقيقي جامع للجميع، وله المرتبة العليا والغاية القصوى.

ثم يقصر بمروة عالم (١) الظاهر التي هي نهاية الكثرة بإسقاط ما بقى عنده من الأنانية ورؤية الغير.

وهذا تمام أفعال العمرة المتمتع بها إلى الحج.

ثم يتوجه إلى الكعبة مرة أخرى إلى مشاهدة النفس الكلية والاطلاع على حقائقها؛ ليأخذ إحرام الحج من عندها تحت ميزاب العقل على الترتيب المعلوم.

ثم يتوجه إلى مقام عرفات النفس والعقل عند الجبل الحقيقي الذي هو العرش الصوري مظهر العقل الأول، ليتحد بهما بقوة المعرفة الحاصلة له بأن الكل واحد، ولهذا سمي هذا المقام عرفاتاً، لأنه مقام المعرفة الحقيقية، وليس وراء هذا الحضرة حضرة أخرى إلا حضرة الذات الممتنع الوصول إليها لأحد، والمراد بالوصول

ص: ٥٨

الاتصاف، والاتصاف بالحضرة الأحديّة الذاتيّة مستحيل، وفيه قيل: ليس وراء عبادان قريّة، وفي هذا المقام يحصل الوصول إلى التوحيد الجمعي الحقيقي المعبر عنه بالتوحيد المحمدي مرة أخرى.

ويذبح نفسه مرةً أخرى ذبحاً لا تكاد تعيش أبداً، أي بالحياة الدنيويّة المجازيّة، لأنّه صار حيّاً بالحياة الحقيقيّة. والفائدة والفرق بينهما أن في التوحيد الأول يرتفع الخلق عن نظره بالكليّة لقوله: «كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ» (١)، وفي التوحيد الثاني يرتفع الصفات كلّها، لقول العارف الرباني صلوات الله عليه: «أول الدين معرفته، وكمال معرفته التصديق به، وكمال التصديق به توحده، وكمال توحده الإخلاص له، وكمال الإخلاص له نفى الصفات عنه» (٢) بشهادة كل صفة أنها غير الموصوف، وشهادة كل موصوف أنه غير الصفة، وفي هذا المقام يصير الإنسان إنساناً، والكمال كاملاً، والعارف عارفاً، ولهذا يجب الرجوع إلى التكميل وعالم الكثرة لقوله تعالى:

«وَلْيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ» (٣)، ولقول الجنيد رضي الله عنه لما سئل عن النهايات:

الرجوع إلى البدايات، وهذا هو سرّ رجوع الحاج من عرفات إلى منى وفيه ما فيه من الأسرار أيضاً.

ثم يرجع إلى منى عالم الكثرة الذي هو عالم المشاعر الإلهية والمناسك الربانية من الأفلاك والأجرام والعناصر والمواليد، وينظر إليهم بنظر الوحدة الحقيقيّة دون الأول، ويشاهدهم على أنهم مظاهر إلهية ومشاعر ربانية والمظهر عين الظاهر والظاهر نفس المظهر، فيشاهدهم عيناً من وجهه، غيراً من وجهه، خلقاً من وجهه،

١- القصص: ٨٨.

٢- نهج البلاغة، الخطبة رقم ١؛ بحار الأنوار، ٤: ٢٤٧، باب ٤، ح ٥.

٣- التوبة: ١٢٢.

ص: ٥٩

حقاً من وجه كما سبق ذكره من كلام العارف.

ثم يشتغل بأداء المناسك فيه، أى فى منى عالم الظاهر، من الرمى والذبح والحلق.

ويرمى أولاً فى جمرة العقبة التى هى الدنيا ومتاعها سبع طبقات، عالمها العنصرية والطبيعية من المواليد، رمية لا يمكن الرجوع إليها، وهذا رمى عرفان لا رمى عيان، أعنى رمى نظر لا رمى تصرف، فإنه إذا رجع من العوالم المذكورة يجب له التصرف فى الكل تصرف تملك وتحقيق.

ثم يذبح نفسه مرة أخرى ذبحاً لا- تكاد تعيش أبداً، أى بالحيوة (بالحياة) الدنيوية المجازية، لأنه صار حياً بالحيوة (الحياة) الحقيقية المشار إليها فى قوله:

«وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أحياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ» (١)، وفى قوله: «أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشَى بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَتَّهٌ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا» (٢).

ثم يحلق رأسه، أى رأس النفس عن محبة الدنيا ومتاعها، حلقاً لا يكاد يرجع إليها أبداً رجوع نفسانى لا غير، فإن حذف الدنيا نفسك يحكم بالتصرف فيه بقدر الحاجة للناقص وبالمجموع للكامل، والمراد إسقاطها عن درجة الاعتبار بالكلية، لأن الدنيا وما فيها ليس عند التحقيق إلا عدم صرف وخيال محض قائمة بأوهام كاذبة لقوله عليه السلام: «الدنيا قائمة بالوهم»، ولقول الإمام عليه السلام: «محو الموهوم مع صحو المعلوم»، لهذا قال: «قد طلقتك ثلاثة لا رجعة فيها» (٣)، وقال عيسى عليه السلام: «يا طالب الدنيا ليبر بها تركك لها أبر أبر و أبر (٤)».

ثم يرجع من هذا المقام إلى مقام البقاء الذى هو البقاء بعد الفناء، ويطوف

١- آل عمران: ١٦٩.

٢- الأنعام: ١٢٢.

٣- نهج البلاغة، الحكمة ٧٧.

٤- لتبر.

ص: ٦٠

بالكعبة المذكورة طواف (طوافاً) آخر، أى يطلع عليها مرة أخرى بسبع توجهات بمقتضى نشأته التى هى سبعة أطوار، لقوله تعالى: «خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً» (١)

ليحصل بذلك التصرف فى سبعة أقاليم الأرض وسبعة أقاليم الأفلاك المعبرة عنهما بالملكوت والجبروت. ثم يصلّى فى مقام ابراهيم الوحده الحقيقيه ركعتى الصلوة (صلاة) العيدين الأضحى والفطر، لأن اتصافه بالفناء عن الكل عيد، وبقاؤه بعد الفناء عيد آخر، ويجب صلوة (صلاة) العيد سيما هذا العيد فى مقام المخصوص (٢) بها، وهو مقام الوحده الحقيقيه، فافهم جداً فإنه دقيق.

ثم يرجع إلى منى عالم الكثرة فى المراتب الثلاث التى هى المعدن والنبات والحيوان، ويكون فيه ثلاثة أيام الإلهية لتكميل الغير، فإنه نهاية (٣) مقام المرام وغاية مقاصد الكرام، وفيه ورد: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيَتْ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا» (٤).

والله أعلم وأحكم وهو يقول الحق وهو يهدى السبيل، رزقنا الله الوصول إلى مثل هذا الحج بحق الحق.

١- نوح: ١٤.

٢- المخصوص.

٣- مقام نهاية.

٤- المائدة: ٣.

كفاية المحتاح إلى مناسك الحج

إشارة

للشيخ جمال الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن فهد الحلّي

المتوفى ٨٤١ هـ

تحقيق: عبدالهادى العاملى

مقدمة التحقيق:

لا يخفى ما فى فريضة الحج والعمرة من الأهمية البالغة لدى المسلمين، وما فيها من المضامين العالية التى لا يبلغ حدّها إلّا من أعطى مقاماً شامخاً ومرتبته عالية من الإيمان والتقوى والورع، ومن المعلوم أنّ الحجّ ليس لنزهة، ولإمضاء وقت، ولا لأداء حركات معينة، بل هو إنابة وتوبة وحديث العبد مع ربه (جلّ وعلا)، لأنّ المؤمن إذا انتهى من فريضة الحجّ عاد كيوم ولدته أمّه كما فى الحديث، فحرى بنا أن نهتم بهذه الفريضة بقدر مالها من الأهمية والفضل والمكانة، ولا بد من إتقان أحكامها لئلا يشملنا قول الإمام زين العابدين على بن الحسين عليهما السلام حيث قال: «ما حججت إلّا أنا وناقتي وعلى بن يقطين».

وبعد، بين يديك عزيزى القارىء، واحدة من عشرات الرسائل والكتب فى الحجّ التى ألفها علماءنا الأبرار وبذلوا جهوداً متضافرة لإيصالها إلينا ولأجيالنا القادمين، ألا وهى «كفاية المحتاح إلى مناسك الحج»، وهى مشتملة على واجبات الحجّ والعمرة، وكلّ باب منها إلى فصول، والفصول إلى بحوث، ليتسنى للمكلف أخذ أحكامه بسهولة، وبذلك تكون أعمالنا عن علم ومعرفة، وهو

ص: ٦٢

المطلوب من كل مكلف.

اسمه ونسبه:

هو الشيخ جمال الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن فهد الأسدي الحلبي (١)، وهو غير أحمد بن فهد المقرئ الأحسائي، وقد وقع التباس للبعض بينهما ووجه اتحاد الاسم والمعاصرة، وكل منهما له شرح على إرشاد العلامة وقد اشتهر ب أحمد ابن فهد، إلّا أنّ مترجمنا اسم جده فهد والآخر اسم لأبيه.

ولادته ونشأته:

ولد سنة ٧٥٧ هجرية (٢)، نشأ في الحلبة التي سلمت من سطوة الجزائر وبعد وصوله إلى بغداد، بادر علماء الحلبة وعلى رأسهم والد العلامة رحمه الله فاجتمع بمن بقي من علمائها وأهلها وأنفذوا كتاباً يطلبون فيه الأمان. وفعلاً صدر فرمان بإعطاء الأمان لأهل الحلبة وعلمائها، وعلى أثرها تحولت الحلبة إلى مركز علمي، فاستقطبت الفقهاء والطلاب النازحين من بغداد، فبرز فيها فطاحل وجهابذة، كالمحقق الحلبي، والعلامة الحلبي، وولده فخر المحققين، والشهيد الأول، وابن طاووس وغيرهم من الأعلام. وفي هذه الأجواء العلمية نشأ وترعرع شيخنا المترجم على يد جمع من أعلامها ليرتقى إلى المراتب العالية، فتلميذ على الشيخ نظام الدين علي بن عبد الحميد النيلي، والشيخ علي بن الشهيد الأول، والسيد بهاء علي بن عبد الكريم إلى أن بلغ المراتب العليا، فارتقى كرسى الدرس والبحث، هذا وهو منشغل بالكتابة والتحقيق، فخلف وراءه جمعاً غفيراً من المحصلين والفضلاء، ومجموعة علمية ثمينة هي مصدر من مصادر الفقهاء (٣).

١- روضات الجنات ١: ٧٥، الكنى والألقاب ١: ٢٦٩.

٢- الفوائد الرجالية ٢: ١١١، الكنى والألقاب ١: ٣٦٩، إلّا أن الأمين تردد في الأعيان ٣: ١٤٧، بين ٧٥٦ و ٧٥٧.

٣- نامه دانشوران ١: ٣٧٢.

ص: ٦٣

أقوال العلماء فيه

قال الحر العاملي: فاضل عالم ثقة صالح زاهد عابد ورع جليل القدر (١).
وقال الشيخ يوسف البحراني: الفاضل العالم العلامة الفهامة، الثقة الجليل، الزاهد العابد الورع العظيم القدر (٢).
وقال أيضاً: فاضل فقيه، مجتهد زاهد، عابد ورع، تقى نقى (٣).
وقال الميرزا الأفندي والرجالي الشهير المعروف ب (أبو علي) عين ما قاله الشيخ الحر العاملي في الأمل والشيخ يوسف البحراني في الكشكول (٤).
وقال الشيخ أسد الله التستري: الشيخ الأفخر، الأجل الأوحده، الأكمل الأسعد، ضياء المسلمين، برهان المؤمنين، قدوة الموحدين، فارس مضممار المناظرة مع المخالفين والمعاندين، أسوة العابدين، نادرة العارفين والزاهدين (٥).

- ١- أمل الأمل ٢: ٢١.
- ٢- الكشكول للبحراني ١: ٣٠٤.
- ٣- لؤلؤة البحرين: ١٥٥.
- ٤- رياض العلماء ١: ٦٤، منتهى المقال: باب الألف. رياض العلماء ١: ٦٤، منتهى المقال: باب الألف.
- ٥- مقاييس الأنوار: ١٨.

ص: ٦٤

وقال السيد الخوانساري: الشيخ العالم العامل العارف الملى، وكاشف أسرار الفضائل بالفهم الجبلى، أحمد بن محمد بن فهد الأسدى الحلى، له من الاشتهار بالفضل والإتقان، والذوق والعرفان، والزهد والأخلاق، والخوف والإشفاق وغير أولئك من جميل السياق ما يكفينا مؤنة التعريف، ويغينا مرارة التوصيف، وقد جمع بين المعقول والمنقول، والفروع والأصول، والقشر واللب، واللفظ والمعنى، والظاهر والباطن، والعلم والعمل بأحسن ما كان يجمع ويكمل (١).

وقال المحدث النورى: صاحب المقامات فى العلم والعمل، والخصال النفسانية التى لا توجد إلأى الأقل (٢).

وقال الشيخ عبد الله المامقانى: له من الشهرة بالفضل والعرفان، والزهد والتقوى، والأخلاق والخوف والإشفاق، ما يغينا عن البيان، وقد جمع بين المعقول والمنقول، والفروع والأصول، واللفظ والمعنى، الحديث والفقه، الظاهر والباطن، العلم والعمل بأحسن ما كان يجمع (٣).

هذا بعض ما قيل فيه من مدح وثناء وبيان لمقاماته ومراتبه العلمية والعملية.

أساتذته ومشايخه:

- ١- الشيخ على بن عبد الحميد النبلى، وهو تلميذ فخر المحققين، فاضل صالح فقيه.
- ٢- الشيخ على بن خازن الجابرى الحائرى، وهو تلميذ الشهيد الأول، فاضل عابد صالح.
- ٣- السيد بهاء الدين على بن عبد الكريم النسابة الحسينى، الفقيه الشاعر صاحب المقامات، وهو تلميذ فخر المحققين.
- ٤- الشيخ على بن محمد بن مكى، ابن الشهيد الأول يروى عن أبيه، فاضل محقق صالح.

١- روضات الجنات ١: ٧١.

٢- خاتمة مستدرک الوسائل ٢: ٢٩٢.

٣- تنقيح المقال ١: ٩٢، رقم ٥١٠.

ص: ٦٥

فإذا كانت هذه الثلة الكريمة والكوكبة المباركة قد تلمذ عليها شيخنا المترجم فحرى به أن يزهو نجمه ويشتهر اسمه في المحافل العلمية.

وهناك جمع من أعلام عصره ممن روى عنهم وأجازوه، منهم:

٥- الشيخ على بن يوسف النيلي.

٦- الفاضل المقداد بن عبدالله السيوري.

٧- الشيخ أحمد بن عبدالله بن المتوج البحراني.

تلامذته والرايون عنه:

١- الشيخ زين الدين على بن هلال الجزائري، عالم فاضل، متكلم.

٢- الشيخ زين الدين على بن محمد الطائي. الفاضل العالم الفقيه.

٣- الشيخ عبد السميع بن فياض الأسدي الحلبي، عالم فاضل فقيه متكلم.

٤- الشيخ على بن فضل بن هيكل.

٥- الشيخ مفلح بن حسن الصيمري، فاضل علامة فقيه.

٦- الشيخ رضى الدين القطيفي.

٧- السيد محمد نور بخش.

٨- الشيخ حسن بن على المعروف ب (ابن العشرة)، فاضل عالم زاهد فقيه.

٩- السيد محمد بن فلاح الموسوي الحويزي، أول سلاطين بني المشعشع في خوزستان.

مصنفاته:

١- اختصار العدة.

٢- استخراج الحوادث.

٣- أسرار الصلاة.

٤- التحصين في صفات العارفين.

ص: ٦٦

- ٥- الحاوى لتحريير الفتاوى.
- ٦- الدر الفريد فى التوحيد.
- ٧- الدر النضيد، فى فقه الصلاة.
- ٨- رساله فى تعقيبات الصلاة والمسائل الشاميات.
- ٩- رساله غاية الإيجاز لخائف الإعواز.
- ١٠- رساله كفاية المحتاج فى مناسك الحاج. وهى الرساله التى بين أيدينا.
- ١١- رساله فى معانى أفعال الصلاة وترجمه أذكارها، وتسمى بالوجيزه.
- ١٢- رساله فى منافيات نيه الحج.
- ١٣- رساله نبذه الباغى فيما لا بد منه من آداب الداعى.
- ١٤- رساله فى نيات الحج.
- ١٥- رساله فى واجبات الصلاة.
- ١٦- شرح الإرشاد.
- ١٧- شرح الألفيه للشهيد.
- ١٨- عدّه الداعى ونجاح الساعى.
- ١٩- الفصول فى الدعوات.
- ٢٠- اللمعه الجليله فى معرفه التيه.
- ٢١- المحرر فى فقه الاثنى عشر.
- ٢٢- المسائل البحرانيات.
- ٢٣- المسائل الشاميات.
- ٢٤- مصباح المبتدى وهدايه المقتدى.
- ٢٥- المصباح فى واجبات الصلاة ومندوباتها.
- ٢٦- المقتصر فى شرح المختصر.
- ٢٧- المهذب البارع فى شرح المختصر النافع.

ص: ٦٧

- ٢٨- الموجز الحاوى.
 ٢٩- الهداية فى فقه الصلاة.
 ٣٠- الأذعية والختم.
 ٣١- تاريخ الأئمة.
 ٣٢- ترجمة الصلاة فى بيان معانى أفعالها وأقوالها.
 ٣٣- التواريخ الشرعية عن الأئمة المهديّة.
 ٣٤- الخلل فى الصلاة.
 ٣٥- رسالة إلى أهل الجزائر.
 ٣٦- رسالة فى تحمل العبادة عن الغير من الصلاة والصيام والحجّ وغيرها.
 ٣٧- السؤال والجواب.
 ٣٨- رسالة فى السهو فى الصلاة.
 ٣٩- اللوامع.
 ٤٠- رسالة فى كثير الشك.
 ٤١- المقدمات.
 ٤٢- رسالة فى العبادات الخمس، تشتمل على أصول وفروع.
 ٤٣- رسالة فى فضل الجماعة.
 ٤٤- مسائل ابن فهد.
 ٤٥- التحرير.

وفاته ومدفنه:

اتفق المؤرخون على أنّ وفاته سنة ٨٤١هـ، منها ما قاله السيد بحر العلوم فى رجاله: وجدت فى ظهر كتاب عدّه الداعى ونجاح الساعى لابن فهد هكذا: تاريخ تولد ابن فهد ٧٥٧... تاريخ وفاة ابن فهد ٨٤١. وفى هامشه: قال: وقبر ابن فهد هذا بكرىلاء معروف مشهور يزار، وكان

ص: ٦٨

وسط بستان بجنب المكان المعروف بالمخيم، وعليه قبء مبيئ بالقاشاني، وقد جدد بناؤه في عصرنا، وفتح بجانبه شارع باسمه، وبنيت حوله دور ومساكن، ويقال: إن السيد صاحب الرياض الطباطبائي الحائري قدس سره كان في عصره كثيراً ما يتردد إلى قبره ويتبرك به (١).

هذا وقد رثاه جماعة منهم:

الشيخ علي بن جمال الدين بن طي العاملى الفقعانى المتوفى سنة ٨٥٥هـ.

نحن والرسالة:

هى رسالة فى واجبات الحج تشمل على بايين فى العمرة والحج، تمتاز باختصارها وسلاستها والدقة فى التعبيرات العلمية مع الوضوح، ظهرت فيها آراء المصنف، التى تبين عن عمقه العلمى وتبنيه لبعض الآراء التى قد تخالف المشهور أحياناً.

تبيّن هذه الرسالة آراء المصنّف، وعمقه العلمى، وما خالف فيه المشهور أحياناً.

منها ما ذكره فى واجبات الإحرام «يأتزر بأحدهما ويرتدى بالآخر أو يتوشح به»، وقد ذكرنا فى محله أن النصوص وردت بالارتداء لا التوشح.

ومنها ما ذكره فى الطواف: «الاختتان فى الرجل المتمكن خاصة»، مع أنه لم يرد فى النصوص قيد التمكّن، وإنما ذكر هذا القيد قياساً على الصلاة، وقد ذكرنا فى محله وجه الفرق بين الصلاة والحج.

ومهما يكن فالأمر سهل، وتراث علمائنا الأعلام ملئ بالأسرار والفوائد الغنيّة، ولا نزال إلى عصرنا هذا عيال عليهم، قدس الله أسرارهم.

ص: ٦٩

نسبها وتسميتها:

كل من تعرض لترجمة ابن فهد الحلبي ذكرها في مصنفاته، كالسيد الخوانساري (١)، والشيخ يوسف البحراني (٢)، والميرزا الأفندي (٣)، والسيد الأمين (٤)، والشيخ عباس القمي (٥).
 نعم ربما عبر بعضهم عنها: بالمناسك الكبير في قبال وجود مناسك صغير، وهو ما قاله آغا بزرك الطهراني في الذريعة (٦) في مقام التعريف بمناسك الحج الصغير، قال: وهو غير المناسك الكبير الموسوم بـ «كفاية المحتاج» ولم يعقد له عنواناً مستقلاً.
 نعم عنوانه مستقلاً السيد إعجاز حسين النيسابوري في كشف الحجب والأستار: رقم ٢٦٦٢ قائلاً: كفاية المحتاج في مناسك الحاج للشيخ جمال الدين أحمد بن فهد الحلبي، المتوفى سنة إحدى وأربعين وثمانمائة. واكتفى بهذا القدر ولم يتعرض إلى بداية ونهاية النسخة.

النسخة المعتمدة:

النسخة الموجودة والتي تم العثور عليها هي واحدة فريدة وهذا مقدار تتبعنا فلم نجد سواها، وهي محفوظة في خزانه مكتبة السيد المرعشي النجفي رحمه الله في قم المقدسة ضمن مجموعة رقم ٥٦٠١ الفقرة الأخيرة منها، حسنة الخط قليلة الأخطاء، والظاهر أنّ المجموعة بخط واحد، وقد ظهر على فقراتها إجازات لبعض الأكابر مؤرخة بـ ٨٥١ و ٨٥٣ تحتوي على ١٣ ورقة بقياس ١٨/٥ * ١٤. مذكور

١- روضات الجنات ١: ٧٢.

٢- الكشكول ١: ٣٠٥، لؤلؤة البحرين: ١٥٧.

٣- رياض العلماء ١: ٦٦.

٤- أعيان الشيعة ٣: ١٤٨.

٥- الفوائد الرضوية: ٣٣.

٦- الطهراني، الذريعة ٢٢: ٢٥٥.

ص: ٧٠

في فهرسها ٣/١٥. لم يظهر في نهايتها ما يدل على اسم ناسخها وتاريخ نسخها. وقد طبعت ضمن الرسائل العشر في مكتبة السيد المرعشي رحمه الله، ١٤٠٩ هـ. منهجية التحقيق: وبما أنها نسخة فريدة فقد اعتمدها مراجعةً وتصحيحاً، وكنت أرجع إلى باقي مصنفات ابن فهد في حلّ بعض الكلمات التي لم تكن واضحة. وقطعت النص إلى فقرات مراعيًا القواعد المتعارفة لتحقيق النصوص القديمة. ثم تعميقاً للفائدة العلمية علقت على الموارد التي فيها خلاف وبيّنت وجهه، وذكرت بعض الأدلة ليعلم مدرّكه العلمي الذي أفتى به. والحمد لله أولاً وآخراً أن وفقني لإنجاز هذا العمل، لأكون ممن ساهم في نشر تراث علمائنا الأعلام، وأشكر كل من ساعد في إخراجها وأخص بالذكر إدارة مكتبة السيد المرعشي رحمه الله، ومجلة ميقات الحجّ التي آثرت طبع هذه الرسالة مشكورة.

ص: ٧١

صورة عن الصفحة الأولى من النسخة المعتمدة

ص: ٧٢

صورة عن الصفحة الأخيرة من النسخة المعتمدة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة على سيد المرسلين محمد وآله الطاهرين.

وبعد، فهذه مقدمة تشتمل على الواجبات فى الحج، وسميتها كفاية المحتاج إلى مناسك الحاج، وفيها بابان.

الباب الأول فى العمرة

إشارة

، المتمتع بها، وصورتها: أن يحرم بها من الميقات، ثم يمضى إلى مكة فيطوف بالبيت سبعة أشواط، ثم يصلى ركعتيه فى مقام إبراهيم عليه السلام،

ص: ٧٣

ثم يخرج إلى الصفا والمروة فيسعى سبعاً، ثم يقصر، وبه يحلّ من كلّ شيء أحرم منه، حتى النساء. فالبحث حينئذٍ في الأمور الخمسة:

الفصل الأول الإحرام:

ولا يصح إلفى أشهر الحجّ، وهو شوال وذو القعدة وذو الحجة، من أحد المواقيت، وهي:
 لأهل العراق العتيق (١) وأفضله المسلخ (٢)، وأوسطه غمرة (٣)، وآخره ذات عرق (٤).
 ولأهل المدينة مسجد الشجرة اختياراً، واضطراً الجحفة (٥)، وهي (٦) لأهل الشام اختياراً.
 ولأهل اليمن يلملم (٧).
 وللطائف قرن المنازل (٨).
 ولمن منزله دون الميقات منزله، وهذه المواقيت لأهلها وللمجتاز عليها سواء كان الإحرام للحج أو العمرة المتمتع به. وواجباته خمسة: نزع المخيط، وكشف الرأس للرجل، ولبس ثوبين مباحين

- ١- وهو في اللغة كل وادٍ عَقَّه السيل، أى شقه فأنهره ووسَّعَه، وسمي به أربعة أودية في بلاد العرب، أحدها الميقات، وهو وادٍ يندفق سيله في غوري تهامة. تهذيب اللغة ١: ٥٩.
- ٢- وهو موضع نزع الثياب، وضبطه بعض الفقهاء المسلخ ومعناه الموضع العالي. انظر المسالك ١: ١٠٣.
- ٣- وهي منهلة من مناهل طريق مكة، وهي فصل ما بين نجد وتهامة. تهذيب اللغة ٨: ١٢٩.
- ٤- وهو الجبل الصغير، وبه سميت كما في نهاية ابن الاثير ٣: ٢١٩.
- ٥- منزل بين مكة والمدينة قريب من رابغ بين بدر وخليص، المصباح المنير: ٩١.
- ٦- والجحفة ميقات اختياري لأهل الشام كما في الصحاح المستفيضة.
- ٧- جبل يقال له: يلملم؛ وهو على مرحلتين من مكة كما في القاموس وغيره. القاموس ٤: ١٧٩، المصباح المنير، ١٩.
- ٨- وهو جبل مشرف على عرفات على مرحلتين من مكة، وفي القاموس: إنه قرية من الطائف.

ص: ٧٤

يصح فيهما الصلاة للمحرم، يأتزر بأحدهما ويرتدى بالآخر، أو يتوشح به (١)، ولا يعقدهما، ولا يكفى الواحد مع القدرة (٢).

ويشترط فيه الطهارة لا استدامتها بل يستحب أن يطوف فيهما (٣).

ويكره غسلهما قبل الطواف، وبيعهما.

ويلحق بالمخيط ما شابهه، كالدرع المنسوج وجبة اللبد (٤).

والتلبيات الأربع، وصورتها (٥): لبيك اللهم لبيك، لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك لبيك.

والتيه وصورتها: أحرم بالعمرة المتمتع بها إلى عمرة الإسلام، والتبى التلبيات الأربع لأعقد بها الإحرام المذكور؛ لوجوب ذلك كله قربته إلى الله، لبيك اللهم لبيك، إلى آخره.

ويحرم عليه الصيد البري، وهو كل حيوان يبض ويفرخ في البر، ممتنع محلل.

١- اتفق فقهاء الطائفة على أن المحرم يأتزر بأحد الثوبين، وأما الثوب الآخر فهل يرتديه أم هو مخير بين الارتداء والتوشح، ذهب العلامة الحلبي إلى الأول، والشهيدان إلى الثاني. والمراد بالتوشح كما عرفوه، هو تغطية أحد المنكبين. وبالارتداء تغطية كلا المنكبين معاً. وذكر ابن حمزة في الوسيلة: أنه لا بد في الإزار من كونه ساتراً لما بين السرة والركبة، وبه صرح الشهيد الثاني في المسالك أيضاً. هذا تعريف التوشح اصطلاحاً.

وأما لغة: هو عبارة عن إدخال الثوب تحت اليد اليمنى وإلقاء طرفيه على المنكب الأيسر، قال في المغرب: توشح الرجل، وهو أن يدخل ثوبه تحت يده اليمنى ويلقيه على منكبه الأيسر، كما يفعل المحرم، وكذلك الرجل يتوشح بحمائل سيفه، ومثله في المصباح المنير. والذي ورد في النصوص هو الرداء لا- الوشاح، وقد جرت به العادة في لبسهما هو شد الإزار من السرة ووضع الرداء على المنكبين، والظاهر أنه في حال الإحرام كذلك أيضاً.

إذن، لا وجه للقول بالتوشح بالرداء، ومجرد ذكر أهل اللغة في بيان التوشح أنه كما يفعل المحرم لا يصلح دليلاً، إذ لعله مخصوص بمذهب أبناء العامة المصرحين بذلك.

٢- وفي الصحيح: «إذا اضطر المحرم إلى القباء ولم يجد ثوباً غيره فيلبسه مقلوباً ولا يدخل يديه في يدي القباء» الوسائل ١٢: ٤٨٦، باب ٤٤ من تروك الإحرام ح ٢.

٣- أي في الثوبين الذين عقد الإحرام فيهما.

٤- لم يرد فيه نص بالخصوص وإنما ألحق بالمخيط لأنه بمعنى المخيط ومثابه له.

٥- وقد أورد المصنف في المهذب البارع صيغ كثيرة للتلبية، والسبب يعود إلى اختلاف النصوص الواردة.

ص: ٧٥

ويلحق به الثعلب، والأرنب، والضب، واليربوع، والعضاء، والقنفذ، وعميد الزنبور، وهوام الجسد، كالقمل، ويجوز نقله لا إلقاءه. وكذا يحرم الطيب والنساء وطئاً، ولمساً ونظراً بشهوة، وعقد له ولغيره، وشهادة عليه، وإقامة. والادهان بالدهن، ويجوز أكله مع خلوه عن الطيب، وإزالة الشعر، وحلق الرأس، وقلع الضرس. وقول لا والله، وبلى والله مطلقاً (١). وتظليل الرجل سائراً، وقلع شجر الحرم وحشيشه، ويجوز ترك الإبل ترعاه، وتغطية الرأس باليد. ولا بد أن يكون حالة النية عارفاً بأفعاله ومعناه وهو كونه مدخلاً في العمره مانعاً من المحرمات، وهو ملزم لأحد الفرضين.

الفصل الثاني في الطواف:

وإذا أحرم المعتمر بعمره التمتع دخل مكة لطوافها. وواجباته اثنا عشر: الطهارة من الحدث والخبث عن الثوب عدا الاستحاضة. وستر العورة، والختان في الرجل المتمكن (٢) خاصة، والبدأة بالحجر الأسود

١- صادقاً كان أم كاذباً؛ لصحيح أبي بصير عن أحدهما عليهما السلام: «إذا حلف بثلاثة أيمان متتابعات صادقاً فقد جادل وعليه دم، وإذا حلف بيمين واحدة كاذباً فقد جادل وعليه دم». الوسائل ١٣: ١٤٦ باب ١ من أبواب بقیة كفارات الإحرام، ح: ٤ و ٧.

٢- المتفق عليه لدى فقهاء الطائفة أنه لا يصح الطواف من غير اختتان، ويدل عليه النصوص الكثيرة، منها صحيح معاوية بن عمار عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «الأغلف لا يطوف بالبيت، ولا بأس أن تطوف المرأة» الوسائل ١٣: ٢٧٠ باب ٢٣ من أبواب مقدمات الطواف حديث ١. إلا- أن الشهيد الثاني في المسالك ٢: ٣٢٩: جزم بأن الختان إنما يعتبر مع الإمكان، ولو تعذر ولو بضيق الوقت سقط، وقال سبطه في المدارك ٨: ١١٨: ويحتمل قوياً اشتراطه مطلقاً كما في الطهارة بالنسبة إلى الصلاة، هذا ولم يذهب المصنف إلى هذا القول في كتابه المهذب البارع ٢: ٢٠٣، بل اكتفى باشتراط الاختتان في صحة الطواف. وقيد التمكّن لم يرد في شيء من النصوص، وإنما كان مرجع الشهيد في المسالك إلى أن الختان من شروط الصحة كالطهارة وستر العورة بالنسبة للصلاة، وقد تقرر في محله أن شروط الصحة إنما تجب مع الإمكان، لهذا تجب الصلاة عارياً مع تعذر ستر العورة، وفي النجاسة مع تعذر الإزالة. بقي شيء وهو: أن الأخبار بالنسبة إلى شروط الصلاة المذكورة قد صرحت بالوجوب مع عدمها، وأما هنا في الحج فلم تصرح بذلك بالنسبة إلى الختان.

ص: ٧٦

والختم به، وجعل البيت على يساره وإدخال الحجر وإخراج المقام وخروجه بجميع يديه عن البيت، فلو وضع يده على جدار الحجر أو الكعبة في موازاة الشاذروان وهو طائف بطل.

والطواف سبعة أشواط، فلو نقص ولو خطوة بطل إن كان عامداً، وإن كان ساهياً أتمه في الحال، وإن انصرف فإن تجاوز النصف رجح فأتمه؛ ويستتيب لو رجح إلى أهله، ولو لم يتجاوز النصف استأنفه، ولو عاد إلى أهله وتعذر الرجوع أمر من يطوف عنه، وكذا يبطل لو زاد عمداً، وإن كان خطوة، ولو كان سهواً فإن كان قبل بلوغه الركن قطع، وإن ذكر عنده أكمله أسبوعاً ندباً. ويصلى للفريضة قبل السعي (١)، وللندب بعده. ولو شك في عدده بطل. ولو دفعه إنسان فتقدم خطوة أو خطوتين لم يعتد بها ووجب أن يعود إلى حيث كان.

والنية: أطوف طواف العمرة المتمتع بها إلى الحج عمره الإسلام لوجوبه قربته إلى الله. وتجب مقارنتها لأول جزء من الحجر الأسود بحيث يكون أول بدئه بأزاء أول الحجر حتى يمر عليه كله بجميع بدنه مستديماً حكمها إلى الفراغ، ولا بد أن يعرف واجباته ويقصدها حال النية.

الفصل الثالث صلاة الركعتين:

بعد الطواف في مقام إبراهيم عليه السلام، ولا يجوز في غيره ولا قدامه، ولو منعه زحام صلى وراءه أو في أحد جانبيه (٢).

١- أى ويصلى صلاة الطواف قبل السعي إن كان طواف فريضة.

٢- دل على جوازه من غير زحام الصحيح والحسن المروى في الكافي ١٠: ٢٨٢، الوسائل ١٣: ٤٣٣، باب ٧٥ من أبواب الطواف، حديث ٢. قال: «رأيت أبا الحسن موسى عليه السلام يصلى ركعتي طواف الفريضة بحيال المقام قريباً من ظلال المسجد». والأصحاب حملوه على كثرة الناس والضرورة خصوصاً إذا لاحظنا الأخبار الناهية عن الصلاة إلا خلف المقام، منها صحيحة صفوان عمن حدثه عن الصادق عليه السلام قال: «ليس لأحد أن يصلى ركعتي طواف الفريضة إلا خلف المقام، لقول الله عز وجل: واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى، فإن صليتهما في غيره فعليكم إعادة الصلاة». الوسائل ١٣: ٢٩٦، باب ٧٢ من أبواب الطواف، حديث ١.

ص: ٧٧

ويجب فى كلّ منهما الحمد وسوره كامله، ويستحب الحمد فى الأولى والتوحيد فى الثانية، ويتخير فى الجهر والإخفات. وتيتهما: اصلى ركعتى طواف العمرة المتمتع بها إلى عمرة الإسلام أداءً لوجوبهما قربه إلى الله.

الفصل الرابع فى السعى:

ويجب بعد الركعتين، وواجباته أربعة:

البداء بالصفاء: بحيث يلصق عقبه به (١)، والختم بالمروة بحيث يلصق أصابع قدميه بها.

والنية: أسعى سعى العمرة المتمتع بها إلى الحج عمرة الإسلام لوجوبه

١- هذا مذهب علماء الطائفة فى مقابل مذهب بعض أبناء العامة حيث أوجبوا الصعود على الصفا، والدليل على بطلان قولهم أن النبى صلى الله عليه وآله كان يسعى على راحته، انظر الوسائل ١٣: ٤٤٢ باب ٨١ من أبواب الطواف حديث ٢. وذهب الشيخ يوسف البحرانى فى الحقائق ١٦: ٢٦٥ إلى أن إصاق العقبين أيضاً فيه شىء من التضييق فقال: المفهوم من الأخبار أن الأمر أوسع من ذلك، فإن السعى على الإبل الذى دلت عليه الأخبار، وأن النبى صلى الله عليه وآله كان يسعى على ناقته لا يتفق فيه هذا التضييق، من جعل عقبه ملصقة بالصفاء فى الابتداء، وأصابعه يلصقها بالصفاء موضع العقب بعد العود، فضلاً عن ركوب الدرج، بل يكفى فيه الأمر العرفى.

ص: ٧٨

قربة إلى الله.

والسعي: سبعة أشواط من الصفا إليه شوطان، فلو نقص أو زاد ولو خطوة بطل، وكذا لو شك في عدده أو تيقنه وشك فيما به بدأ وهو في المزوج على المروة.

ولو زاد سهواً تخير بين إلغاء الثامن وتكميل أسبوعين.

ويستحب الطهارة والدعاء خلاله، والمشى طرفيه، والهرولة ما بين المنارة وزقاق العطارين.

ولا بد أن يعرف الواجب منه وعدده وقدر المسافة بينهما، ويقصد ذلك حال النية.

الفصل الخامس في التقصير:

ويجب بعد السعي، وواجباته ثلاثة:

النية وصورتها: أقصر للإحلال من إحرام عمره المتمتع بها إلى الحج عمره الإسلام لوجوبه قربة إلى الله.

وإيقاعه في محله وهو الحرم وأفضله المروة، وأخذ شيء من أظفاره أو شعر رأسه ولو قدر الأنملة، أو شعر لحيته أو حاجبيه، قصاً أو قرضاً أو نتفاً أو طلياً بالتورة.

ولو حلق وجب عليه شاة، ويمرّ يوم النحر الموسى على رأسه وجوباً.

الباب الثاني في الحج

إشارة

وصورته: أن يحرم من مكة ثم يمضى إلى عرفات فيقف بها من زوال الشمس يوم عرفة إلى غروبها، ثم يفيض إلى المشعر، فيقف به بعد الفجر، ثم يمضى إلى منى، فيرمى جمره العقبة، ثم يذبح هديه، ثم يحلق رأسه، ثم يمضى إلى مكة في يومه أو غده، ولا يجوز التأخير عنه للمتمتع اختياراً، ويجزى لو فعل. ويجوز للقارن والمفرد طول ذى الحجة على كراهية، فيطوف للحج ويصلّى ركعتيه، ويسعى للحج ثم يطوف للنساء ويصلّى ركعتيه، ثم يمضى إلى منى فيبيت بها ليلتي التشريق، وهي:

ص: ٧٩

ليلة الحادى عشر والثانى عشر والثالث عشر، ويرمى فى هذه الأيام الجمار الثلاث، كلّ جمرة بسبع حصيات. فههنا مباحث:

البحث الأول فى الإحرام:

ويجب بعد فراغ الحاجّ من عمره التمتع إذا بقى من الزمان ما يحصل فيه الاختياريين (١)، أو أحدهما و الاضطرابيين، ويتضمّن مع تضيّقه.

والأفضل أن يكون يوم التروية عقيب فريضة الظهر.

ومحلّه مكة، وأفضلها المسجد وأفضله المقام (٢). وواجباته وشروطه ما مرّ فى باب العمرة.

وتبيته: احرم بالحجّ حج التمتع حجّ الإسلام وألّى التلبّيات الأربع لأعقد بها الإحرام المذكور لوجوب ذلك كلّ قربه إلى الله.

ويجب أن يعرف واجباته ويقصدها حال التّيه ولو إجمالاً، ومعناه وهو كونه مدخلاً فى الحجّ مانعاً من المحرمات، وهو ملزم لإتمام أحد الفرضين.

البحث الثانى فى الوقوف بعرفات:

ولعرفة وقتان:

اختيارى، وهو من زوال الشمس يوم عرفه إلى غروبها، وذلك طرف للوقوف، أى وقت حضر فيه أدرك الحجّ، فإن حصل بها حين الزوال حرم عليه المفارقة حتى الغروب، فيجب عليه بدنه إن لم يعد قبله.

١- أى الوقوفين الاختياريين.

٢- وكذا حجر إسماعيل، كما يدل عليه قوله عليه السلام فى صحيفه عمار: «إذا كان يوم التروية- إن شاء الله تعالى- فاغتسل ثم البس ثوبيك، وادخل المسجد حافياً وعليك السكينة والوقار، ثم صل ركعتين عند مقام إبراهيم عليه السلام أو فى الحجر، ثم اقعده حتى تزول الشمس، فصلّ المكتوبة، ثم قل فى دبر صلاتك كما قلت حين أحرمت من الشجرة، فأحرم بالحجّ» الوسائل ١٢: ٤٠٨ باب ٥٢ من أبواب الإحرام حديث ١.

ص: ٨٠

ولو عجز صام ثمانية عشر يوماً، ويجوز في السفر، وليس مجموع الكون ركناً، بل الزمان الذي يحصل فيه التية، وإن سارت به دابته، ولو مكث إلى الغروب ولم ينو أو نوى قبل الزوال ولم يعده بعده (١) بطل.

واضطرارى إلى يوم النحر، فلو فاته نهراً تداركه ليلاً، والكون الواجب هنا زمان التية وحدها من بطن عرنه (٢) وثوية (٣) إلى ذى المجاز (٤)، فلا يجزى الوقوف بغيرها كالأراك (٥) ولا بهذه الحدود.

والتية: أقف بعرفة ووقف حج التمتع حج الإسلام لوجوبه قرباً إلى الله.

البحث الثالث في الوقوف بالمشعر:

من طلوع الفجر الثانى إلى طلوع الشمس يوم النحر طرف للوقوف، أى وقت حضر فيه أدرك الحج.

والركن المعتبر زمان الكون الذى يحصل فيه التية، ولو رحل قبل طلوع الشمس بعد التية فى وقته أتم وتم حجه، ولو رحل قبل طلوع الفجر بعد أن كان به ليلاً ناوياً صح حجه إن كان وقف بعرفة، وجبره بشاء، ولو كان ناسياً أو خائفاً أو امرأة لم يكن عليه جبر.

ولو لم يقف به ليلاً ولا بعد الفجر عامداً بطل، وغيره يتدارك إلى الزوال.

- ١- أى لم يعد الوقوف المتقوم بالتية بعد الزوال.
- ٢- هذا أحد حدود عرفة وقد ورد فى الأخبار أنها بطن عرنه، وفى اللغة قال المطرزي: وادٍ بحداء عرفات، وبتصغيرها سميت عرينه، وهو قبيلة ينسب إليها العرنيون، وقال السمعاني: إنها وادٍ بين عرفات ومنى. انظر الرياض ٦: ٣٤٤.
- ٣- المعروف والثابت لدى فقهاء الطائفة أنه حد لعرفات وليس منها، وأما معناه فلم نعث له على معنى فى كتب اللغة، نعم عبر عنه فى الصحاح أنه موضع.
- ٤- قيل: هو سوق كانت على فرسخ من عرفة بناحية كبكب. الرياض ٦: ٣٤٤.
- ٥- فعرنه وثوية ونمرة وذى المجاز والأراك كلها حدود لعرفات وليست منها، فلا يجزى الوقوف فيها، وعليه إجماع الطائفة ويشهد له عدة نصوص منها موثق...: «واتق الأراك، ونمرة وهى بطن عرنه وثوية، وذا المجاز، فإنه ليس من عرفة فلا تقف فيه». الوسائل ١٣: ٥٣٢ باب ٦ من أبواب إحرام الحج والوقوف بعرفة حديث ٦.

ص: ٨١

ويستحب التَّيَّةَ ليلًا وينوى بها الوجوب، ويجب إعادتها بعد الفجر، وفائدتها الثواب والأجر ولو أفاض ناسياً أو عامداً. وصفتها: أقف بالمشعر وقوف حجّ التمتع حجّ الإسلام لوجوبه قربته إلى الله وحده، ما بين المأزمين إلى الحياض إلى وادى محسّر. ويكره الارتفاع إلى الجبل مع عدم الزحام. ويدرك الحجّ بإدراك الاختياريين والاضطراريين، وإدراك الاختيارى الواحد خاصة.

البحث الرابع فى مناسك منى يوم النحر:

وإذا أفاض من المشعر وجب عليه المضى إلى منى ليقضى مناسكه بها يوم النحر، وهى ثلاثة: رمى جمرة العقبة، ثم الذبح، ثم الحلق، مرتباً ويأثم لو خالف ويجزى.

أما الرمي فيجب فيه النية، وصفتها: أرمى جمرة العقبة فى حجّ التمتع حجّ الإسلام لوجوبه قربته إلى الله. وإصابته الجمرة بفعله بما يسمى حجراً، من الحرم، أبكاراً، بأقل ما يسمى رمياً. ويستحب التباعد من عشرة أذرع إلى خمسة عشر ذراعاً، والطهارة، والدعاء.

وأما الذبح: فيجب على المتمتع من الأنعام الثلاثة ثنياً وهو من الإبل ما دخل فى السادسة، ومن البقر والمعز ما دخل فى الثانية، ومن الضأن ما كمل له سبعة أشهر، تام الخلقة، فلا تجزى العوراء ولا العرجاء ولا العضباء ولا المقطوعة الأذن - ويجزى مشقوقها - ولا الخصى ولا المهزول - وهو ما ليس على كليتيه شحم - نعم لو ظنه سميناً فخرج هزيباً أجزاء (١) بخلاف ما لو ظهر ناقصاً.

١- وإنما يجزى لو ظهر هزيباً بعد الذبح لورود النصّ فيه ولولاه لما أجزأ، وقد دلت عليه الصحاح منها: «إن اشترى الرجل هدياً وهو يرى أنه سمين أجزأ عنه وإن لم يجده سميناً، ومن اشترى هدياً وهو يرى أنه مهزول فوجده سميناً أجزأ عنه، وإن اشتراه وهو يعلم أنه مهزول لم يجز عنه» الوسائل ١٤: ١١٣ باب ١٦ من أبواب الذبح حديث ٢.

ص: ٨٢

ويأثم لو أخره عن يوم النحر، ويجزى طول ذى الحجة (١).

ونيته: أذبح هذا الهدى عن الواجب على فى حج التمتع حج الإسلام لوجوبه قربة إلى الله.

ويجوز أن يستناب، فيقول النائب: أذبح هذا الهدى عن فلان عن الهدى الواجب عليه فى حج الإسلام لوجوبه قربة إلى الله، ولو كان المنوب حاضراً نوى أيضاً احتياطاً.

ويقسّم ثلاثة أقسام، قسم يأكله، وقسم يهديه، وقسم يتصدق به، ولا يجزى لو أهدى أو تصدق بأقل من الثلث، ويجزى فى الأكل.

ونيته: أكل من الهدى الواجب على فى حج التمتع حج الإسلام لوجوبه قربة إلى الله.

ونية الإهداء: أهدى ثلث الهدى الواجب على فى حج التمتع حج الإسلام لوجوبه قربة إلى الله.

ونية الصدقة: أتصدق بثلث الهدى الواجب على فى حج التمتع حج الإسلام لوجوبه قربة إلى الله.

ويجب شراؤه وإن كان غالباً ما لم يتضرر ببذل ثمنه، وحينئذ يلزم الصوم عوضاً عنه، وهو ثلاثة أيام الحج متواليات (٢) - ويتضيق فى ذى الحجة، ولو خرج ولم يصمها تعين الهدى فى القابل - وسبعة إذا رجع إلى أهله، ولا يشترط

١- فىمن أخره لعذر يجزى للصحيح: «فى رجل نسى أن يذبح بمنى حتى زار البيت فاشتري بمكة ثم ذبح، قال: لا بأس قد أجزأ عنه» الوسائل ١٤: ١٥٦ باب ٣٩ من أبواب الذبح حديث ٥.

٢- إجماعاً مصرحاً به كما فى المنتهى ٢: ٧٤٣، وغيره للنصوص، منها موثق إسحاق بن عمار: «لا يصوم الثلاثة الأيام متفرقة» الوسائل ١٤: ١٩٨ باب ٥٣ من أبواب الذبح حديث ١، والصحيح المروى عن قرب الأسناد انظر الوسائل ١٤: ١٩٦ باب ٥٢ من أبواب الذبح حديث ٤.

ص: ٨٣

فيها التابع (١).

والنية في كل يوم: أصوم غداً عوضاً عن هدى حج التمتع حج الإسلام لوجوبه قربته إلى الله.

ولو وجد ثمنه وفقد عينه خلفه عند من يذبحه عنه طول ذى الحجة (٢)، وعلى النائب قسمته كالمالك، في الأكل والصدقة والإهداء. وأما الحلق: فيجب بعد الذبح، وهو أفضل للرجل، ويجزيه التقصير، ويتعين على المرأة أصالته ونياؤه، ويتخير النائب عنها، ويجزي قدر الأنملة، وبه يحل من كل شيء أحرم منه إلا الطيب والنساء، وهو التحلل الأول للمتمتع، ومحله منى، ولو رحل قبله عاد له، فإن تعذر حلق أو قصر مكانه.

ونيته: أحلق أو أقصر حلق أو تقصير حج التمتع حج الإسلام لوجوبه قربته إلى الله.

ويجب تقديمه على طواف الحج، ولو أخره عامداً جبره بشاء (٣)، ولا شيء على الناسى بل يعيد الطواف (٤).

١- في المنتهى: لا- يعرف فيه خلاف، وللأصل، وإطلاق الأمر، وصريح الخبر قال: «إني قدمت الكوفة ولم أصم السبعة الأيام حتى فرغت في حجة إلى بغداد، قال: صمها ببغداد، قلت: أفرقها؟ قال: نعم». الوسائل ١٤: ٢٠٠، باب ٥٥ من أبواب الذبح حديث ١.

٢- للصحیح الصريح عن أبي عبد الله عليه السلام «في متمتع يجد الثمن ولا يجد الغنم، قال: يخلف الثمن عند بعض أهل مكة ويأمر من يشتري له ويذبح عنه وهو يجزيء عنه، فإن مضى ذو الحجة أخر ذلك إلى قابل من ذى الحجة». الوسائل ١٤: ١٧٦، باب ٤٤ من أبواب الذبح، حديث ١.

٣- للصحیح: «في رجل زار البيت قبل أن يحلق، فقال، إن كان زار البيت قبل أن يحلق وهو عالم أن ذلك لا ينبغي فإن عليه دم شاء». الوسائل ١٤: ٢١٥، باب ٢ من أبواب الحلق والتقصير حديث ١.

٤- هذا هو المعروف من مذهب الأصحاب كما في المدارك ٨: ٩٣ مشعراً بدعوى الوفاق، إلّا أنّ ظاهر عبارة المحقق في الشرائع والعلامة في المختلف وغيرهما تشير إلى وجود الخلاف من الصدوق في الفقيه ٢: ٥٠٥، حديث ٣٠٩١ في وجوب إعادة الطواف لروايته الصحيح: «عن الرجل يزور البيت قبل أن يحلق، قال: لا ينبغي إلّا أن يكون ناسياً ثم قال: إن رسول الله صلى الله عليه وآله أتاه أناس يوم النحر، فقال بعضهم: يا رسول الله إنني حلقت قبل أن أذبح، وقال بعضهم: حلقت قبل أن أرمى، فلم يتركوا شيئاً كان ينبغي أن يؤخروه إلّا قدموه، فقال: لا حرج». الوسائل ١٤: ١٥٥، باب ٣٩ من أبواب الذبح حديث ٤. وهذا لا يفهم منه وجوب إعادة بل ظاهر في عدم وجوبها.

البحث الخامس فى طواف الحجّ:

ويمضى بعد الحلق أو التقصير إلى مكة لطواف الزيارة وواجباته ما تقدم (١).
 ونيته: أطوف طواف حجّ التمتع حجّ الإسلام لوجوبه قربة إلى الله، ثم يصلّى ركعتيه فى مقام إبراهيم عليه السلام.
 وصورة نيتها: أصلى ركعتى طواف حجّ التمتع حجّ الإسلام لوجوبهما قربة إلى الله، وكيفيتهما كما تقدم.
 وبهذا الطواف يحلّ من الطيب وهو التحلل الثانى.

البحث السادس فى السعى:

ويسعى بعد الطواف للحجّ، فيقول: أسعى سعى حجّ التمتع حجّ الإسلام لوجوبه قربة إلى الله، وواجباته ما مرّ.

البحث السابع فى طواف النساء:

ويجب بعد سعى الحجّ، فيقول: أطوف طواف النساء الواجب علىّ فى حجّ التمتع حجّ الإسلام لوجوبه قربة إلى الله، ثم يصلّى ركعتيه فى المقام.

ونيتها: أصلى ركعتى طواف النساء الواجب علىّ فى حجّ التمتع حجّ الإسلام

ص: ٨٥

لوجوبه قربة إلى الله، وبه يحلّ من النساء، وهو التحلل الثالث.

البحث الثامن في العود إلى منى:

ويجب بعد طواف النساء الرجوع إلى منى ليبيت بها ليالى التشريق، وهى ليلة الحادى عشر والثانى عشر والثالث عشر، وهو النفر الثانى. ولكلّ أحد أن ينفر فيه مطلقاً، ولا ينفر فى الأول إلّا المتقى (١). بعد الزوال قبل الغروب، فيدفن حصى الثانى ندباً. ولو أهمل المبيت فى الليلة الواجبة لزمه شاة، إلّا أن يكون بمكة مشغلاً بالعبادة أو يخرج من منى بعد انتصاف الليل. والنية فى كلّ ليلة: أبيت هذه الليلة بمنى المبيت الواجب علىّ فى حجّ التمتع حج الإسلام لوجوبه قربة إلى الله. ويجب رمى الجمار الثلاث فى كلّ يوم، يبدأ فى الأولى ثم الوسطى ثم جمرة العقبة. وينوى فيقول: أرمى هذه الجمرة الرمى الواجب علىّ فى حج التمتع حج الإسلام لوجوبه قربة إلى الله. ووقت الإجزاء من طلوع الشمس، وللفضيلة من الزوال، ويمتدان إلى الغروب، ولو غربت آخره وقضاه من الغد مقدماً له على الحاضرة وجوباً ولو حصاء، والأفضل أن يكون قبل الزوال. وثبته: أرمى هذه الجمرة قضاءً عن الرمى الواجب علىّ فى حج التمتع حج الإسلام لوجوبه قربة إلى الله. وللعبد والراعى والخائف الرمى ليلاً، ورُمى عن المعذور. ولو نسيه رجع فأتى به فإن فات زمانه فلا شىء ويقضيه فى القابل ويستتیب إن لم يحج. وشرائط الرمى هنا كما مر. وليكون هذا آخر المقدمة والحمد لله رب العالمين (٢).

١- أى فى الثانى عشر من ذى الحجة، لمن اتقى الصيد والنساء.

٢- هذا آخر النسخة ولم تذيل بما يدل على اسم كاتبها وتاريخ كتابتها.

ص: ٨٦

مصادر التحقيق:

- ١- أعيان الشيعة- للسيد محسن الأمين، دار التعارف، بيروت.
- ٢- أمل الآمل- للشيخ الحر العاملى، مكتبة الأندلس، بغداد.
- ٣- تهذيب اللغات- لمحى الدين النووى، دار الكتب العلمية، بيروت.
- ٤- تنقيح المقال- للشيخ المامقانى، دار الكتب الإسلامية، طهران.
- ٥- الحدائق الناضرة- للشيخ يوسف البحرانى، مؤسسة النشر التابعة لجماعة المدرسين، قم.
- ٦- خاتمة المستدرک- للمحقق النورى الطبرسى، مؤسسة آل البيت عليهم السلام، قم.
- ٧- روضات الجنات- للميرزا باقر الخوانسارى، مؤسسة إسماعيليان، قم.
- ٨- رياض العلماء- للميرزا الأفندى، مكتبة المرعشى النجفى، قم.
- ٩- شرائع الإسلام- للمحقق الحلى، مؤسسة الوفاء، بيروت.
- ١٠- الفوائد الرجالية- للسيد مهدي بحر العلوم، مكتبة الصادق، طهران.
- ١١- الفوائد الرضوية- للشيخ عباس القمى، نشر كوكب، طهران.
- ١٢- كشكول البحرانى- للشيخ يوسف البحرانى، منشورات الشريف الرضى، قم.
- ١٣- الكنى والألقاب- للشيخ عباس القمى، قم.
- ١٤- لؤلؤة البحرين- للشيخ يوسف البحرانى، مؤسسة آل البيت عليهم السلام، قم.
- ١٥- مختلف الشيعة- للعلامة الحلى، مؤسسة النشر التابعة لجماعة المدرسين، قم.
- ١٦- مدارك الأحكام- للسيد محمد العاملى، مؤسسة آل البيت عليهم السلام، قم.
- ١٧- مسالك الأفهام- للشهيد الثانى، مؤسسة المعارف الإسلامية، قم.
- ١٨- المصباح المنير- للفيومى، دار الهجرة، قم.
- ١٩- مقاييس الأنوار- للمحقق التستري، مؤسسة آل البيت عليهم السلام، قم.

ص: ٨٧

- ٢٠- منتهى المطلب- للعلامة الحلى، مجمع البحوث الإسلامية، مشهد.
- ٢١- منتهى المقال- لأبى على، مؤسسة آل البيت عليهم السلام، قم.
- ٢٢- من لا يحضره الفقيه- للشيخ الصدوق، مؤسسة النشر التابعة لجماعة المدرسين، قم.
- ٢٣- المهذب البارع- لابن فهد الحلى، مؤسسة النشر التابعة لجماعة المدرسين.
قم.
- ٢٤- نامه دانشوران- للملا أبو الحسن الطهرانى، طهران.
- ٢٥- النهاية فى غريب الحديث- ابن الأثير، مؤسسة إسماعيليان، قم.
- ٢٦- وسائل الشيعة- للشيخ الحر العاملى، مؤسسة آل البيت عليهم السلام، قم.

التصرف المعجز عن بقاء الاستطاعة

إشارة

الشيخ جعفر السبحاني

إنّ لفتح الذرائع في الفقه السني، والحيل الشرعية في الفقه الشيعي، دوراً بارزاً في إثبات الحكم الشرعي ونفيه، وقد طرحه فقهاء السنّة في فصل خاص باسم «فتح الذرائع»، كما طرحها فقهاء الشيعة في آخر كتاب الطلاق (١)، والنزاع بين المجوّزين والمانعين من كلا الفريقين على قدم وساق.

والتصرف في المال، تصرفاً معجزاً عن بقاء الاستطاعة للحجّ من فروع هذه القاعدة، ونحن ندرسها على ضوء الأدلة الشرعية فنقول:
يقع الكلام في مقامات ثلاثة:

١. حرمة التصرف المعجز وجوازه تكليفاً.
٢. لو قلنا بالحرمة فما هو حد التصرف المعجز الحرام، تكليفاً؟
٣. صحّة التصرف أو بطلانه وضعاً.
وإليك الكلام فيها، واحد تلو الآخر.

١- انظر الشرائع وشرحه مسالك الأفهام، والحدائق والجواهر، آخر كتاب الطلاق، ترى فيها بحثاً ضافياً حول القاعدة.

الأول: هل يحرم التصرف المعجز؟

إذا حصلت الاستطاعة بعامة شرائطها، فهل يجوز للمستطيع أن يُعجز نفسه بالتصرف في ماله، بنحو الهبة والوقف وغير ذلك أو لا؟
الظاهر كون الحرمة أمراً مفروضاً عندهم.

ولكن هنا إشكالاً وهو: أن وجوب الحجّ وجوب مشروط، والواجب المشروط لا يقتضى حفظ شرطه، فكما لا يقتضى إيجاده حدوثاً، لا يقتضى وجوب إبقائه بقاءً.

وقد أُجيب عن الإشكال بالفرق بين قول: «المستطيع يجب عليه الحجّ»، وقول: «من استطاع إليه سبيلاً»، فإنّ الأول ظاهر في إناطة الحكم بالوصف حدوثاً وبقاءً، دون الثاني فهو ظاهر في كفاية وجود الشرط حدوثاً، ونظيره ما إذا قيل: «إذا سافر وجب عليه القصر»، فإنّه يكفي في ترتب الحكم، تحقّق السفر آنأ ما يبقى الحكم وإن زال السفر، بخلاف ما إذا قيل: «المسافر يجب عليه القصر»، إذ عندئذ يكون الحكم منوطاً بالسفر حدوثاً وبقاءً (١).

يلاحظ عليه: أن ما استظهره من أنّه إذا تعلّق الحكم بالمشقّق، يشترط في حمل المحمول بقاء الموضوع حدوثاً وبقاءً، منقوض بقوله سبحانه: «وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ» (٢).

و «الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي» (٣)، وغيرهما من عناوين الضارب، والقاتل، والسالب التي يكفي في صحّة إطلاقها، تلبس الذات حدوثاً لابقاء، وادعاء وجود القرينة على كون التلبس فيها بالحدوث دون البقاء، غير صحيح في عامّة الموارد، كأكل مال الغير وشارب مائه، أو لابس ثيابه، وهاتك حرمة، إلى غير ذلك من الموارد التي يكفي فيها التلبس حدوثاً ولا يلزم التلبس بقاءً.

١- المستمسك: ١٠: ١٠٦-١٠٧ بتصرف.

٢- المائدة: ٣٨.

٣- النور: ٢.

ص: ٩٠

والأولى أن يقال: إنّه إذا حصل عنده ما يكفي للحجّ، فوجوب الحجّ عندئذٍ إمّا وجوب معلق أو وجوب مشروط. فعلى الأول، الوجوب فعليّ منجّز، غاية الأمر زمان الواجب متأخّر، ومعه كيف يمكن له تعجيز نفسه بعد فعلية الوجوب وتنجزه؟! الظاهر عدم وجوب حفظ المال للسنة القادمة مع عدم تمكّنه في العام الأول وفاقاً للمشهور وعلى الثاني، فالوجوب وإن كان مشروطاً، لكن الواجب المشروط - بعد حصول شرطه - ينقلب إلى واجب مطلق، وليس المراد أنّ الحكم الكلّي، أعنى قوله سبحانه: «وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا» (١)، ينقلب إلى الواجب المطلق، لوضوح بطلانه، بل الحكم الجزئيّ في حقّ من استطاع، يكون منجزاً، فلا يخاطب بقوله: إذا استطعت فحجّ، بل يقال له: أيّها المستطيع حجّ. بل لو أنكرنا انحلال الحكم الكلّي إلى أحكام جزئية، كما هو المختار، فهو يكون عند العقل محكوماً بوجوب الحجّ، بلا شرط، ويكفي ذلك في عدم جواز التعجيز؛ لأنّه يهدم ما يستقلّ به العقل بلا شرط.

الثاني: ما هو حدّ حرمة التعجيز؟

قد عرفت أنّ حرمة التعجيز أمر مفروغ عنه، فعندئذٍ يقع الكلام في حدّها، فهناك أقوال:

١. يجوز قبل خروج الرفقة ولا يجوز بعده. وهذا هو المعروف.
٢. يجوز قبل التمكن من السير ولا يجوز بعده. وهذا هو خيرة السيد اليزدي في العروة الوثقى، والسيد الحكيم، وإن تردّد في آخر كلامه.

ص: ٩١

٣. ما حكاة السيد الحكيم عن بعض الأعاظم [المحقق النائيني] فى حاشيته على العروة، من أنه لا يجوز إذهاب المال فى أشهر الحج وإن لم يتمكّن من المسير.

٤. لا- يجوز مطلقاً، لا قبل خروج الرفقة ولا بعده، لا قبل التمكن من السير ولا بعده، لا قبل دخول أشهر الحج، ولا بعده. وهو خيرة المحقق الخوئي، ويمكن إرجاع القول الأول إلى الثانى، لأن التمكن من المسير فى الأزمنة السابقة كان مقروناً بخروج الرفقة. كما أن القول الثالث غير واضح، لأنه إذا دخل شوال ولم يتمكّن من السير- على القول بأن الميزان هو التمكن فى عام الاستطاعة- يكشف عن أنه لم يكن مستطيعاً، فلا يجب عليه الحج ولا يجب حفظ الاستطاعة. والمهم هو القول الثانى والرابع.

ولنذكر كلمات القوم، وهم بين من عنون المسألة مستقلةً، كالعلامة فى المنتهى والتذكرة، والشهيد فى الدروس؛ وبين من أشار إليها فى مورد خاص، وهو فيما إذا دار الأمر بين الحج والنكاح، كالأردبيلي فى شرح الإرشاد، وصاحب المدارك، وصاحب كشف اللثام، وصاحب الجواهر. وإليك ما وقفنا عليه من الكلمات:

١. قال العلامة: لو كان له مال فباعه قبل وقت الحج مؤجلاً إلى بعد فوته، سقط الحج؛ لأنه غير مستطيع، وهذه حيلة يتصور ثبوتها فى إسقاط فرض الحج على الموسر، وكذا لو كان له مال فوهبه قبل الوقت، أو أنفقه، فلما جاء وقت الخروج كان فقيراً، لم يجب عليه وجرى مجرى من أتلف ماله قبل حلوله (١).

٢. وقال فى «التذكرة»: لو كان له مال فباعه نسيئاً، عند قرب وقت الخروج إلى أجل يتأخر عنه، سقط الفور فى تلك السنة عنه؛ لأنّ المال إنما يعتبر وقت خروج الناس، وقد يتوسل المحتال بهذا إلى دفع الحج (٢).

١- المنتهى ٢: ٦٥٣.

٢- التذكرة ٧: ٥٩ - ٦٠.

ص: ٩٢

٣. وقال فى «الدروس»: ولا ينفع الفرار بهبة المال أو إتلافه أو بيعه مؤجلاً، إذا كان عند سير الوفد (١).
٤. قال المحقق الأردبيلي فى شرح قول العلامة: «ولا يجوز صرف المال فى النكاح وإن شق تركه»: واعلم أن الظاهر أن المراد بذلك وجوب الحجّ وتقديمه على النكاح، وعدم استثناء مؤنثه من الاستطاعة، وكون ذلك فى زمان وجوبه وخروج القافلة وتهيؤ أسبابه، وإن كان قبله يجوز (٢).
٥. وقال فى «المدارك» فى نفس المسألة: ولا يخفى أنّ تحريم صرف المال فى النكاح إنّما يتحقق مع توجه الخطاب بالحجّ وتوقفه على المال، فلو صرف فيه قبل سفر الوفد- الذى يجب الخروج معه- أو أمكنه الحجّ بدونه، انتفى التحريم (٣).
٦. قال فى «كشف اللثام عن قواعد الأحكام»: (ويصرف المال) الكافى لمؤونة الحجّ (إلى الحجّ، لا إلى النكاح) عند خروج الوفد (٤).
٧. قال فى «الجواهر» فى نفس المسألة: ولا يخفى أنّ تحريم صرف المال فى النكاح إنّما يتحقق مع توجه الخطاب بالحجّ وتوقفه على المال، فلو صرف فيه قبل سير الوفد الذى يجب الخروج معه أو أمكنه الحجّ بدونه انتفى التحريم قطعاً (٥).
- إذا عرفت ذلك فلندرس الأقوال:
- أما القول الثالث، أعنى: كون الميزان هو «أشهر الحجّ»، فهو غير تام؛ لأنّ أشهر الحجّ ظرف الواجب حيث لا تصحّ عمره التمتع إلّافى هذه الأشهر الثلاثة، كما لا يصحّ الإتيان بمناسك الحجّ إلّافى الشهر الأخير من هذه الثلاثة.

١- الدروس ١: ٢٦٧.

٢- مجمع الفائدة والبرهان ٦: ٧٤.

٣- المدارك ٧: ٤٥.

٤- كشف اللثام ٥: ٩٨، والعبارة ممزوجة مع متن القواعد، وقد فرزنا المتن عن الشرح بالأقواس الصغيرة.

٥- الجواهر ١٧: ٢٦١.

ص: ٩٣

كما أنّ القول الثاني يرجع إلى الأوّل، فيدور الأمر بين تحديده بنفس السنة، أو عدم تحديده بزمان خاص، فلو حصل عنده مال يكفي للحج، ولا يتمكّن من المسير في نفس السنة، لكن يتمكّن منه في السنة الثانية أو الثالثة، فهل يجوز تفويت المال، أو لا؟ المشهور على الأوّل، والسيد المحقّق الخوئي على الثاني.

الظاهر هو الأوّل، لأنّ تكرار العمل في كلّ سنة، يشكّل قرينة على تحديد وجوب الحفظ بنفس السنة، من غير فرق بين كون الوجوب مشروطاً أو معلقاً؛ فإنّ إيجاب مناسك العمرة والحجّ في كلّ سنة يصير قرينة على لزوم حفظ الاستطاعة بالنسبة إلى نفس السنة، لا السنوات الأخرى، نعم الأحوط حفظها بلا تحديد بسنة خاصة.

الثالث: في صفة التصرف وعدمه

لا شك أنّ التصرف في المال الذي حصلت الاستطاعة به حرام؛ لاستلزامه تعجيز النفس عن إتيان واجب فعلي منجز، إنّما الكلام في الحرمة الوضعيّة، بمعنى بطلان التصرف، فقد اختار السيد في العروة الوثقى بطلانها إذا كانت الغاية الفرار

ص: ٩٤

من وجوب الحج.

لكن التفصيل المذكور ليس بتمام، لأن التوضيل إلى الحرام لا يوجب بطلان المعاملة، لأن النهي متعلق بأمر خارج عن المعاملة سبباً ومسبباً، وهو التفويت أو التعجيز، وهذا نظير النهي عن البيع وقت النداء، فإنه في الحقيقة متعلق بتفويت صلاة الجمعة، سواء أكان بالبيع أم بغيره.

حتى ولو افترضنا تعلق النهي بالبيع بما أنه الجزء الأخير من مقدمة الحرام، فالنهي لا يكشف إلا عن المبعوضة وهو لا يكون دليلاً على الفساد.

نعم لو كان النهي إرشاداً إلى الفساد كما في قوله: «لا تبع ما ليس عندك»، أو كان متعلقاً بأثر المعاملة كالتصرف في الثمن والمثمن، على نحو لا تجتمع حرمة التصرف في أحدهما، مع صحة المعاملة، يكون دليلاً على الفساد، نحو قوله: ثمن العذرة سحت، أو ثمن المغنية سحت.

وأما في غيرهما، فلا دليل على البطلان.

فقهيات معاصرة في الحج «٢» موضع مقام إبراهيم (١)

الشيخ محمد القائيني

من جملة المسائل المطروحة- وإن كانت بعد غير داخله في ابتلاء المكلفين- وظيفة المسلمين في صلاة الطواف إذا غير المقام من موضعه الفعلي؛ فهل الواجب هو الصلاة خلف المقام حيثما كان؟ أو أن الواجب هو الصلاة في الموضع الفعلي للمقام؛ حتى أنه لو أزيل المقام من موضعه الفعلي وجبت الصلاة في موضعه؛ لا حيث نقل إليه؟

وهناك احتمال ثالث يجمع بين الأمرين، وهو كون الواجب هو الصلاة في موضعه الفعلي مع اشتراط كون المقام فيه بنحو شرط الواجب لا شرط الوجوب؛ استناداً إلى ما تضمن الأمر بجعله إماماً فلو أزيل المقام من موضعه وجب رده إليه.

واحتمال رابع وهو وجوب الصلاة في موضعه الأصلي مع اشتراط ردّ المقام إلى ذلك الموضع بنحو شرط الواجب؛

وحيث يكون الاحتمال الثالث مساوياً لاحتمال عدم جواز تغيير المقام من موضعه ولو بجعله في ناحية من نواحي المسجد فلا مناص من دراسة هذه المسألة أولاً، أعنى حكم تغيير المقام من موضعه الفعلي؛ ثم البحث عن حكم الصلاة على

ص: ٩٦

تقدير التغيير. كما أنه بالغض عن حكم الصلاة هى فى نفسها مسألة ينبغى البحث عنها كما سنشير إن شاء الله إلى حكم اشتراط الطواف بكونه بين البيت والمقام أو أن الشرط - على تقديره - هو الطواف بين البيت وموضع المقام. فنقول - بعد التوكل على الله -: المقام الذى ورد فى النصوص والروايات هو: الصخرة التى عليها أثر قدمى إبراهيم على نبينا وآله وعليه السلام؛ وعلى أساس هذا ورد فى روايات أهل البيت عليهم السلام وجوب صلاة الطواف خلف المقام أو عنده؛ خلافاً لأهل السنة أو بعضهم حيث لا يعتبرون كون الصلاة عند المقام، بل يكتفون بالصلاة فى أى موضع من المسجد وكأنهم يوسعون المقام الذى قال تعالى: «واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى»؛ ويرون أن المسجد بتمامه مقام إبراهيم؛ لا خصوص الصخرة المشار إليها؛ وعليه فلا موضوعية فى الصخرة عندهم للصلاة؛ وإنما الصخرة هى مجرد شعيرة شأنها للصلاة شأن الصفا والمروة.

ثم إن الاستفادة من التواريخ والآثار أن الموضع الفعلى للصخرة التى هى المقام كان بفعل عمر، وأنه حوّل الصخرة إليه بعد أن كانت الصخرة قبله ملاصقة للبيت أو كان بينها وبين البيت ممرّ عنز أو كانت مشدودةً بأستار البيت؛ حسب اختلاف النقل. والظاهر اتفاق المؤرخين على ذلك، أعنى كون الموضع الفعلى للمقام بفعل عمر بعد أن كان المقام قبله ملاصقاً للبيت؛ وفى شفاء الغرام نسبه إلى المشهور.

وإنما اختلفوا فى أن المقام أعنى الصخرة حينما كان ملاصقاً للبيت هل كان ذلك موضعه الأسمى وأن النبى إبراهيم عليه السلام جعله هناك وكذلك كان فى عصر النبى محمد صلى الله عليه وآله وأبى بكر وشطر من خلافة عمر ثم أمر عمر بتغيير موضع المقام، فموضعه الفعلى ليس هو موضعه الأسمى بل هو موضعه فى عصر الجاهلية، وقد ردّه النبى صلى الله عليه وآله لاحقاً للبيت إلى أن حوّل عمر إلى موضعه الفعلى.

ص: ٩٧

أو أن الموضع الأصلي للمقام منذ عهد إبراهيم وحتى عصر النبى محمد صلى الله عليه و آله كان هو موضعه الفعلى وإنما ذهب السيل بالمقام فى عهد عمر فاخذ والصق بالبيت حفاظاً عليه حتى رده عمر إلى موضعه الفعلى فى بناء محكم.

أو أن موضعه الفعلى هو محلّه منذ زمن إبراهيم إلّا أن أهل الجاهليّة ألصقوه بالبيت خوفاً من السيل حتى حوّل عمر إلى موضعه الفعلى؟

وقد صرح فى جملة من التواريخ والنصوص من الفريقين بالأول. ولكن المتراءى من التاريخ السنّى هو الانحياز إلى الثانى والإصرار على كون فعل عمر مطابقاً لجعل المقام فى موضعه الأصلي، وأنه موضعه فعلاً حتى لا يؤخذ على عمر أنه خالف ما فعله رسول الله صلى الله عليه و آله من جعل المقام ملاصقاً للبيت؛ خلافاً لعدّة من محققيهم قديماً وحديثاً حيث اختاروا ما تضمنته نصوص الشيعة، وإليه ذهب علماءهم من أن عمر هو الذى حوّل المقام من موضعه إلى موضعه الحالى.

وقد صرح غير واحد من أهل الخبرة بالتاريخ والسير من علماء الفريقين بكون الموضع الفعلى للمقام إبداعاً من عمر.

قال الشهيد الثانى فى المسالك: قد كان - يعنى المقام - فى زمن إبراهيم عليه السلام ملاصقاً بالبيت بحذاء الموضع الذى هو فيه الآن ثم نقله الناس إلى موضعه الآن؛ فلما بعث النبى صلى الله عليه و آله رده إلى موضعه الذى وضعه فيه إبراهيم عليه السلام؛ فما زال فيه حتى قبض وفى زمن الأول وبعض زمن الثانى؛ ثم رده بعد ذلك إلى الموضع الذى هو فيه الآن (١).

وقال العلامة المجلسى فى البحار فى عداد ما يطعن به على عمر أنه أبداع فى الدين بدعاً كثيرة ... ثم ذكر أموراً؛ إلى أن قال: ومنها: تحويل المقام من موضعه كما ورد فى كثير من أخبارنا. وقال ابن أبى الحديد: قال المؤرخون: إن عمر أوّل من سنّ قيام شهر رمضان فى جماعه وكتب به

ص: ٩٨

إلى البلدان. وأول من ضرب فى الخمر ثمانين. وأحرق بيت رويشد الثقفى - وكان نباداً - وأول من عسّ فى عمله بنفسه وأول من حمل الدرّة وأدّب بها وقيل بعده:

كان درّة عمر أهيب من سيف الحجاج. وأول من قاسم العمّال وشاطرهم أموالهم.

وهو الذى هدم مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وزاد فيه، وأدخل دار العباس فيما زاد وهو الذى أّخر المقام إلى موضعه اليوم وكان ملصقاً بالبيت...

وقد أشار إلى تحويل المقام صاحب الكشّاف (١).

وممن صرح بكون وضع المقام فى المكان الفعلى هو من عمر مخالفاً لما فعله رسول الله صلى الله عليه وآله، والد العلامة المجلسى فى الروضة؛ قال: لكن أتباع عمر ضبطوا بدعته وعلموا على الموضع الذى كان فى عهد رسول الله صلى الله عليه وآله بأن جعلوا موضع المقام منخفضاً فى الأرض ويسمونه الجهلة الآن بمقام جبرئيل عليه السلام، روى فى أخبار كثيرة وأن صاحب الأمر صلوات الله عليه حين يخرج يجعله فى المكان الذى وضعه رسول الله صلى الله عليه وآله وقبله إبراهيم عليه السلام (٢).

ومن المصرّحين من كبار علماء أهل السنّة بكون موضع المقام ملاصقاً للبيت فى عهد النبى صلى الله عليه وآله وأن موضعه الفعلى من صنع عمر هو ابن كثير فى تفسيره قال:

قد كان هذا المقام ملصقاً بجدار الكعبة قديماً؛ ومكانه معروف اليوم إلى جانب الباب ممّالى الحجر يمينه الداخل من الباب فى البقعة المستقلّة هناك؛ وكان الخليل عليه السلام لما فرغ من بناء البيت وضعه إلى جدار الكعبة؛ أو أنه انتهى عنده البناء فتركه هناك، ولهذا - والله أعلم - أمر بالصلاة هناك عند الفراغ من الطواف، وناسب أن يكون عند مقام إبراهيم حيث انتهى بناء الكعبة فيه، وإنما أّخره عن جدار الكعبة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أحد الأئمّة المهديين والخلفاء الراشدين الذين امرنا باتباعهم... إلى أن قال: ولهذا لم ينكر أحد من الصحابة رضى الله عنهم أجمعين (٣).

١- بحار الأنوار ٣١: ٣٢؛ وفى تعليقه الإشارة، إلى الكشّاف، ١: ١٨٥ ذيل آية المقام فى سورة البقرة: ١٢٥.

٢- روضة المتقين ٤: ١٣٣، كتاب الحج، فضل الكعبة والحرم.

٣- تفسير ابن كثير ١: ١٧٠ ضمن قوله تعالى: واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى. البقرة: ١٢٥.

ص: ٩٩

ثم استدل ابن كثير لما ذهب إليه بجملة من النصوص تعرضنا لها ضمن الأدلة؛ ثم قال: فهذه الآثار متعاضدة على ما ذكرناه والله أعلم. وقال ابن كثير فى بيان وجه تأخير عمر للمقام: وقد كان المقام ملتصقاً بجدار البيت حتى أخره عمر بن الخطاب فى أمارته إلى ناحية الشرق بحيث يتمكن الطواف منه ولا يشوشون على المصلين عنده بعد الطواف؛ لأن الله قد أمرنا بالصلاة عنده (١).

وممن ذهب إلى كون المقام ملتصقاً بالبيت فى عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وأن عمر هو الذى أبدع فى تحويله، ابن حجر فى فتح البارى؛ قال:

وكان المقام من عهد إبراهيم لرق البيت إلى أن أخره عمر عنه إلى المكان الذى هو فيه الآن؛ أخرجه عبد الرزاق فى مصنفه بسند صحيح عن عطاء وغيره وعن مجاهد أيضاً.

وأخرج البيهقى عن عائشة مثله بسند قوى؛ ثم ذكر الخبر ثم قال: وأخرج ابن مردويه بسند ضعيف عن مجاهد: أن النبى صلى الله عليه وآله هو الذى حوّله. والأول أصح.

وقد أخرج ابن أبى حاتم بسند صحيح عن ابن عيينة قال: كان المقام فى سقع البيت فى عهد رسول الله صلى الله عليه وآله فحوّله عمر، فجاء سيل فذهب به فردّه عمر إليه. قال سفيان: لا أدري أكان لاصقاً بالبيت أم لا؟

ثم قال ابن حجر: ولم تنكر الصحابة فعل عمر ولا من جاء بعدهم؛ فصار إجماعاً. وكان عمر رأى أن إبقاءه يلزم منه التضيق على الطائفين أو على المصلين فوضعه فى مكان يرتفع به الحرج وتهياً له ذلك لأنه الذى كان أشار باتخاذ مصلى؛ وأول من عمل عليه المقصورة الموجودة الآن (٢).

١- المصدر نفسه ١: ٣٨٤.

٢- فتح البارى ٨: ١٦٩، باب قوله: واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى.

ص: ١٠٠

وممن صرح بتحويل عمر للمقام ابن سعد فى الطبقات الكبرى فى ترجمه عمر على ما حكى قال: وهو آخر المقام إلى موضعه اليوم وكان ملصقاً بالبيت (١).

وقال السيوطى فى ترجمه عمر بن الخطاب على ما حكى: هو الذى آخر مقام إبراهيم إلى موضعه اليوم وكان ملصقاً بالبيت (٢). ومثله ذكر الدميرى فى محكى حياة الحيوان (٣).

وقال الكردى فى التاريخ القويم بعد سرد الأقوال فى موضع مقام إبراهيم: رأينا أن نأتى هنا بأرجح الأقوال على رأينا ومانمىل إليه فنقول- وبالله العون والتوفيق:-

«إذا لاحظت ما تقدم عن حد المسجد الحرام قديماً، وأن مكان البيت كان ربوة مرتفعة عن الأرض ذات الرمال والحصى، وأن إبراهيم عليه السلام ما بنى الكعبة بالطين والبالجص وإنما رضمها رضمًا ولم يسقفها، وتصورت أن أهل الجاهلية كانوا يجلسون فى ظل الكعبة ويقعدون حولها يتذكرون شؤونهم العامة، وأنه لم يكن حينئذ للمسجد الحرام على صغره سور ولا حائط حتى بنى عمر بن الخطاب جداراً قصيراً بعد أن زاد فيه ووسعه.

ظهر لك أن أرجح الأقوال المتقدمة وأقربها إلى الصواب هو ما رواه البيهقى فى سننه من أن المقام كان فى زمن النبى صلى الله عليه وآله وزمن أبى بكر ملصقاً بالبيت حتى آخره عمر بن الخطاب وما ذكره أيضاً ابن حجر العسقلانى فى فتح البارى بأن المقام كان فى عهد إبراهيم عليه السلام لثق البيت إلى أن آخره عمر إلى المكان الذى هو فيه الآن، وما قاله أيضاً ابن كثير فى تفسيره بأن المقام كان ملصقاً بجدار الكعبة قديماً ومكانه معروف اليوم إلى جانب الباب مما يلي الحجر، وكان الخليل عليه السلام لما فرغ من بناء البيت وضعه إلى جدار الكعبة أو أنه انتهى عنده البناء فتركه هناك، وأنه آخره عن جدار الكعبة عمر بن الخطاب ... الخ. وتابع الكردى قائلاً: وهو

١- الطبقات الكبرى ٣: ٢٨٤.

٢- تاريخ الخلفاء: ١٣٧.

٣- حياة الحيوان ١: ٣٣١ مادة ديك.

ص: ١٠١

كلام حسن جيد للغاية، وما ذكره ابن كثير أيضاً فى تفسيره من رواية ابن مردويه أن مقام إبراهيم كان فى الكعبة فأخرجه رسول الله صلى الله عليه وآله فألزقه فى حائط الكعبة وذلك حينما دخل الكعبة يوم فتح مكة.

ولقد رجحنا هذه الأقوال الأربعة مما تقدم، لأن المعقول أن إبراهيم عليه السلام لا بد أن يضع الحجر الذى قام عليه فى بناء البيت الحرام بلزقه وجواره لا أن يضعه بعيداً عن البيت حينما اتفق، وهو ياقوته من يواقيت الجنة ومقامه الذى كان يقوم عليه وأيضاً لا بد أن الله تعالى أمره بحفظه وعدم التفريط فيه حيث يأتى فى آخر الزمان خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وآله فيؤمر هو وأمه بالصلاة عنده وقبلتهم البيت المعظم. ويؤيد كلامنا هذا ما جاء فى الجزء الثانى من تاريخ الأزرقى أن إبراهيم عليه السلام قام على المقام حينما أذن فى الناس بالحج، فلما فرغ من التأذين أمر بالمقام فوضعه قبله فكان يصلى إليه مستقبل الباب، ثم كان إسماعيل بعده يصلى إليه إلى باب الكعبة....

فلدى التأمل فى هذه النقطة يظهر جلياً أن إبراهيم عليه السلام جعل الحجر الذى قام عليه لبناء الكعبة بلصقها ولا يبعده عنها بمسافة أذرع مخصوصة إلا لسبب وأى سبب لذلك فى أيامه وأيضاً أن أهل الجاهلية كانوا ألصقوا المقام بالبيت خيفة السيل بل وضعوه فى جوف الكعبة حتى أخرجهم رسول الله صلى الله عليه وآله منها فألزقه فى حائطها كما تقدم بيان ذلك، فما الذى يدعو أهل الجاهلية إلى إبعاد ذلك الحجر الأثرى المحترم عن الكعبة ووضعوه فى هذا المحل الذى هو عليه الآن كما فى رواية السنجارى المتقدمة ولا أحد منهم يتعبد عنده، بل لو أبعده عن البيت لكان المعنى أنهم لم يعتبروه ولم يحترموا حيث رموه فى آخر ساحته عند أبواب بيوتهم المحيطة بالبيت، وكيف يقع ذلك منهم وهم الذين يعتقدون أنه ذلك الحجر المقدس الذى عليه أثر قدمى إبراهيم الخليل عليه السلام، وقد قال أبو طالب فيه وفى الحجر الأسود:

وبالحجر المسود إذا مسحونه إذا اكتنفوه بالضحي والأصائل

وموطىء إبراهيم فى الصخر رطبة على قدميه حافياً غير ناعل

فلما جاء الإسلام أكد احترامهما وجعل لهما مغزى خاصاً ورمزاً تعبدياً وإن كان الحجر الأسود أعظم حرمة من المقام، فإنه يمين الله فى الأرض وإنه يبعث يوم القيامة وله عينان يبصر بهما ولسان ينطق به يشهد لمن استلمه بالحق كما ورد ذلك. وقد تقدم أن الحجر الأسود والمقام هما من ياقوت الجنة.

ومن الغريب أن الكردى بعد ما انتهى من البحث وولج فى غيره من شؤون المقام كأنه لم يرقه ما تحقق له من مخالفة عمر لما فعله رسول الله صلى الله عليه وآله؛ وربما كان اخذ عليه فى ذلك فرجع مرة أخرى إلى البحث وقال:

«لقد تقدم من الكلام ما فيه الكفاية عن مقام خليل الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام، غير أن الله سبحانه وتعالى فتح علينا فهم مسألة دقيقة عنه وهى: أن المشهور لدى المؤرخين وجميع الناس أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه هو الذى وضع المقام فى هذا المحل الآن الذى هو أمام باب الكعبة بجوار بئر زمزم، وذلك عندما ذهب سيل أم نهشل بالمقام. وهذا كلام صحيح لا شك فيه، غير أن عمر رضى الله عنه ما وضع المقام إلا فى نفس المحل الذى كان فيه قبل أن يذهب به سيل أم نهشل، أى وضعه فى الموضع الذى كان المقام فيه فى عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وفى عهد خليفته أبى بكر رضى الله تعالى عنه بدليل ما رواه الإمام الأزرقى» (١).

وممن صرح بتحويل عمر للمقام خلافاً لما كان عليه فى عصر النبى صلى الله عليه وآله المحدث العلامة عبدالرحمن بن يحيى المعلمى اليمانى؛ وهو من متأخري أهل السنة ومن مقاربي عصرنا؛ وقد أقره على ذلك صاحب السماحة مفتى الديار السعودية الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ ودافع عنه حتى أنه كتب فى الدفاع عن مقالته رسالة.

قال المعلمى: أين كان موضعه - المقام - فى عهد النبى صلى الله عليه وآله؟ فى هذا ثلاثة أقوال:

١- التاريخ القويم، للكردي ٣: ٣١٣-٣١٧.

ص: ١٠٣

الأول: أنه كان في موضعه الذي هو به الآن؛ والأدلة الصحيحة الواضحة تردّ هذا القول كما يأتي في القول الثالث.
 الثانى: قال بعضهم: كان المقام لاصقاً بالكعبة في عهد النبي صلى الله عليه وآله حتى أخره هو صلى الله عليه وآله إلى موضعه الآن.
 ثم ردّ عليه بضعف المستند والمعارض بما قد صحّ عن مجاهد أن عمر هو الذى حوّل المقام كما سيأتى.
 الثالث: قال آخرون: كان المقام في عهد النبي صلى الله عليه وآله وبعده لاصقاً بالكعبة حتى حوّل عمر؛ ثم تعرّض لبعض الوجوه التى ربما يستدل بها لكل من الأقوال الثلاثة؛ ثم قال: قد أغنانا الله - وله الحمد - عن هذا الضرب من الاحتجاج بثبوت النقل عمن لا يمكن أن يظن به التوهم - يعنى الدلالة على القول الثالث - ثم استدل لذلك بحديث عائشة وغيرها؛ وذكر أن جملة من السابقين ذهبوا إلى هذا القول وهم أئمة مكّة عطاء ومجاهد وابن عيينة؛ وقال: الإنصاف يقضى بأن قولهم مجتمعين يكفى وحده للحجة فى هذا المطلوب (١).

أقول: ينبغى أن يضم إلى ما ذكره من الأقوال الثلاثة قول رابع لا ينافى ما ذهب إليه وهو الاستفادة من آثار الشيعة والتواريخ ومحضله: أن المقام فى زمن إبراهيم عليه السلام كان بلصق البيت وقد جعله عليه السلام هناك ثم حوّل فى الجاهلية إلى موضعه الفعلى حتى فتح رسول الله صلى الله عليه وآله مكّة، فردّ المقام إلى موضعه الأصلى بلصق الكعبة؛ وكان على هذا بقاء حياة النبي صلى الله عليه وآله وبعده مدة خلافة أبى بكر وشطر من خلافة عمر، حتى حوّل عمر المقام إلى موضعه الجاهلى.
 إذن لا نختلف مع المعلمى فى كون المقام فى آخر حياة النبي صلى الله عليه وآله وبعده إلى زمان عمر كان لصق البيت وأن عمر هو الذى حوّل إلى موضعه الفعلى؛ وإنما نختلف معه فى أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله هو الذى كان باشر وضع المقام بلصق البيت بعدما كان فى الجاهلية منفصلاً - وهذا ما نذهب إليه - أو أن المقام كان فى حياته صلى الله عليه وآله وفى أيام

ص: ١٠٤

الجاهليّة لصق البيت- وهذا ما ذهب إليه المعلّمى.

وسياتى إن شاء الله تعالى ما يدل على ما اخترناه- وهو القول الرابع- وعذر المعلّمى فى اختلافه معنا فى هذه النقطة هو مذهبه؛ حيث لا- يسمح له بالأخذ بما ثبت من روايات أئمة أهل البيت- أولاً- يراجعها على الأقل- كما يأخذ أو يراجع بروايات سائر الناس من الصحابة وغيرهم؛ وهذا هو العمدة فى الاختلاف بين الشيعة وبين سائر المسلمين من أهل السنة، وإن كان هناك بعض الأسباب الأخرى أيضاً؛ ولا ينبئك مثل خبير.

ص: ١٠٥

ومثل المعلمى فى تصريحه بما تقدم فى أمر المقام هو آل الشيخ مفتى الحجاز الشيخ محمد بن إبراهيم؛ قال فى رسالته التى ألفها فى مجال حكم تأخير المقام عن موضعه الفعلى ما نصّه:

«ثبت عن السلف الصالح أن مقام إبراهيم عليه السلام كان فى عهد النبى صلى الله عليه وآله وعهد أبى بكر فى سقع البيت وأن أول من أخره من ذلك الموضع عمر بن الخطاب.

وممن ثبت ذلك عنه من أعيانهم المذكورون فيما يلى: ثم عدّهم: ١- أم المؤمنين عائشة بنت أبى بكر. ٢- عروة بن الزبير. ٣- عطاء وغيره من أصحاب ابن جريج.

٤- مجاهد. ٥- بعض مشايخ مالك، فى المدونة: قال مالك: بلغنى أن عمر بن الخطاب لما ولى وحج ودخل مكة أخر المقام إلى موضعه الذى هو فيه اليوم وكان ملصقاً بالبيت فى عهد النبى صلى الله عليه وآله وعهد أبى بكر وقبل ذلك؛ وكان قدموه فى الجاهلية مخافة أن يذهب به السيل، إلى أن قال: فأخرجه- يعنى عمر- إلى موضعه اليوم فهذا موضعه الذى كان فيه فى الجاهلية وعلى عهد إبراهيم عليه السلام. ٦- سفيان بن عيينة ٧- الواقدي. ٨- مشايخ ابن سعد.

ثم قال: هذه جملة من أعيان السلف الذين صرّحوا بأن المقام كان فى عهد النبى صلى الله عليه وآله فى سقع البيت وأن أول من أخره عمر بن الخطاب.

وقد جزم بما صرّحوا به غير واحد من أئمة المتأخرين، منهم: الحافظ ابن حجر فى فتح البارى؛ والحافظ ابن كثير فى التفسير والبداية والنهاية، والشوكانى فى فتح القدير؛ وقد جمع آل الشيخ بين كلماتهم المتنافية وما استقر عليه رأيهم أخيراً (١).

أقول: وينبغى أن يضم إلى من عدّه من أئمة المتأخرين موسى بن عقبه صاحب المغازى حسبما يأتى من العبارة عنه، فإنه مشعر- إن لم يكن دالاً- بأنه لا يوافق على أن رسول الله صلى الله عليه وآله هو الذى أخر المقام عن الكعبة حيث قال: وكان

١- الجواب المستقيم فى جواز نقل مقام إبراهيم: ٤ وما بعده.

ص: ١٠٦

زعموا أن المقام لاصق في الكعبة فأخّره رسول الله صلى الله عليه وآله في مكانه هذا (١).

يبقى في المقام مبهمه: وهى أنه بحسب نصوص الشيعة كان المقام في عهد إبراهيم ملصقاً بالبيت وكذلك فعله رسول الله صلى الله عليه وآله، ولكن الجاهلية فرقت بين البيت وبين المقام؛ بينما نصوص أهل السنة تضمنت أن المقام في الجاهلية كان ملصقاً بالبيت ولو خوفاً عليه من السيل. وطبع القضية يساعد على ذلك أيضاً لأنه لم يكن في الجاهلية نسك الصلاة عند المقام ليكون وضع المقام ملصقاً بالبيت مزاحماً لنسك الطواف فيكون لهم داع لتأخير المقام عن لصق البيت فكيف الحل؟

والحل أنه يحتمل أن يكون تأخير المقام عن البيت في الجاهلية لداع آخر غير مزاحمة الصلاة للطواف؛ ككون المقام في حد المسجد بعد عدم كون المقام من أجزاء الكعبة؛ وربما كان لهم داع آخر لا نعلم به بعد طول الزمن وتقدم العهد؛ وقد أخبر الثقة الصادق بوقوع الفعل ولا- يهيم بعد ذلك الجهل بالداعى على الفعل. وقد عثرت أخيراً على توجيه لفعل الجاهلية في موثق عمرو بن سعيد- وستأتى الرواية بتمامها- وموضع الشاهد منها قوله: فلما كثر الناس وصاروا إلى الشرّ والبلاء ازدحموا عليه فرأوا أن يضعوه من هذا الموضع الذي هو فيه اليوم ليخلوا المطاف لمن يطوف بالبيت فلما بعث الله عزوجل محمداً صلى الله عليه وآله رده إلى الموضع الذي وضعه فيه إبراهيم...

الحديث.

و كيف كان فإن المستفاد من النصوص والأثر أن المقام في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله كان ملاصقاً بالبيت وأن النبي صلى الله عليه وآله جعله كذلك بعد ما كان أيام الجاهلية في موضعه الفعلى، ولكن عمر غير المقام من موضعه الذى وضعه رسول الله صلى الله عليه وآله فيه و رده إلى موضعه الجاهلى؛ وإليك نص الروايات وفيها المعبرة سنداً، فتكون ساير الروايات على تقدير ضعف السند مؤيدة:

١- ففى موثق زرارة- الذى هو كالصحيح- المروى فى الكافى قال: قلت لأبى

١- شفاء الغرام ١: ٣٠٦.

ص: ١٠٧

جعفر عليه السلام: قد أدركت الحسين عليه السلام؟ قال: نعم أذكر وأنا معه فى المسجد الحرام وقد دخل فيه السيل والناس يقومون على المقام يخرج الخارج يقول: قد ذهب به السيل ويخرج منه الخارج فيقول: هو مكانه؟ قال: فقال لى: يا فلان: ما صنع هؤلاء؟ فقلت: أصلحك الله يخافون أن يكون السيل قد ذهب بالمقام فقال: ناد إن الله تعالى قد جعله علماً لم يكن ليذهب به فاستقرّوا.

وكان موضع المقام الذى وضعه إبراهيم عليه السلام عند جدار البيت؛ فلم يزل هناك حتى حوّلته أهل الجاهلية إلى المكان الذى هو فيه اليوم؛ فلما فتح النبى صلى الله عليه وآله مكة رده إلى الموضع الذى وضعه إبراهيم عليه السلام فلم يزل هناك إلى أن ولى عمر بن الخطاب فسأل الناس؛ من منكم يعرف المكان الذى كان فيه المقام؟ فقال رجل: أنا؛ قد كنت أخذت مقدار بنسج؛ فهو عندي؛ فقال: اتنى به؛ فأتاه به فقاسه ثم رده إلى ذلك المكان (١).

ورواه الصدوق فى الفقيه بإسناده عن زرارة فى الصحيح (٢)، وفيه: والناس يتخوفون على المقام. وفيه: قال: إن الله قد جعله علماً. أقول: قوله: قال: فقال لى: يا فلان، الظاهر أن فاعل القول الأول هو زرارة وفاعل الثانى هو أبو جعفر عليه السلام. فما عن التسترى فى الأخبار الدخيلة أن فى الخبر سقطاً أو تصحيفاً؛ لأن خطاب الإمام ابن ابنه وهو ابن أقل من أربع سنين بيا فلان، وجوابه هو أيضاً بأصلحك الله فى غاية البعد؛ والظاهر أن الأصل فقال لرجل: يا فلان الخ فصحّف فى غير محلّه.

٢- وفى موثق عمرو بن سعيد عن موسى بن قيس ابن أخى عمّار عن مصدّق عن عمّار الساباطى عن أبى عبد الله صلى الله عليه وآله أو عن عمّار عن سليمان بن خالد عن أبى عبد الله، قال: لما أوحى الله عز وجل إلى إبراهيم عليه السلام أن أذن فى الناس بالحج أخذ

١- الكافى ٤: ٢٢٣، كتاب الحج، باب فى قوله تعالى: منه آيات بينات، الحديث ٢.

٢- الفقيه، ٢: ٢٤٣، كتاب الحج، باب ابتداء الكعبة، الحديث ١٣، ٢٣٠٨.

ص: ١٠٨

الحجر الذى فيه أثر قدميه- وهو المقام- فوضعه بحداء البيت لاصقاً بالبيت بحيال الموضع الذى هو فيه اليوم، ثم قام عليه فنادى بأعلى صوته بما أمره الله عز وجل به فلما تكلم بالكلام لم يحتمله الحجر فغرقت رجلاه فيه فقلع إبراهيم عليه السلام رجله من الحجر قلعا. فلما كثر الناس وصاروا إلى الشر والبلاء ازدحموا عليه فأروا أن يضعوه فى هذا الموضع الذى هو فيه اليوم ليخلوا المطاف لمن يطوف بالبيت فلما بعث الله عز وجل محمداً صلى الله عليه وآله رده إلى الموضع الذى وضعه فيه إبراهيم، فما زال فيه حتى قبض رسول الله صلى الله عليه وآله وفى زمن أبى بكر وأول ولاية عمر، ثم قال عمر: قد ازدحم الناس على هذا المقام فأيكم يعرف موضعه فى الجاهلية؟ فقال له رجل: أنا أخذت قدره بقدر، قال: والقدر عندك؟ قال: نعم؛ قال: فأت به؛ فأت به؛ فأمر بالمقام فحمل ورد إلى الموضع الذى هو فيه الساعة (١).

٣- وفى رواية أبى بصير عن الباقر عليه السلام: كان المقام فى موضعه الذى هو فيه اليوم فلما لقي رسول الله صلى الله عليه وآله مكة رأى أن يحوله من موضعه، فحوّله فوضعه ما بين الركن والباب وكان على ذلك حياة رسول الله صلى الله عليه وآله وإمارة أبى بكر وبعض إمارة عمر؛ ثم إن عمر حين كثر المسلمون قال: إنه يشغل الناس عن طوافهم... الحديث وفيه أن الرجل الذى كان عنده قدر موضع المقام هو المطلب بن أبى وداعة السهمى (٢).

وكان موضع المقام الذى وضعه إبراهيم عليه السلام عند جدار البيت

٤- وقريب منه حديث آخر عن أبى القاسم الكوفى فى كتاب الاستغاث، إلّا أن فيه أن الرجل الذى عين موضع المقام فى الجاهلية هو المغيرة بن شعبه. وفيه:

فردّ عمر المقام إلى الموضع الذى كان فى الجاهلية فهو إلى اليوم هناك، وموضعه الذى وضعه رسول الله صلى الله عليه وآله فيه معروف لا يختلفون فى ذلك (٣).

٥- فى زيارة الجامعة لأئمة المؤمنين فى عداد المطاعن والبدع بعد وفاة النبى صلى الله عليه وآله:

وعقت سلمانها وطردت مقدادها ونفت جندبها وفتقت بطن عمّا رها وحرّفت القرآن وبدلت الأحكام وغيرت المقام وأباحت الخمس للطلاق وسلّطت أولاد اللعناء على الفروج والدماء وهدمت الكعبة وأغارت على دار الهجرة يوم الحرّة...

٦- فى بعض الروايات أن المهدي عليه السلام إذا ظهر ردّ المقام إلى موضعه الأصلي؛ فعن أبى بصير قال أبو عبد الله عليه السلام: إذا قام القائم هدم المسجد الحرام حتى يردّه إلى أساسه؛ وحوّل المقام إلى الموضع الذى كان فيه... الحديث (٤).

وقد تقدم عن والد شيخنا المجلسى قدس سره أنه: روى فى أخبار كثيرة أن صاحب الأمر صلوات الله عليه حين يخرج يجعله فى المكان الذى وضعه رسول الله صلى الله عليه وآله وقبله إبراهيم عليه السلام (٥).

وعلى أساس الروايات المتقدمة لا يتعين الموضع الفعلى للمقام؛ ولئن كان هناك موضع يحتمل تعيين كون المقام فيه فهو موضعه على عهد إبراهيم عليه السلام والنبى صلى الله عليه وآله (٦).

ثم إننا لم نعثر فى موضوع ردّ المهدي عليه السلام للمقام إلى موضعه الأصلي على رواية سوى رواية أبى بصير المتقدمة والتي رواها الشيخ المفيد قدس سره فى الإرشاد.

والظاهر أن من عداه روى نفس هذه الرواية؛ فقد رواها الطبرسى فى إعلام الورى، والأربلى فى كشف الغمّة، والنيسابورى فى روضة الواعظين والشيخ الطوسى فى الغيبة (٧).

- ٢- المصدر نفسه، الحديث ١٥.
- ٣- المصدر نفسه، الحديث ١٦.
- ٤- إرشاد المفيد ٢: ٣٨٣ عنه البحار ٥٢: ٣٣٨ ح ٨٨٠.
- ٥- روضة المتقين ٤: ١٣٣، كتاب الحج، فضل الكعبة والحرم.
- ٦- مفاتيح الجنان: ١٠٦٦ عن مصباح الزائر للسيد ابن طاووس.
- ٧- البحار ٥٢: ٣٣٩، الحديث ٨٤؛ وإعلام الورى: ٤٦١، الفصل الثالث. وكشف الغمّة ٢: ٤٦٥، باب ذكر علامات قيام القائم، روضة الواعظين ٢: ٢٦٥، والغيبة للطوسى: ٤٧٢ والبحار، ٥٢: ٣٣٢ الحديث ٥٧. أعلام.

ص: ١١٠

ولكن سمعت ما حكيناه عن والد العلّامة المجلسي قدس سره من كثرة الأخبار بذلك؛ ومن البعيد أن يكون عنده أخبار لم تصل إلينا فلا يبعد أن يكون مراده قدس سره من كثرة الأخبار هو الروايات المطلقة في شأن القائم عليه السلام إذا ظهر من أنه يبطل البدع ويردّ الأشياء إلى السنن.

ففي رواية الشيخ في الغيبة بإسناده عن أبي هاشم الجعفرى قال: كنت عند أبي محمد عليه السلام فقال: إذا قام القائم أمر بهدم المنابر (١) والمقاصير التي في المسجد، فقلت في نفسي: لأى معنى هذا؟ فأقبل علىّ فقال: معنى هذا أنها محدثة مبتدعة لم بينها نبي ولا حجة.

وفي رواية الإرشاد قال: روى أبوبصير عن أبي جعفر عليه السلام في حديث طويل أنه قال: إذا قام القائم ... إلى أن قال: لا يترك بدعة إلّا أزالها ولا سنة إلّا أقامها... الحديث.

٧- ومن الروايات المصرحة بكون موضع المقام في عهد رسول الله مختلفاً عما صار إليه بعده، صحيح إبراهيم بن أبي محمود قال: قلت للرضا عليه السلام: أصلى ركعتي طواف الفريضة خلف المقام حيث هو الساعة أو حيث كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله؟

قال: حيث هو الساعة (٢).

٨- ورواية محمد بن مسلم قال: سألته عن حدّ الطواف الذي خرج منه لم يكن طائفاً بالبيت؟ قال عليه السلام: كان الناس على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله يطوفون بالبيت والمقام وأنتم اليوم تطوفون ما بين المقام والبيت... الحديث (٣).

٩- وصحيح الحسن بن على عن جعفر بن محمد عن عبد الله بن بهلول عن

١- في بعض النصوص المنائر بالهمزة بدل الباء الموحدة.

٢- الوسائل ٩: ٤٧٨، أبواب الطواف الباب ٧١، الحديث ١.

٣- المصدر نفسه، الباب ٢٨، الحديث ١.

ص: ١١١

جعفر عن أبيه عليه السلام قال: كان المقام لازقاً بالبيت فحوّله عمر (١).

١٠- وما روى من مسائل داود الصرمى عن الإمام الرضا عليه السلام قال: وسألته عن الصلاة بمكة فى أىّ موضع أفضل؟ فقال: عند مقام إبراهيم الأول؛ فإنه مقام إبراهيم وإسماعيل ومحمد صلى الله عليه وآله (٢).

١١- وصحيح حماد بن عيسى عن إبراهيم بن عثمان- والظاهر أنه أبو أيوب الخزاز- عن سليم بن قيس الهلالي قال: خطب أمير المؤمنين عليه السلام وقال:... قد عملت الولاية قبلى أعمالاً خالفوا فيها رسول الله صلى الله عليه وآله متعمدين لخلافه، ناقضين لعهد، مغيرين لسنته؛ ولو حملت الناس على تركها وحوّلتها إلى مواضعها وإلى ما كانت فى عهد رسول الله صلى الله عليه وآله لتفرّق عني جندى حتى أبقى وحدى أو قليل من شيعتى الذين عرفوا فضلى وفرض إمامتى فى كتاب الله عز وجل وسنة رسول الله صلى الله عليه وآله؛ لو أريتم لو أمرت بمقام إبراهيم عليه السلام فرددته إلى الموضع الذى وضعه فيه رسول الله صلى الله عليه وآله... إذن لتفرقوا عني. الحديث (٣).

لكن يبقى أنه إذا ردّ المقام إلى جنب البيت وكان هو موضع صلاة الطواف استلزم مزاحمة الطائفين. ولكن يردّه أن الطواف إذا أمكن بين البيت وموضع المقام فعلاً فهو وإلا فمع الزحام- ولو بسبب المصلين للطواف أو غيرهم- لا ينبغي الريب فى عدم اشتراط الحدّ- على تقدير اشتراطه اختياريّاً- بل يجوز الطواف خارج الحدّ حسبما صرح به فى معتبرة الحلبي. فيكون حال المقام والمصلين عند الزحام حال الحجر وكذا حال

١- تهذيب الأحكام ٥: ٤٥٤ ح ١٥٨٦ وعنه الوافى ١٢: ٦٤، ح ١١٥١١.

٢- الوسائل ٣: ٥٤٠ كتاب الصلاة الباب ٥٣ من أحكام المساجد، الحديث ٨.

٣- الكافي ٨: ٥٨، الحديث ٢١، عنه البحار ٣٤: ١٧٢ الحديث ٩٧٨.

ص: ١١٢

الحجر الأسود.

والقياس فى مذهب العامة كان يقتضى قلع الحجر الأسود من موضعه وبنائه فى موضع آخر كما حوّل عمر المقام. ثم إنّه بالغض عن أن الاعتبار يساعد على كون المقام بمعنى الصخرة ملاصقاً للبيت وأنه موضعه الأصلي حيث كانت البيوت مبنية حول الكعبة ولم يكن المسجد على وضعه الفعلى ولا- كان للمسجد حائط وجدار بل كانت الكعبة محاطة ببيوت الناس ودورهم، هناك شواهد تاريخية مضافاً إلى نصوص من طرق أهل السنّة تدلّ على كون المقام فى عصر النبى صلى الله عليه وآله ملاصقاً للبيت، بالغض عن ما تقدم فى عدّة من روايات الشيعة وفيها المعتبرة كمعتبرة زرارة وغيره.

١- منها: ما رواه فى شفاء الغرام قال: ونقل المحبّ الطبرى فى القرى عن مالك فى المدوّنة أنه قال: كان المقام فى عهد إبراهيم عليه السلام فى مكانه اليوم وكان أهل الجاهلية ألصقوه بالبيت خيفة السيل، فكان كذلك فى عهد النبى صلى الله عليه وآله وعهد أبى بكر فلما ولى عمر ردّه بعد أن قاس موضعه بخيوط قديمة قيس بها حين أخروه (١).

أقول: نحن وإن لم نرتض أن المقام فى عهد الخليل عليه السلام كان فى موضعه الفعلى؛ لما ثبت فى النصوص أن موضعه فى عهد الخليل كان لصق البيت، ولم نرتض أن موضعه فى الجاهلية كان لصق البيت- لما ثبت فى النصوص أن موضعه الجاهلى هو موضعه الفعلى،

ولكن هذا النص من المدونة يوافق ما اخترناه من أن المقام فى حياة النبى صلى الله عليه وآله إلى وفاته وبعده إلى زمان خلافة عمر كان لصق البيت، وإنما حوّله عمر خلافاً لما كان المقام عليه فى عهد النبى صلى الله عليه وآله.

غاية الأمر أنا نقول: إن كون المقام فى عهد النبى صلى الله عليه وآله بلصق البيت كان بفعله صلى الله عليه وآله

١- شفاء الغرام ١: ٣٩٢ عن القرى: ٣٤٥ ونقله عن المدونة صاحب التهذيب مختصر المدونة، وهو البراذعى فيما حكى.

ص: ١١٣

خلافًا لما كان عليه فى الجاهلية، وهذا الأثر يتضمن أن كون المقام فى عهده صلى الله عليه وآله بلبق الكعبة كان استمراراً لما كان عليه فى الجاهلية.

٢- وقال المحب فيما حكى عنه: قال الفقيه سند بن عنان المالكي فى كتابه المترجم به «الطراز» وهو شرح للمدونة: وروى أشهب عن مالك قال: سمعت من يقول من أهل العلم، إن إبراهيم عليه السلام أقام هذا المقام وقد كان ملصقاً بالبيت فى عهد النبى صلى الله عليه وآله وأبى بكر وقبل ذلك، وإنما الصق إليه لمكان السيل مخافة أن يذهب به، فلما ولى عمر أخرج خيوطاً كانت فى خزانة الكعبة وقد كانوا قاسوا بها ما بين موضعه وبين البيت فى الجاهلية، إذ قدّموه مخافة السيل فقاسه عمر وأخره إلى موضعه إلى اليوم (١).

٣- ومنها: ما رواه فى شفاء الغرام عن أبى عروبة أنه قال: حدثنا سلمة قال:

حدثنا عبد الرزاق قال: أنبأنا معمر عن حميد الأعرج عن مجاهد قال: كان المقام إلى جنب البيت وكانوا يخافون عليه من السيول وكان الناس يصلون خلفه...

انتهى باختصار لقصه ردّ عمر للمقام إلى موضعه الآن وما كان بينه وبين المطلب بن أبى وداعة السهمى فى موضعه الذى حرّره المطلب (٢).

١- القرى: ٣٠٩.

٢- المصدر نفسه: ٣٩٢ وما بعد.

ص: ١١٤

- ٤- وفى شفاء الغرام: قال أبو عروبة أيضاً: حدثنا سلمة قال حدثنا عبد الرزاق قال أنبأنا ابن جريج: قال: سمعت عطاء وغيره من أصحابنا يزعمون أن عمر أول من رفع المقام فوضعه فى موضعه الآن وإنما كان فى قبل الكعبة (١).
- ٥- وفيه: روى الفاكهى بسنده إلى عبد الله بن سلام خبراً فيه أذان إبراهيم على المقام للناس بالحج، وفيه: فلما فرغ أمر بالمقام فوضعه قبلته فكان يصلّى إليه مستقبل الباب (٢).
- ٦- وفيه عن الفاكهى: أن النبى صلى الله عليه و آله قدم مكة من المدينة فكان يصلّى إلى المقام، وهو ملصق بالكعبة حتى توفى رسول الله صلى الله عليه و آله (٣).
- ٧- وفيه: قال الفاكهى: حدثنا الزبير بن أبى بكر قال: حدثنا يحيى بن محمد بن ثوبان عن سليم عن ابن جريج عن عثمان بن أبى سليمان عن سعيد بن جبير أنه قال: كان المقام فى وجه الكعبة وإنما قام إبراهيم عليه حين ارتفع البنيان فأراد أن يشرف على البناء قال: فلما كثر الناس خشى عمر بن الخطاب أن يطؤوه بأقدامهم فأخرجه إلى موضعه الذى هو به اليوم حذاء موضعه الذى كان قدام الكعبة (٤).
- ٨- وفيه: قال الفاكهى: حدثنا يعقوب بن حميد بن كاسب قال: حدثنا عبد العزيز بن محمد عن هشام بن عروة عن أبىه قال عبد العزيز: أراه عن عائشة: أن المقام كان فى زمن النبى صلى الله عليه و آله إلى سقع البيت (٥).
- ٩- وفيه: قال الفاكهى: وقال بعض المكين: كان بين المقام وبين الكعبة ممراً

١- المصدر نفسه: ٣٩٣.

٢- المصدر نفسه.

٣- المصدر نفسه.

٤- المصدر نفسه.

٥- المصدر نفسه، وسقع البيت: ناحيته.

ص: ١١٥

العنز (١).

١٠- وفيه: ذكر ابن جبير فى أخبار رحلته ما يقتضى أن الحفرة المرخمة التى فى وجه الكعبة علامة موضع المقام فى عهد الخليل عليه السلام.

١١- وروى عن الفاكهى والأزرقى عن نوفل بن معاوية الديلى قال: رأيت المقام فى عهد عبد المطلب ملتصقاً بالبيت مثل المهاء. سئل أبو الوليد الأزرقى عن المهاء؛ قال: خرزة بيضاء (٢).

١٢- وروى ابن حجر فى الفتح فى روايات بناء البيت:

وزاد فى حديث عثمان: ونزل عليه الركن والمقام؛ فكان إبراهيم يقوم على المقام بينى عليه؛ ويرفعه له إسماعيل؛ فلما بلغ الموضع الذى فيه الركن وضعه يومئذ موضعه؛ وأخذ المقام فجعله لاصقاً بالبيت (٣).

ومع الشواهد المتقدمة التى نقلها الفاسى فى شفاء الغرام يكون تحييزه إلى تصويب فعل عمر وأن موضع المقام الفعلى مطابق لزمان النبى صلى الله عليه وآله أو لزمان إبراهيم عليه السلام واضح.

قال فى شفاء الغرام بعد حكاية عبارة ابن جبير الأخيرة راداً عليه: وفى هذا نظر؛ لأن موضع المقام الآن هو موضعه فى عهد الخليل عليه السلام، من غير خلاف علم فى ذلك.

وأما الخلاف فى موضع اليوم هل هو موضعه فى زمن النبى صلى الله عليه وآله كما ذكر ابن أبى مليكة، أو لا كما قال مالك والله أعلم (٤).

وقال: روينا عن الأزرقى قال: حدثنى جدى قال: حدثنا عبد الجبار بن الورد قال: سمعت ابن أبى مليكة يقول: موضع المقام هو هذا الذى هو به اليوم وهو

١- المصدر نفسه.

٢- كتاب فضل الحجر والمقام لسائد بكداش: ١٣٢ عن الفاكهى ١: ٤٤٢ والأزرقى ٢: ٣٠.

٣- فتح البارى ٦: ٤٠٦، باب يزفون النسلان فى المشى.

٤- شفاء الغرام ١: ٣٩٧.

ص: ١١٦

موضعه فى الجاهلية وفى عهد النبى صلى الله عليه وآله وأبى بكر وعمر، إلّا أن السيل ذهب به فى خلافة عمر فجعل فى وجه الكعبة حتى قدم عمر فردّه بمحضر من الناس.

وذكر الأزرقى ما يوافق قول ابن أبى مليكة فى موضع المقام عن عمرو بن دينار وسفيان بن عيينة.

وروى الفاكهى عن عمرو بن دينار وسفيان بن عيينة مثل ما حكاه عنهما الأزرقى بالمعنى (١).

أقول: ما ذكره الفاسى من عدم الخلاف فى كون موضع المقام فعلاً هو موضعه فى عهد الخليل عليه السلام ينافى ما ذهب إليه جملة من أهل السنة والشيعه إلى خلاف ذلك.

١٣- ومن النصوص المصرحة بأن عمر هو الذى نقل المقام من موقعه الأصلي، ما رواه عبدالرزاق عن ابن جريج، حدثنى عطاء وغيره من أصحابنا قالوا: إن عمر أوّل من رفع المقام فوضعه موضعه الآن وإنما كان فى قبل الكعبة (٢). وقد صحح ابن حجر هذه الرواية كما نقلناه ضمن كلامه.

١٤- ومن جملة النصوص رواية عبدالرزاق الأخرى عن مجاهد قال: أوّل من أّخر المقام إلى وضعه الآن عمر بن الخطاب (٣). وقد صححها أيضاً ابن حجر كما نقلناه فى كلامه.

١٥- ومن جملة النصوص رواية عبدالرزاق عن معمر بن حميد عن مجاهد:

كان المقام إلى جنب البيت وكانوا يخافون عليه غلبة السيول وكانوا يطوفون خلفه فقال عمر للمطلب بن أبى وداعة السهمى: هل تدري أين كان موضعه الأوّل؟

قال: نعم قدّرت ما بينه وبين الحجر الأسود وما بينه وبين الباب وما بينه وبين زمزم وما بينه وبين الركن عند الحجر، قال: فأين مقداره؟ قال: عندى؛ قال: تأتى بمقداره فجاء بمقداره فوضعه موضعه الآن (٤).

١- شفاء الغرام ١: ٣٩١.

٢- المصنف ٥: ٤٨.

٣- المصدر نفسه.

٤- المصنف ٥: ٤٧، باب المقام وفى تعليقه: أخرجه الأزرقى.

ص: ١١٧

١٦- ومن جملة النصوص رواية البيهقى عن عائشة: إن المقام كان زمان رسول الله صلى الله عليه وآله وزمان أبى بكر ملتصقاً بالبيت، ثم أخره عمر بن الخطاب (١).

وصححه البيهقى وكذلك ابن الحجر قال: إن سنده قوى كما حكيناها. وعن ابن كثير روايته لها فى تفسيره بسند البيهقى ورجاله ثقات وقال: هذا إسناد صحيح؛ وقد تقدّم الحديث عن شفاء الغرام بسنده عن عائشة.

١٧- ومن جملة النصوص رواية ابن أبى حاتم- وقد حكينا الإشارة إليها فى كلام ابن حجر وقد صححها- عن سفيان بن عيينة إمام المكيين فى زمانه قال: كان المقام من سقع البيت على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله فحوّله عمر إلى مكانه بعد النبى صلى الله عليه وآله وبعد قوله تعالى: «واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى».

قال: ذهب به السيل بعد تحويل عمر إياه من موضعه هذا فردّه عمر إليه.

وقال سفيان: لا أدرى كم بينه وبين البيت قبل تحويله؟ وقال سفيان: لا أدرى أكان لاصقاً بها أم لا (٢)؟

١٨- ومن جملة النصوص ما رواه عبدالرزاق عن معمر عن هشام بن عروة عن أبيه: إن رسول الله صلى الله عليه وآله وأبى بكر وعمر- بعض خلافته- كانوا يصلّون صقع البيت حتى صلى عمر خلف المقام (٣).

١٩- وفى رواية أخرى لعبدالرزاق عن ابن جريج عن محمد بن عباد بن جعفر وعمرو بن عبدالله بن صفوان وغيرهما: أن عمر أمر عبد الله بن السائب أن يجعل المقام فى موضعه الآن (٤).

١- السنن الكبرى ٥: ٧٥ نقله بكداش.

٢- كتاب فضل الحجر الأسود ومقام إبراهيم: تأليف سائد بكداش؛ حكاها عن ابن كثير فى تفسيره فى قوله تعالى: واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى البقرة: ١٢٥.

٣- المصنف ٥: ٤٨، باب المقام الحديث ٨٩٥٤.

٤- المصدر نفسه، الحديث ٨٩٥٦.

ص: ١١٨

٢٠- وفى رواية رواها ابن كثير عن ابن مردويه أنه روى من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس فى قوله تعالى: «إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها» (١)، إن رسول الله صلى الله عليه وآله لما فتح مكة وأخذ من عثمان بن أبى طلحة مفتاح الكعبة وفتح بابها وغمس بالماء التماثيل التى كانت فيها، أخرج مقام إبراهيم وكان فى الكعبة فألزقه فى حائط الكعبة ثم قال: يا أيها الناس هذه القبلة (٢).

وكيف كان: فهذه الروايات والآثار المروية فى كتب السنّة تدلّ على:

أولاً: أن المقام كان فى عهد الخليل إبراهيم عليه السلام بلبصق الكعبة؛

وهذا موافق لروايات الشيعة.

ثانياً: أن المقام فى عهد النبى صلى الله عليه وآله إلى وفاته وبعده مدة خلافة أبى بكر وشطر من خلافة عمر كان بلبصق الكعبة، وأن

عمر هو الذى حوّل المقام إلى موضعه الفعلى؛

وهذا أيضاً موافق لروايات الشيعة.

وهناك نقطة ثالثة تختلف فيها روايات الشيعة مع روايات أهل السنّة وهى: إن المقام فى العهد الجاهلى كان فى موضعه الفعلى وأن

النبى صلى الله عليه وآله هو الذى ردّ المقام إلى جنب البيت ولصقه حتى كان فعل عمر مخالفاً لفعل رسول الله صلى الله عليه وآله وهذا ما تضمنته روايات الشيعة.

وهذا ما تضمنته روايات الشيعة.

أو أن المقام فى العهد الجاهلى أيضاً كان فى موضعه الأصيل الملائق للبيت واستمر الأمر عليه إلى نهاية حياة النبى صلى الله عليه وآله و

آله وبعده إلى زمان خلافة عمر حتى كان عمر هو الذى حوّل المقام إلى موضعه الفعلى فكان فعل عمر مخالفاً لما كان المقام عليه

فى حياة رسول الله لا مخالفة لفعل رسول الله صلى الله عليه وآله، وهذا ما تضمنته روايات أهل السنّة.

وفى رسالة للمعلمى عثرت عليها بعد تصنيف الرسالة استدلل فيها لكون الموضع الفعلى للمقام مغايراً لموضعه فى عهد النبى صلى الله

عليه وآله بوجوه من النقل تقدم منا

١- النساء.

٢- نقلها عن تفسير ابن كثير ملخصة فى التاريخ القويم للكردى ٣: ٣١٤.

ص: ١١٩

بعض ذلك؛ ومن جملة ما استدل به هو حديثان رواهما البخارى فى شأن صلاة النبى صلى الله عليه و آله لطوافه بعد ما فرغ منه: أحدهما حديث ابن عمر وفيه: ثم خرج فصلّى فى وجه الكعبة ركعتين (١).

وثانيهما: حديث ابن عباس وفيه: فلما خرج ركع ركعتين فى قبل الكعبة وقال: هذه القبلة (٢).

قال: والمراد بوجه الكعبة فى الأخبار- كما يقضى به سياقها- تارة: جدارها المقابل لموضع المقام الآن؛ وتارة: ما بجانب هذا الجدار من المطاف- يعنى جنب الجدار-.

إنّ المقام كان فى العهد الجاهلى فى موضعه الفعلى وردّه النبى إلى جنب البيت

والأخبار التى أطلقت على هذا تبين أنه ليس منه موضع المقام الآن؛ بل هو الموضع الذى كان فيه المقام قبل أن يحوّل عمر إلى موضعه الآن.

ولفظ قبل الكعبة فى حديث ابن عباس هو أيضاً ذاك الموضع.

وابن عباس إنما سمع هذا الحديث من أسامة كما بينه ابن حجر فى الفتح، والراوى عن ابن عباس عطاء، كما أن عطاء يروى الخبر عن أسامة أيضاً بلا واسطة، وكان ابن عمر لما لم يتحقق له أن النبى صلى الله عليه و آله إلى المقام صلى أم عن يمينه أو عن يساره اقتصر على قوله: فى وجه الكعبة.

وأما الوجه فى تعبير حديث أسامة ب «قبل الكعبة» فيظهر أن ذلك مراعاة لقوله عقب ذلك: هذه القبلة. لئلا يتوهم أن الإشارة إلى المقام نفسه مع قوله تعالى: «واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى» فعدل إلى التعبير بقبل الكعبة؛ ليعلم أن الإشارة إلى الكعبة أو إلى ذلك الموضع منها.

١- صحيح البخارى، أبواب القبلة، باب قوله تعالى: «واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى». فتح البارى ١: ٤٩٩.

٢- صحيح البخارى، أبواب القبلة، باب قوله تعالى: «واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى». فتح البارى ١: ٤٩٩.

ص: ١٢٠

ثم إن المعلّمى فى رسالته ذكر أنه يمكن الاستدلال لهذا القول- أعنى كون المقام فى عهد النبى صلى الله عليه وآله بلصق البيت وأن عمر هو الذى حوّله إلى موضعه الفعلى- بأن ذهاب أئمة مكّة عطاء ومجاهد وابن عيينة مجتمعين يكفى وحده للحجّة فى هذا المطلب. أقول: وقد أجاد فيما أفاده من التذليل والحجّة.

بقى الكلام فيما قد يعارض ما اخترناه وربما يستدل به على خلاف ما قويناه.

وهو أمور:

الأول: إنه قد ورد فى بعض الكلمات من أهل السنّة أن فى بعض الروايات أن النبى صلى الله عليه وآله بعد ما فرغ من الطواف جعل المقام بينه وبين البيت حين أراد الصلاة؛ قال:

وفى هذه دلالة على أن موضع المقام حينذاك كان موضعه الفعلى؛ فإنه لا يصح أن يقال ذلك القول إلّا إذا أمكن الصلاة متقدماً على المقام وإلّا فلو كان المقام ملصقاً بالبيت كان جعل المقام بين البيت وبين المصلّى متعيّناً لا يمكن غيره؛ فيدل هذا التعبير على عدم كون المقام ملصقاً بالبيت وأنه كان بحيث يمكن التقدم عليه؛ ولازمه أن موضعه آنذاك كان هو الموضع الفعلى.

ويردّه- على تقدير صحّة السند- أوّلًا: احتمال أن يكون ذلك قبل ردّه المقام إلى موضعه الأصلي؛ حيث كان المقام فى العهد الجاهلى فى موضعه الحالى حسب النصوص المشار إليها.

وثانيًا: ما ذكره المعلّمى فى رسالته التى عثرنا عليها أخيراً قال: فى صحيح مسلم عن جابر فى حجّة الوداع بعد ذكر الطواف: ثم نفذ إلى مقام إبراهيم... فجعل المقام بينه وبين القبلة (١). هكذا فى عدة نسخ من الصحيح وكتب اخرى.

وذكره الطبرى فى القرى بلفظ: ثم تقدّم (٢)؛ وكذا نقله الفاسى (٣).

١- صحيح مسلم: ذكره برقم ١٢١٨.

٢- القرى: ٣١٠.

٣- شفاء الغرام، ١: ٢١٧-٢٢٣.

ص: ١٢١

وزعم الطبرى: أنه يشعر بأن المقام لم يكن حينئذ ملصقاً بالكعبة.

وأورد عليه بأن كلمة تقدم- إن صحّت- دلالتها على الملاصقة أقرب؛ لأنه صلى الله عليه وآله أنهى الطواف عند الركن فإذا واصل مشيه بعد ذلك إلى يمنة الباب- حيث المقام- فهذا تقدم. ولو كان المقام فى موضعه الآن لكان المشى إليه مشياً عن الكعبة وحقه أن يقال: تأخر. وأما قوله: فجعل المقام بينه وبين الكعبة، فلا يخفى أن المصلى إلى المقام إذا كان بلصق الكعبة إمّا أن يكون عن يمينه أو يساره أو خلفه فإذا كان خلفه فقد جعله بينه وبين الكعبة.

الثانى: رواية رواها الأزرقى عن ابن أبى مليكة قال: موضع المقام هذا الذى هو به اليوم هو موضعه فى الجاهلية وفى عهد النبى صلى الله عليه وآله وأبى بكر وعمر؛ إلّا أن السيل ذهب به فى خلافة عمر فجعل فى وجه الكعبة حتى قدم عمر فردّه بمحضر من الناس (١). أقول: يرد عليه: أولها: إن هذه الرواية مع شذوذها معارضة بالروايات الكثيرة المتقدمة، والتى لا- يبعد دعوى تواترها؛ ولا ريب أن الترجيح لتلك الروايات.

وثانياً: ما ذكره المعلّمى فيما عثرنا عليه أخيراً من أن الأزرقى لم يوثقه أحد من أئمة الجرح والتعديل ولم يذكره البخارى وابن أبى حاتم؛ بل قال الفاسى فى ترجمته فى العقد الثمين: لم أر من ترجمه وقد تفرد بهذه الحكاية. وثالثاً: ما ذكره المعلّمى أيضاً قال: ويرببى من الأزرقى حسن سياقه للحكايات وإشباعه القول فيها؛ ومثل ذلك قليل فيما يصح عن الصحابة والتابعين؛ وقد قيل لشعبة: ما لك لا تحدث عن عبد الملك ابن أبى سليمان- وقد كان حسن

ص: ١٢٢

الحديث-؟ قال: من حسنهما فررت.

قال المعلمى: ويرينى أيضاً من الأزرقى تحمسه لهذا القول؛ حتى أنه تصرف فى النصوص بإسقاط ما ينافى مقالته، وغيره؛ فقد روى عن ابن أبى عمر بسند واه إلى أبى سعيد الخدرى عن النبى صلى الله عليه وآله أنه صلى إلى الميزاب وهو بالمدينة، ثم قدم مكة فكان يصلى إلى المقام ما كان بمكة.

وقد روى الفاكهى هذا الخبر كما ذكره الفاسى فى شفاء الغرام وفيه: أن النبى صلى الله عليه وآله قدم مكة من المدينة فكان يصلى إلى المقام وهو ملصق بالبيت أو بالكعبة حتى توفى رسول الله صلى الله عليه وآله؛

فأسقط الأزرقى فى روايته قوله: وهو ملصق بالبيت حتى توفى رسول الله صلى الله عليه وآله، وجعل موضعها: ما كان بمكة.

وروى الأزرقى روايه عن عبدالله بن سائب: فكنت أول من صلى خلف المقام حين حوّل إلى موضعه.

ولم ترق للأزرقى كلمة «حوّل» فعقبه بروايه اخرى عن عبدالله بن سائب وفيها: أنا أول من صلى خلف المقام حين ردّ فى موضعه هذا. ورابعاً: ما ذكره آل الشيخ فى شأن بعض وسائط الروايه من أنه غير ضابط؛ حكاها عن البخارى وأنه لذا عدّه العقيلي فى الضعفاء وذكر أن ابن حجر أيضاً قلد فيه.

وخامساً: ما ذكره أيضاً من أن ابن أبى مليكة- على فرض ثبوته عنه- لم يأخذه عن الصحابة فيما يرى المحب الطبرى صاحب (القرى)، وإنما فهمه من سياق روايه كثير عن أبيه فى قصه احتمال سيل أم نهشل المقام؛- وهو الحديث الثالث فيما ذكرناه هنا- ومعه

فلا مجال للأخذ به بعد تصريح عائشه بأن المقام كان ملصقاً بالبيت فى عهد النبى وبعده إلى زمان عمر وأن عمر هو الذى أخره.

وسادساً: ما ذكره أيضاً من أن فهم ابن أبى مليكة نشأ من سؤال عمر أين موضعه؟- فى الروايه الثالثه- ولكن يحتمل أن يكون ذلك إشارة إلى موضعه قبل

ص: ١٢٣

احتمال السيل له، وأما أن موضعه قبل احتمال سيل أم نهشل هو موضعه فى عهد رسول الله صلى الله عليه وآله أو أن عمر كان حوله قبل السيل فسأل عن ذلك الموضع فكل محتمل.

ويدل على الثانى رواية صحيحة لابن عيينة صرح فيها بذلك، بعد التصريح بأن المقام كان فى سقع البيت على عهد النبى صلى الله عليه وآله (١).

الثالث: رواية اخرى للأزرقى بسنده عن المطلب بن أبى وداعة السهمى قال: كانت السيول تدخل المسجد الحرام... وربما دفعت المقام من موضعه وربما نحتته إلى وجه الكعبة حتى جاء سيل فى خلافه عمر يقال له: سيل أم نهشل...

فاحتمل المقام من موضعه، فذهب به حتى وُجد فى أسفل مكة، فأتى به فربط إلى أستار الكعبة فى وجهها؛ وكتب فى ذلك إلى عمر، فأقبل عمر فزعا فدخل بعمره فى شهر رمضان وقد غمى موضعه، وعفاه السيل فدعا عمر بالناس فقال: أنشد الله عبداً عنده علم فى هذا المقام؛ فقال المطلب بن أبى وداعة السهمى: أنا يا أمير المؤمنين عندى ذلك؛ فقد كنت أخشى عليه فأخذت قدره من موضعه إلى الركن ومن موضعه إلى باب الحجر ومن موضعه إلى زمزم بمقاط، وهو عندى فى البيت؛ فقال له عمر: فاجلس عندى وأرسل إليها، فأتى بها فمدّها فوجدها مستوية إلى موضعه هذا؛ فسأل الناس وشاورهم فقالوا: نعم هذا موضعه؛ فلما استثبت ذلك عمر وحق عنده، أمر به فأعلم ببناء ربضه تحت المقام، ثم حوله فهو فى مكانه هذا إلى اليوم (٢).

ويرد عليه أولاً: ما تقدم فى الخبر السابق من احتمال كون المراد بالموضع المذكور فى هذا الخبر الموضع الذى وضعه فيه عمر أول مرة فسأل عنه ليضعه فيه مرة أخرى؛ فقد روى ابن أبى حاتم بسند صحيح - عند أهل السنّة - عن سفیان بن عيينة أنه قال: كان المقام فى سقع البيت على عهد النبى صلى الله عليه وآله فحوّله عمر إلى مكانه

١- الجواب المستقيم: ٢٦.

٢- نفس المصدر.

ص: ١٢٤

بعد النبى صلى الله عليه وآله وبعد قوله تعالى: «واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى» الآية. قال:

ذهب السيل به بعد تحويل عمر إياه من موضعه هذا فردّه عمر إليه (١).

فيظهر من هذا أن جعل المقام فى الموضع الفعلى صدر من عمر مرتين: إحداهما قبل ذهاب السيل وذلك بنقله من لصق البيت إلى

هذا الموضع، واخرى: بعد ما ذهب به السيل وأخذه من موضعه الفعلى.

ثانياً: يرد عليه مثل ما تقدم الإيراد به فى الأمر الثانى.

وثالثاً: جهالة بعض وسائط الخبر مثل كثير بن المطلب كما قيل، وقيل أيضاً باشتغال الخبر على الإرسال.

الرابع: رواية اخرى للأزرقى بسنده عن حبيب بن أبى الأشرس قال: كان سيل أم نهشل قبل أن يعمل عمر الردم بأعلى مكّة، فاحتمل

المقام من مكانه فلم يدر أين موضعه؟! فلما قدم عمر سأل من يعلم موضعه؟ فقال المطلب بن أبى وداعة: أنا يا أمير المؤمنين! قد

قدرته بمقاط- وتخوفت عليه هذا- من الحجر إليه من وجه الكعبة إليه؛ فقال: ائت به، فجاء به ووضع فى موضعه هذا، وعمل عمر

الردم عند ذلك.

قال سفيان: فذلك الذى حدثنا هشام بن عروة عن أبيه: أن المقام كان عند سقع البيت؛ فأما موضعه الذى هو موضعه، فموضعه الآن.

وأما ما يقوله الناس: إنه كان هنالك موضعه فلا.

قال سفيان: وقد ذكر عمرو بن دينار نحواً من حديث ابن الأشرس هذا، لا اميز أحدهما من صاحبه (٢).

ويرد عليه مضافاً إلى ما تقدم فى الأمر الثانى؛

وأيضاً ما تقدم من احتمال كون المراد ردّه إلى الموضع الذى كان عمر قبل

١- الجواب المستقيم: ٣١.

٢- نفس المصدر.

ص: ١٢٥

حوّله إليه أوّلًا على ما يستفاد من رواية سفيان، فراجع ما ذكرناه في الجواب عن الحديث السابق.

مضافاً إلى ذلك كلّ ما قيل من أن ابن أبي الأشرس لا يحتج بروايته وأنه متروك منكر الحديث جدّاً، وأنه ليس بشيء وليس بثقة (١).

الخامس: رواية ذكرها ابن كثير أن ابن مردويه روى بسنده عن مجاهد: كان المقام عند البيت فحوّله رسول الله صلى الله عليه وآله إلى هذا (٢). قال مجاهد: وكان عمر يرى الرأى فينزل به القرآن.

ويرد عليه: أوّلًا: معارضته بروايات متواترة دلت على خلافها كما تقدم.

وثانيًا: إنها ضعيفة باعتراف أهل السنّة؛ فقد أشار ابن كثير إلى ضعفها وضعفها ابن حجر في الفتح (٣)، وأشار إلى ضعف بعض وسائطه المعلمي (٤).

وثالثًا: إنه روى عن مجاهد- راوى هذا الخبر- أن عمر هو الذي حوّل المقام، وهو الذي رواه عبد الرزاق في المصنف. قال آل الشيخ: هذا أصح من طريق ابن مردويه.

السادس: عن شفاء الغرام للفاسي أنه ذكر موسى ابن عقبة في مغازيه: وكان زعموا أن المقام لاصق في الكعبة فأخّره رسول الله صلى الله عليه وآله في مكانه هذا (٥).

١- راجع التاريخ الصغير للبخارى والضعفاء والمتروكين للنسائي والضعفاء للعقيلي والجرح والتعديل لابن أبي حاتم والمجروحين لابن حبان ولسان الميزان لابن حجر وغيرها. وما ذكره الأزرقى في ذيل الخبر عن سفيان عن هشام عن أبيه، فمع ارتبائه في نفسه حيث ذكر أن المقام كان عند سقع البيت وظاهره أنه موضعه الأصلي ثم ذكر أنه موضعه الآن؛ فمعارض برواية عبد الرزاق في المصنف كما سبق بسند صحيح عن هشام عن أبيه بخلافه. وكذا رواية ابن أبي حاتم المتقدمة بسنده عن هشام عن أبيه. بل لا يعدل وثاقه الأزرقى وثاقه عبد الرزاق وابن أبي حاتم عند أهل السنّة.

٢- تفسير ابن كثير ١٢: ٣١٥ عنه المعلمي في رسالة: ٦٦ وآل الشيخ في رسالته: ٢٢.

٣- فتح الباري ٨: ٢٩.

٤- مقام إبراهيم: ٦٧.

٥- شفاء الغرام ١: ٢٠٦.

ص: ١٢٦

ويرد عليه - مضافاً إلى المعارضة التي قدّمتها - ما ذكره المعلّم من أنهم ذكروا أن موسى بن عقبة تتبع المغازي بعد كبر سنّه، وربما يسمع ممن هو دونه وقد قال: زعموا.

مع أنّ تعبير ابن عقبة في النسبة إلى القائل بزعمهم مشعر إن لم يكن دالّاً على أنه لا يرتضيه هو. السابع: ما رواه الأزرقى في تاريخ مكّة بسنده عن عبد الله بن السائب - وكان يصلى بأهل مكّة - قال: أنا أوّل من صلّى خلف المقام حين ردّ في موضعه هذا (١).

وجه الاستدلال أن قول عبد الله بن السائب: حين ردّ في موضعه، يفهم منه أن ذاك الموضع كان موضعاً للمقام سابقاً أيضاً، إلّا أنه فصل عنه برهه فكان جعله فيه ردّاً إليه.

ويرد عليه أوّلاً: أن عبد الرزاق في مصنّفه نقل القضية هكذا: كنت أوّل من

ص: ١٢٧

صلى وراءه حين وضع؛ فكلمه حين وضع فى رواية عبدالرزاق هو الذى غيرها راوى النقل المتقدم، وهو سليم بن مسلم الذى روى عنه الأزرقى؛ وهذا الراوى قدحوا فيه بأنه غير مأمون لا على عقيدته ولا على الحديث؛ وعدوه واهياً متروك الحديث؛ بل قيل: لا يساوى حديثه شيئاً (١).

وثانياً: إن هذه الرواية لو تمت سنداً ومنتناً فهى معارضة بالروايات المنافية لها، وهى أصح سنداً وأوضح متناً ودلالةً وأقوى مضموناً. الثامن: رواية الأزرقى بسنده عن ابن جريج يشير إلى الموضع الملاصق للبيت وأنه الذى صلى فيه النبى صلى الله عليه وآله، وأنه الموضع الذى جعل فيه المقام حين ذهب به سيل أم نهشل إلى أن قدم عمر فرده إلى موضعه الذى كان فيه فى الجاهلية وفى عهد النبى صلى الله عليه وآله وأبى بكر وبعض خلافة عمر إلى أن ذهب به السيل (٢).

أقول: يرد عليه - مع الغض عن سنده ومعارضته - أن ظاهره أن النبى صلى الله عليه وآله صلى بجنب الكعبة وكان المقام غير موجود هناك وإنما كان متأخراً عنه وفى موضعه الفعلى؛ وهذا القول غريب لم يعهد من أحد.

- يتبع -

١- راجع الضعفاء للعقلى والضعفاء والمتروكين للنسائى ولسان الميزان لابن حجر والذهبى فى المشتبه وغيرها.

٢- الجواب المستقيم: ٢٩.

ص: ١٢٨

فقه الجدل في الحجّ

دراسة فقهية استدلالية حول مفهوم الجدل وأحكامه (القسم الأول)

حيدر حب الله

تمهيد

من جملة تروك الإحرام في الحجّ «الجدال»، وقد دلت على حرمة نصوص الكتاب والسنة:

أ- أمّا الكتاب، فقوله تعالى: «الحجّ أشهر معلومات فمن فرض فيهنّ الحجّ فلا رث ولا فسوق ولا جدال في الحجّ» (١).

ب- وأمّا السنة، فجملة من الروايات، ومنها ما هو معتبر السند مثل:

خير عبدالله بن سنان، في قول الله عزوجلّ: «وأتمّوا الحجّ والعمرة لله» (٢)، قال: «إتمامها أن لا رث ولا فسوق ولا جدال في الحجّ»

(٣).

كما استدلّ على الحكم بالإجماع أيضاً، وهو وإن كان منعقداً بين المسلمين قاطبةً، إلّا أنّه مدركيّ، فلا يكون بنفسه دليلاً، بل المدرك هو الآيات والروايات.

والبحث في الجدل يقع ضمن مباحث:

١- البقرة: ١٩٧.

٢- البقرة: ١٩٦.

٣- وسائل الشيعة ١٢: ٤٦٦، كتاب الحجّ، أبواب تروك الإحرام، باب ٣٢، ح ٦.

المبحث الأول: مفهوم الجدل المزم

إشارة

ما هو الجدل الذي حرّمته الآية؟ ما معناه؟ وما المراد به؟

الذي يبدو أنّ المسلمين انقسموا إزاء هذا الأمر، فقد ذهب مشهور فقهاء أهل السنّة (١)، إلى أنّ المراد بالجدال معناه اللغوي، وهو النزاع والمخاصمة.. ممّا هو معروف، أمّا فقهاء الشيعة (٢) فقد ذهبوا- أكثرهم- إلى أنّ المراد به قول: «لا- واللّه وبلى واللّه»، فكأنّ الجدل عندهم اتخذ معنى شرعياً جديداً، خرج به عن معناه اللغوي، فبعد أن كان يعنى النزاع والخصومة لغّةً، صار يعنى شرعاً هاتين الكلمتين، سواء كان هناك نزاع وخصومة أم لا؟

١- انظر: النووي، المجموع ٧: ١٤٠، والإمام مالك، الموطأ ١: ٣٨٩؛ والمغني لابن قدامة المقدسي ٣: ٢٦٥؛ والشرح الكبير ٣: ٣٢٩؛ وابن حزم، المحلّي ٧: ١٩٦؛ وقد لاحظنا أنّهم استعملوا كلمة «لا واللّه وبلى واللّه» لدى حديثهم عن لغو اليمين لا في باب الحج، فراجع الشافعي، كتاب الأم ٧: ٦٦، ٢٥٧، ومختصر المزني: ٢٩٠؛ والمجموع للنووي ١٨: ٤، ٧، ٨؛ والحجاوي، الإقناع ٢: ٢٥٣؛ والشرييني، مغني المحتاج ٤: ٣٢٥؛ وحواشي الشرواني ١٠: ١٢؛ والدمياطي، إعانة الطالبين ٤: ٣٥٩، والمدوّنة الكبرى للإمام مالك ٢: ١٠١؛ والرعييني، مواهب الجليل ٤: ٣٩٩، والسمرقندي، تحفة الفقهاء ٢: ٢٩٥؛ والكاشاني، بدائع الصنائع ٣- ٤؛ وابن نجيم المصري، البحر الرائق ٤: ٤٦٨؛ والحصنكي، الدر المختار ٤: ٧؛ وحاشية ابن عابدين ٤: ٨؛ والمغني ١١: ١٧٩؛ والشرح الكبير ١١: ١٨٣؛ والبهوتي؛ كشاف القناع ٦: ٣٠٠؛ والعسقلاني، سبل السلام ٤: ١٠٧؛ والشوكاني، نيل الأوطار ٩: ١٣٢-١٣٣... وورد تفسير اللغو بالآيمان في بعض الروايات الشيعية بلا واللّه وبلى واللّه. فانظر: الصدوق، من لا يحضره الفقيه ٣: ٣٦١.

٢- راجع: الصدوق، المقنع: ٢٢٣؛ والطوسي، النهاية: ٢١٩؛ والمبسوط ١: ٣٢٠؛ والرسائل العشر: ٢٢٨؛ وابن البراج، المهذب ١: ٢٢١؛ والحلي، الجامع للشرائع: ١٨٤؛ والعلامة الحلي، مختلف الشيعة ٤: ٨٧، والتذكرة ٧: ٣٩٣-٣٩٤؛ و ٨: ٢٧، وإرشاد الأذهان ١: ٣١٧، وتحرير الأحكام ٢: ١٧، وتبصرة المتعلمين: ٩٠؛ وفخر المحققين، إيضاح الفوائد ١: ٢٩٦؛ والشهيد الأول الدروس ١: ٣٨٦، واللمعة: ٥٩؛ وابن فهد، الرسائل العشر: ٣٢١؛ والكركي، جامع المقاصد ٣: ١٨٣-١٨٤؛ ورسائل الكركي ٢: ١٥٤؛ والشهيد الثاني، الروضة البهية ٢: ٢٤٠، ومسالك الأفهام ٢: ٢٥٨؛ والأردبيلي، مجمع الفائدة ٦: ٢٩٣-٢٩٦؛ والعاملي، مدارك الأحكام ٧: ٣٤١-٣٤٢؛ والبهائي، جامع عباسي: ١١٧؛ والسبزواري، ذخيرة المعاد: ٥٨٩، ٥٩٣-٥٩٤، وكفاية الأحكام ١: ٢٩٩، والجزائري، التحفة السنية: ١٨٢؛ والبحراني، الحدائق الناضرة ١٥: ٤٦٢-٤٦٣؛ والأنصاري، مناسك الحج، سلسلة مصنفات الشيخ الأعظم ١٣: ٣٧؛ واللنكراني، تفصيل الشريعة، كتاب الحج ٤: ١١٢-١١٤؛ والسرائر ١: ٥٤٥؛ والجناحي، كشف الغطاء ٤: ٥٧٣؛ والروحاني، فقه الصادق ١٠: ٤٦١-٤٦٣؛ وابن زهرة، غنية النزوع: ١٦٠، والمرتضى، الانتصار: ٢٤٢.

ص: ١٣٠

وقد وقع جدل بين فقهاء الإمامية، انطلاقاً من التفسير المذكور، حول نقطتين:

الأولى: هل المحرّم هو هاتان الكلمتان معاً، أم أنّ الواحدة منهما تكفي؟

الثانية: هل المحرّم هو خصوص هاتين الكلمتين، أم المراد بهما الإشارة إلى مطلق اليمين حتّى لو كان بغير الصيغتين المذكورتين؟ بدورنا، سنركّز بحثنا على النقطة التالية: أيّ من التفسيرين هو الصحيح لمفهوم الجدل؟ هل المعنى اللغوي أم اليمين؟ ما هو مدرك النظرية الثانية؟ وهل يمكن تصوّر نظرية ثالثة أو رابعة في اليمين أم لا؟ ونتعرّض - بدايةً - لمدرك النظرية الأولى، ثمّ نعرّج على مدرك النظرية الثانية، لنخرج بنتيجة نهائية في الموضوع بعون الله سبحانه.

مستند نظرية التفسير اللغوي للجدال

الذي يبدو أنّ المستند الرئيس للنظرية القائلة بأنّ الجدل المحرّم في الحجّ هو النزاع والمخاصمة، هو اللغة العربية، فالمصادر اللغوية تُجمع - حسب الظاهر - على أنّ الجدل في اللغة يعنى النزاع والخصومة والحوار الصاحب وأمثال ذلك (١)، حتّى أنّ أصحاب النظرية الثانية أنفسهم أقرّوا بأنّ المعنى اللغوي قائم على ذلك، وأنّ نصوص السنّة هي التي دفعت إلى تبني القول الثاني، ولولاها لأخذنا بهذا المعنى في تفسير الآية الكريمة (٢).

ولا شك في صحّة هذا الكلام، وأنّ هذا التفسير هو المتعيّن، غير أنّ المفروض

١- راجع: ابن منظور، لسان العرب ١١: ١٠٥، و ١٥: ٢٧٨، والقاموس المحيط ٣: ٣٤٦-٣٤٧؛ ومجمع البحرين ١: ٣٥١-٣٥٣؛ وتاج العروس ٧: ٢٥٤، و ١٠: ٣٤١؛ وأبوهلال العسكري، الفروق اللغوية: ١٥٨-١٥٩؛ والتبيان ٢: ١٦٤-١٦٥؛ ومجمع البيان ٢: ٤٣؛ والميزان ٢: ٧٩..

٢- انظر - على سبيل المثال - الخوئي، المعتمد في مناسك الحج ٤: ١٦٢-١٦٣؛ والشيخ كاشف الغطاء، كشف الغطاء ٤: ٥٧٣.

ص: ١٣١

مراجعة نصوص السنّة قبل البتّ بالموضوع، انطلاقاً من كونها مرجعاً ثانياً مع القرآن الكريم، لننظر: هل في السنّة الشريفة ما يفرض - منطقياً - العدول عن هذا التفسير الصائب في حدّ نفسه أم لا؟
ومعنى ذلك أن صحّة النظرية الأولى صحّة معلقة على الفراغ عن رصد مستندات النظرية الثانية، وهو ما سنقوم به الآن إن شاء الله تعالى.

مستند نظرية التفسير الشرعي للجدال

الظاهر أن المستند الوحيد الذي ينبغي التعرّض له للتفسير الشرعي للجدال هو الروايات الشريفة، فإنّ الإجماع هنا واضح المدركية، فلا يعتمد عليه، كما أن النصّ القرآني لا يدلّ عليها وفق ما أشرنا، ولا سبيل لدليل العقل في الميدان حسب ما يبدو لنا.
المستند الرئيس لتفسير الجدال في الآية بالتزاع هو اللغة العربية
وعليه، فلا بدّ من استعراض نصوص السنّة الواردة في المقام للوصول منها إلى نتيجة، وهذه النصوص هي:
الرواية الأولى: صحيحه معاوية بن عمّار قال: «قال أبو عبد الله عليه السلام: إذا أحرمت فعليك بتقوى الله، وذكر الله، وقلّمة الكلام، إلّا بخير، فإنّ تمام الحجّ والعمرة أن يحفظ المرء لسانه إلّا من خير، كما قال الله عزّ وجلّ، فإنّ الله عزّ وجلّ يقول:
«فمن فرض فيهنّ الحجّ فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحجّ» (١)؛ فالرفث: الجماع، والفسوق: الكذب والسباب، والجدال: قول الرجل: لا والله وبلى والله» (٢).
ومن الواضح أن الرواية بصدده بيان معنى ما ورد في الآية، أي أنّها ناظرة إليها

١- البقرة: ١٩٧.

٢- وسائل الشيعة ١٢: ٤٦٣-٤٦٤، كتاب الحجّ، أبواب تروك الإحرام، باب ٣٢، ح ١.

ص: ١٣٢

نظرة تفسيرية، وتريد أن تشرح معناها، وليست في مقام بيان الحكم الشرعي فقط بقطع النظر عن الآية، بل الرواية ناظرة إلى الآية، فهي تحوى - إضافة إلى بيان الحكم الشرعي - تفسيراً للآية ونظراً إليها، مما يفرض جعل مدلول الآية بالمعنى الذي تنص عليه الرواية، فالخبر تامّ السند والدلالة.

الرواية الثانية: صحيحة على بن جعفر قال: «سألت أخى موسى عليه السلام عن الرفث والفسوق والجدال ما هو؟ وما على من فعله؟ فقال: الرفث: جماع النساء، والفسوق: الكذب والمفاخرة، والجدال: قول الرجل: لا والله وبلى والله...» (١).

وحال هذه الرواية كحال سابقتها وإن لم يرد فيها ذكر الآية، ذلك أن السؤال عن هذه الثلاث بهذا الترتيب ظاهر في أن نظر على بن جعفر إلى الآية نفسها، وأن الإمام لما فسّر الثلاث يكون قد فسّر الآية، وتكون النتيجة مطابقة لما استفدناه من الرواية الأولى.

الرواية الثالثة: صحيحة معاوية بن عمّار، وهى مثل الرواية الأولى، إلّا أنه جاء فى آخرها: «وسألته عن الرجل يقول: لا لعمرى وبلى لعمرى؟ قال: ليس هذا من الجدال، وإنما الجدال: لا والله وبلى والله» (٢).

وهذه الرواية يبدو أنها عين الرواية الأولى، وليست رواية ثانية؛ لاشتراكها معها فى مقطع كبير، مع وحدة الراوى، لكن المهم فيها أن الإمام عليه السلام نفى أن يكون من الجدال قول: «لا لعمرى وبلى لعمرى»، مستخدماً لحصره فى لا والله وبلى والله كلمة «إنما»، وهذا ما يفيد كون الجدال - حصراً - خاصاً بهذين التعبيرين، وأن الموضوع ليس موضوع نزاع ومخاصمة، وهذه دلالة إضافية، أى دلالة الحصر، تعطينا إياها هذه الرواية، اللهم إلّا إذا قيل: إن الحصر هنا إضافي بلحاظ ما سبق،

١- المصدر نفسه: ٤٦٥، ح ٤، و ١٣: ١١٥.

٢- المصدر نفسه: ٤٦٥-٤٦٦، ح ٥.

ص: ١٣٣

لا حقيقى لنفى المفهوم اللغوى (١).

الرواية الرابعة: خبر زيد الشحام قال: «سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الرفث والفسوق والجدال؟ قال: أمّا الرفث فالجماع، وأمّا الفسوق فهو الكذب، ألا تسمع لقوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة» (٢)، والجدال هو قول الرجل: لا والله وبلى والله، وسباب الرجل الرجل» (٣).

ونواجه مع هذه الرواية:

أولاً: إن الرواية ضعيفة السند بالمفضل بن صالح الضعيف (٤)، فلا يحتج بها.

ثانياً: إنها تخالف غيرها من الروايات العديدة التامة السند، التي فسّرت الفسوق بالسباب، فإننا لم نجد رواية فسّرت الجدال بالسباب، كهذه الرواية، وهذا ما يجعلها معارضةً لمثل صحيحى معاوية بن عمّار وعلى بن جعفر وغيرهما.

الرواية الخامسة: خبر العياشى فى تفسيره عن معاوية بن عمّار، عن أبى عبد الله عليه السلام، فى قول الله: «الحجّ أشهر معلومات فمن فرض فيهنّ الحجّ فلا رث ولا فسوق ولا جدال فى الحجّ» (٥)، والرث: الجماع، والفسوق: الكذب والسباب، والجدال: قول الرجل: لا والله وبلى والله» (٦).

وهذه الرواية من حيث الدلالة كسابقاتها، إلّا أنّها:

أولاً: ضعيفة السند بالإرسال، فلا يحتج بها.

ثانياً: إن الظاهر منها أنّها عين صحيحه معاوية بن عمّار المتقدّمة، فهى

١- أشار إليه المحقق الكركى فى جامع المقاصد ٣: ١٨٣.

٢- الحجرات: ٦.

٣- وسائل الشيعة ١٢: ٤٦٧، ح ٨.

٤- راجع: الخوئى، معجم رجال الحديث ١٨: ٢٨٦-٢٨٧.

٥- البقرة: ١٩٧.

٦- وسائل الشيعة ١٢: ٤٦٧، كتاب الحجّ، أبواب تروك الإحرام، باب ٣٢، ح ٩.

ص: ١٣٤

متطابقة الألفاظ، مع وحدة الراوى، ولا دليل على تعدد الرواية، فلا تقدم لنا شيئاً إضافياً.

الرواية السادسة: صحيحة معاوية بن عمّار قال: «سألت أبا عبد الله عليه السلام عن رجل يقول: لا- لعمرى وهو مُحرم؟ قال: ليس بالجدال، إنّما الجدل قول الرجل: لا والله، وبلى والله، وأمّا قوله: لاها، فإنّما طلب الإسم، وقوله: يا هناه، فلا بأس به، وأمّا قوله: لا بل شانيك، فإنّه من قول الجاهلية» (١).

ومن الواضح أنّ الرواية مستغرقة في تفسير الجدل بكلمات، لا بالتزاع والخصومة، فإنّه لو كان الجدل بمعناه اللغوى، لم يكن معنى لهذه الموضوعات مطلقاً، سيّما مع استخدامها أداة الحصر «إنّما»، فهي تامة الدلالة مضافاً إلى تمامية السند.

الرواية السابعة: صحيحة أبى بصير- ليث بن البختری- قال: «سألته عن المُحرم يريد أن يعمل العمل فيقول له صاحبه: والله لا تعمله، فيقول: والله لأعملنه، فيخالفه مراراً، يلزمه ما يلزم الجدل؟ قال: لا، إنّما أراد بهذا إكرام أخيه، إنّما كان ذلك ما كان [لله] فيه معصية» (٢).

والرواية تركّز على مفهوم اليمين في الدلالة، غايته أنّها تحصر ذلك باليمين الذى فيه معصية، وهذا يثبت المبدأ، وهو صيرورة مفهوم الجدل منحصراً في اليمين، وإن كان وقع بحث في تفصيله، وهو قضية المعصية وعدمها (٣).

إلّا أنّ الإنصاف أنّ هذه الرواية لا دلالة لها على المطلوب وذلك:

أولاً: إنّ أقصى ما تفيده دخول بعض الأيمان في مفهوم الجدل، لكنّها لا- تنفى المفهوم اللغوى، على خلاف الحال من الروايات السابقة التى التزمنا دلالتها على

١- المصدر نفسه: ٤٦٥، ح ٥.

٢- المصدر نفسه: ٤٦٦، ح ٧.

٣- راجع: الخوئى، المعتمد ٤: ١٦٣-١٦٤.

ص: ١٣٥

التحوّل المفهومى شرعاً للكلمة، إما من خلال ظهورها فى النظر إلى الآية لتفسيرها بما يصرفها عن المعنى اللغوى، أو استخدام أدوات تفيد المؤدى نفسه إن لم نقل بإضافية الحصر بلحاظ مثل «لا لعمري» ونحو ذلك.

فحن نريد هنا، تأكيد تأسيس معنى جديد لكلمة الجدل، كما هي النظرية المشهورة، لا اعتبار المعنى اللغوى مع إضافة، فهذا ما لم يذهب إليه المشهور، كما هو ظاهر كلماتهم.

ثانياً: إن الرواية ليست ظاهرة فى أخذ خصوصية اليمين، بل يحتمل فيها جداً أن يكون المراد السؤال عن هذه الحالة بوصفها جدالاً بالمعنى اللغوى، أو ممّا يحتمل فيه شبهة الجدل، سيما بقريته قوله: «فيخالفه مراراً»، ممّا يحتمل معه صرف مفهوم الجدل والخصومة لغه، ومعه فلا يحرز أن المراد منها اليمين وإن استخدمته الرواية، وإنما فسرت الرواية بما ينسجم مع سائر الروايات للأنس بالمعنى، وإلا لو بقينا وإياها وحدنا لأمكن جعلها منسجمة تماماً مع المعنى اللغوى، سيما وأنها تنفى الحكم فى مورد لا خصومه فيه، وإنما سأل السائل لشبه كون المورد مخاصمة.

فهذه الرواية لا يصح التمسك بها لإثبات ما ذهب إليه المشهور.

الرواية الثامنة والتاسعة والعاشره: خبر أبى بصير عن أحدهما عليهما السلام قال: «إذا حلف بثلاثة أيمان متتابعات صادقاً فقد جادل، وعليه دم، وإذا حلف بيمين واحدة كاذباً فقد جادل، وعليه دم» (١).

وتقريب دلالتها أنها تركز على مفهوم اليمين، حتى أنها تميز بين اليمين الصادقة والكاذبة، ممّا يجعلها تنظر إلى الانصراف عن موضوع المعنى اللغوى بحكم الأمر المفروغ منه.

إلا أنه مع ذلك يمكن القول بأن الرواية لا تنفى المعنى اللغوى، بل توسع دائرة الجدل، بما يشمل اليمين، فيمكن القول: إنها ساكتة عن الدلالة اللغوية الموجودة فى

١- وسائل الشيعة ١٣: ١٤٦، كتاب الحجّ، أبواب بقیة كفّارات الإحرام، باب ٢٢، ح ٤.

ص: ١٣٦

الآية، غايته أنها توسع - بالتعبد والاعتبار على سبيل الحكومه - المراد من الجدال المحرم شرعاً بما يشمل اليمين. ونحو هذه الرواية خبران آخران لمعاوية بن عمارة ولأبان بن عثمان عن أبي بصير (١).

الرواية الحادية عشرة: صحيحه محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال:

«سألته عن الجدال في الحجاج؟ فقال: من زاد على مرتين فقد وقع عليه دم، فقيل له:

الذي يجادل وهو صادق؟ قال: عليه شاء، والكاذب عليه بقرة» (٢).

إلا أن هذه الرواية لا تدل على رأى المشهور أبداً، فهي لا تبين حقيقة الجدال، بل تشير إلى أنه لو وقع كانت كفارته كذا وكذا، ومجرد التعبير بصادقاً وكاذباً لا تدل على مسألة اليمين، لأن الجدال قد يكون صادقاً وكاذباً، فقد يجادل في أمر يرى نفسه على حق فيه، وقد يجادل في أمر يعلم أنه غير محقق فيه، فتعبير: «صادقاً وكاذباً» كما يصح في مورد اليمين، كذا يصح في المعنى اللغوي للجدال، فترجيح احتمال اليمين لا معنى له.

الرواية الثانية عشرة: صحيحه يونس بن يعقوب قال: «سألت أبا عبد الله عليه السلام عن المحرم يقول: لا والله وبلى والله وهو صادق، عليه شيء؟ قال: لا» (٣).

وتقريب الاستدلال بالرواية أنها سألت عن الكفارة، مما يرشد إلى مفروغية الحكم بكون هذا التعبير من محرمات الإحرام، وحيث لا مجال لإدخال هذا المورد إلا في الجدال بقريته سائر الروايات، كانت هذه الرواية داعمة لتلك النصوص المناصرة لقول المشهور. لكن مع ذلك يناقش بأن أقصى ما تفيده الرواية - بالتقريب المتقدم - اندراج اليمين في الجدال، لا تحوّل مفهومه إلى معنى جديد كما عليه المشهور؛ فلا تكون

١- المصدر نفسه: ١٤٦-١٤٧، ح ٥، ٧.

٢- المصدر نفسه: ١٤٧، ح ٦.

٣- المصدر نفسه: ١٤٧، ح ٨.

ص: ١٣٧

الرواية دالة على القول المشهور هنا.

الرواية الثالثة عشرة: خبر إبراهيم بن عبد الحميد عن أبي الحسن موسى عليه السلام قال: «من جادل في الحجّ فعليه... والفسوق الكذب، والجدال: قول لا والله وبلى والله، والمفاخرة» (١).

وهذه الرواية مردودةٌ وذلك:

أولاً: بضعفها السندى بالإرسال، دون وجود عامل بها، بل الظاهر أنّ الأصحاب هجروها لمخالفتها لروايات كثيرة في صدرها، لا في المقطع الذي نقلناه وهو موضع شاهدنا (٢)، وما ذكره صاحب الرياض والجواهر... من أن سقوط بعضها لا يسقط حجّية البعض الآخر (٣) مردودٌ أصولياً؛ لأنّ دلالة البعض الساقط لم تسقط لتقيّة ونحوها ممّا يحتمل معه التبويض الدلالي في الحجّية.

ثانياً: إنّها فسّرت الجدال بالمفاخرة، وهذا ما لم يرد في الروايات الأخرى، نعم ورد في خبر زيد الشحام المتقدّم تفسير الجدال - إضافة إلى الجملتين المعروفتين - بسباب الرجل الرجل، وهذا مخالف لدلالة الحصر والسياق الحصري

١- المصدر نفسه: ١٤٨، ح ١٠؛ وتفسير العياشي: ٩٥.

٢- لمزيد من الاطلاع، راجع: النراقي، مستند الشيعة ١٣: ٢٩٢؛ والخوانساري، جامع المدارك ٢: ٦٣٠-٦٣١؛ والخوئي، المعتمد ٤:

١٧٢؛ والروحاني، فقه الصادق ١١: ٢١٤، والحكيم، دليل الناسك: ٢١٩.

٣- الطباطبائي، رياض المسائل ٧: ٤٢٦، والنجفي، جواهر الكلام ٢٠: ٤٢٢.

ص: ١٣٨

الوارد في الروايات الأخرى، فلعله يكون مضعفاً.

هذه هي الروايات الواردة في المقام قد بلغت ثلاثة عشرة رواية، الذي ثبت منها سنداً ودلالة ثلاث روايات فقط، فالرواية الأولى والثالثة واحدة، كما أن الرواية الرابعة والخامسة والثالثة عشرة ضعيفة السند، أما الرواية السابعة والثامنة والتاسعة والعاشره والحادية عشرة والثانية عشرة فهي قاصرة دلالة، بمعنى أنها تفيد شمول مفهوم الجدل القرآني لمثل بعض الأيمان على أبعد تقدير، على سبيل الحكومة الموسعة بالتعبد والاعتبار، لا أنها تخلق تحوُّلاً جذرياً في مفهوم الجدل كما عليه المشهور، وفق ما تقدّم، على أن الرواية الأولى والسادسة مشتركة في روايتها، وهو معاوية بن عمّار، وفي حال من هذا النوع لا ينبغي ادعاء الاستفاضة فضلاً عن التواتر، نعم ثمة دليل صحيح ومعتبر.

إلا أنه مع ذلك كله قد يقدم تصوّر آخر عن مفهوم الجدل المحرّم في الحجج، نعرضه ضمن نظرية ثالثة - ذات وجوه - هي:

نظرية الجدل بالمعنى الأخص

قد يقال: إن مراجعة نصوص الكتاب والسنة في موضوع الجدل المحرّم على المحرم في الحجج تدلّ على أن الحرام نوع خاص من الجدل، هو ذاك الجدل الذي يتسم بالشدّة والازدياد عرفاً بحيث يستخدم فيه الطرفان الأيمان والحلف لتأكيد موقفهما، أما الجدل العادي الهادي أو العابر فليس مشمولاً لحرمة الجدل، بعد البناء على حجّية الخبر الواحد.

وتقريب ذلك أن الآية القرآنية ركزت مفهوم الجدل، ولم يرد أي معنى لغوي للجدال يفسّره باليمين، فضلاً عن نوع خاص من اليمين، والتمثيل بكلمتي: لا- والله، بلى والله، وحيث كان القرآن عربياً لزم تفسير الآية وفق المعنى اللغوي العرفي لدى أبناء اللسان العربي، وليس إلّما سبق وأسلفناه من المعنى اللغوي.

ص: ١٣٩

والتحقيق في فهم الروايات الواردة في المقام، أن أمامنا في تفسيرها احتمالات خمسة هي:

الاحتمال الأول: أن يراد بها تأسيس معنى شرعى للجدال، مباين تماماً للمعنى اللغوى والعرفى، وهذا الاحتمال - رغم أنه المنصرف عرفاً من الروايات - مردود، إذ لو كان مراد الروايات ذلك لكانت مناقضة للقرآن، فيجب طرحها حتى لو كانت صحيحة السند، وإلا فما معنى مخالفة القرآن؟ وطرح النصوص التي تعارضه؟ فإن المورد من أوضح مصاديق المخالفة، لأن النص القرآنى يعطى معنى في ظهوره الذاتى، فيما تنفيه تماماً - حسب الفرض - الدلالة الالتزامية لمفاد الحصر الوارد في الروايات، فإن الأحاديث بحصرها معنى الجدل فى اليمين بقطع النظر عن النزاع والخصومة، تريد بالدلالة الالتزامية نفي النزاع والخصومة، وهو ما يساوق نفي الظهور القرآنى، فتكون الرواية مخالفة للقرآن، لا بنحو التخصيص أو التقييد، بل بنحو المباينة، مع الأخذ بعين الاعتبار الدلالة الالتزامية المشار إليها، وإذا أريد حذف هذه الدلالة لبطل الاحتمال الأول الذى يساوق القول المشهور بين الإمامية، فإن هذا الاحتمال قائم على الحصر ونفى الجدل بالمعنى اللغوى.

إذن، فحصر الجدل ببعض أنواع اليمين فقط، مخالف للظهور القرآنى للآية فتطرح الروايات أو يرد علمها إلى أهلها، ولا معنى لمقارنته كلمة «جدال» بكلمة «غائط» فى أن الشرع أكسبها معنى جديداً (١)، فإن هذا لا ضير فيه، لو كانت الآية قد نزلت بعد هذا التحوّل وحصول الحقيقة الشرعية، وليس كذلك، فتحمل الآية على المعنى اللغوى، إذ لم يرد ما يدل على حصول التحوّل قبل عصر الصادقين عليهما السلام، فقد تم هنا الخلط بين أمرين.

قد يقال: إن هذا يتم لو لم تكن الروايات بصدد الإشارة إلى الآيات وتفسيرها، وقد تقدّم أنّها فى هذا الصدد، لا أقل الرواية الأولى والثانية المتقدمتين،

ص: ١٤٠

ومعه يؤخذ بدلالة الرواية في تفسيرها للآية الكريمة.

وهذا الكلام قد يبدو بظاهره جيداً، إلّا أنه قد وقع فيه خلط بين الحديث الواقعي والحديث المنقول، فلو أننا سمعنا المعصوم عليه السلام يفسّر لنا الآية باليمين، لوجب علينا قبول تفسيره، ولا مجال للنقاش معه، وهذا واضح، إلّا أنه خاص بالعلم اليقيني بصدور الرواية، وقد أسلفنا أنّ هذه الرواية لا استفاضة فيها فضلاً عن التواتر، وعمل الأصحاب بها لا يصيرها قطعية الصدور، وعهده القطعية على مدّعيها. أمّا لو لم يحصل لنا يقين بصدور الحديث عن المعصوم عليه السلام، فلا يمكن أن نتعامل معه معاملة الصادر الواقعي مطلقاً، بل إنّ حجّيته تكون حينئذٍ مشروطة بعدم مخالفته للكتاب، ومجرّد ادّعاء الخبر أنّه يفسّر القرآن لا يغيّر من واقع الأمر شيئاً، فإنّ هذه الخصوصية لا ترفع عنوان معارضة الكتاب، ومع تحقّق هذا العنوان ينبغي تطبيق قواعد الحجّية القاضية بسقوط اعتبار الأخبار. وكلّي ظنّ بأن الخلط بين السنّة الواقعية والسنّة الظنّية المحكيّة هو ما يفضي عادةً إلى توهم حاكميّة نصّ السنّة المحكيّة على نصّ الكتاب، وافترض أننا قد خفي علينا شيء في نص القرآن الكريم.

نعم، لو كانت الرواية بصدد بيان بطون القرآن أو معان لم تظهر لنا منه لم يمكن ردّها لمجرّد أنّنا لم نفهم هذا المعنى عينه من الكتاب، إلّا أنّ المقام ليس كذلك بل هو مقام أن ما أعطتنا إيّاه الرواية ينافي الظهور العرفي، فهذا الظهور ليس بساكت عن مدلول ما أفادته الرواية، وهو الحصر باليمين، بل هو نافٍ له، وهذا هو المصداق البارز لمعارضة الكتاب، وإلّا فلم يُشترط إطلاقاً في معارضة الكتاب أن تكون الدلالة القرآنية صريحةً أو قطعيةً، كما لم يشرط في تطبيق قاعدة الطرح أن لا تكون الرواية ذات لسان تفسيري، وإلّا أمكن لأيّ وضاع نسبة مخالفة الكتاب إلى المعصوم، إذا صاغ قوله بلغة تفسيريّة، فلاحظ.

ص: ١٤١

وبهذا ظهر فساد القول المشهور، الذي لا معنى لدعمه بالاحتياط كما فعله في الغنية (١)، فإن الاحتياط يقتضى تجنّب الجدل والحلف معاً، لا الترخيص في الجدل الذي نصّت الآية على حرمة، وتحريم الحلف فقط، كما هو واضح، كما لا معنى لدعمه بالإجماع (٢) بعد كونه واضح المدركية.

هذا، وقد ردّ السيد الكلبيكاني على من تمسك - لدعم القول المشهور - بإطلاق الحلف دون ذكر المخاصمة، بأن الروايات مسوقة لبيان الآية، وهذا بنفسه يشهد على أن المراد بالجدال المؤكّد باليمين. بل يمكن القول: إن احتفاف نصّ الروايات بمثل هذا الجوّ يصلح بنفسه مانعاً عن انعقاد إطلاق فيها للحلف مطلقاً، ولو بدون جدال (٣).

إن حصر الجدل بأي معنى لا يحتوى مخاصمة فيه معارضة للكتاب الكريم وكلامه في غاية المتانة، ويمكن دعمه أيضاً بأنه لو كان المراد محض الحلف لا غير، وكان المعنى اللغوي محض المخاصمة بقطع النظر عن الحلف، لكان ينبغي أن نجد ولو تساؤلاً واحداً من المتشرّعة طيلة ثلاثة قرون حول: كيف أريد من الآية معنى لا تمت إليه بصلة ولا- تتحمّله اللغة العربية؟ ألم يكن يستدعى ذلك إثارة علامات تساؤل من جانب الرواة أو من جانب فقهاء أهل السنّة المعاصرين للإمام عليه السلام؟ والحال أننا لم نعر على أي رواية- ولو ضعيفة- تشير ولو إشارة عابرة إلى هذا الموضوع، ممّا يكشف عن أن السامعين إنّما فهموا من الروايات ما يتضمّن معنى الجدل، لا ما يخرج عنه إلى الحلف دون مخاصمة.

١- ابن زهرة، غنية النزوع: ١٦٠.

٢- المصدر نفسه؛ والمرضى، الانتصار: ٢٤٢.

٣- الكلبيكاني، كتاب الحج ٢: ١٤٢.

ص: ١٤٢

والمتحصل: أن هذا الاحتمال يصعب الأخذ به جداً.

الاحتمال الثاني: أن يكون المراد توسعه مفهوم الجدل لما يشمل اليمين الصرف، بمعنى أن تكون الروايات حاكمه على الآيه، موسعه لها توسعه تعبدية، فبعد أن كان الجدل واقعاً هو النزاع والخصومة والمرء... صار الآن- بركة الروايات- ذا فردين، أحدهما: الفرد الواقعي وهو النزاع، وثانيهما: الفرد التعبدى الذى قدمته لنا الحكومه، وهو صرف اليمين أو اليمين الخاص المذكور فى النصوص. وهذا الاحتمال لا يمكن القول بأنه معارض للكتاب، إذ هو لا ينفى الدلالة القرآنية بل يقرها ويشتها، غاية أن يضيف فرداً تعبدياً على الجدل، هو اليمين، وهذا مما لا ضير فيه.

إلا أن هذا الاحتمال يعانى من ضعف إثباتى، وهو أن الروايات الواردة كانت بصدد الإشارة إلى الآيه، وشرحها، ومعه فشرحها الآيه- سيما مع دلالة الحصر فى بعضها- بالفرد التعبدى الجديد خلاف الظاهر، إذ لو كانت تريد هذا الاحتمال لكان عليها أن تبين الفرد الواقعي والفرد التعبدى، لأنها فى مقام التفسير، فكيف غصت الطرف عن المعنى الأولى وهى ظاهرة فى التفسير، لتشير فقط إلى التعبدى، فإن هذا خلاف الظاهر، سيما وأننا لم نجد تساؤلاً لدى المتشرعة عن الفرد الواقعي، ومعه لا بد من افتراض أنه كان مفروغاً عنه عندهم، وهو خلاف ظاهر السائل فى الروايات.

نعم، الروايات الأخرى مثل الرواية السادسة، والثامنة، والتاسعة، والعاشره، والثانية عشره، ليس فيها هذا الضعف الإثباتى، فيمكن الأخذ بها فعلاً، لإثبات أن اليمين من المحرمات دون نفي الجدل بالمعنى اللغوى.

الاحتمال الثالث: أن يقال: إن المراد ب «لا والله وبلى والله» مرتبه من الجدل، عندما يشتد الخصام فيبلغ بالطرفين حد الحلف واليمين، وعليه فتكون الروايات التى تشير إلى هاتين الجملتين إنما تمثلان تعبيراً كنائياً عن اشتداد الخصام بين

ص: ١٤٣

الطرفين، فلا تزيد الروايات عن المعنى اللغوى للكلمة، غايته أنها تضيّق من دائرة الجدل الحرام، فبعد أن كان يشمل مطلق الجدل، صار يراد منه جدال خاص، وهذا ما يفهم ممّا نقله فى التذكرة عن ابن عباس، جاعلاً ما قاله الأئمة بمعناه.. (١).

وهذا الاحتمال قريب إلى الفهم العرفى لمجموعة النصوص الواردة فى المقام، ولا يلزم منه أى تكلف، لا تكلف الحكومة، ولا غيرها، وقد مال إلى هذا الاحتمال الفاضل الهندى فى كشف اللثام (٢)، والطباطبائى فى رياض المسائل (٣)، والخوانسارى فى جامع المدارك (٤)، والكلبائگانى فى كتاب الحج (٥) وغيرهم.

ويعزّز هذا الاحتمال - كما قيل (٦) - مضافاً إلى أصالة عدم الحرمة فى غير مورد الخصومة هذه، صحيحةً أبى بصير المتقدمة (الرواية السابعة)، حيث نفت الجدل فى مورد إكرام الأخ، ممّا يدلّ على الحصر بمورد الخصومة.

لكنّ هذا الاحتمال يواجه مشاكل أيضاً، ففى الرواية الثالثة نفى الإمام أن يكون قول مثل: لا لعمرى من الجدل، حاصراً إياه بلا والله وبلى والله، فلو كانت المسألة مسألة نزاع شديد لم يكن لخصوصية التعبير معنى، والأمر نفسه تفيد الرواية السادسة، وكتاهما صحيحة السند، ومعه كيف يمكن تفسير الآية مع الروايات بهذا المعنى؟! وأما التمسك بالأصل هنا فهو جيد؛ لولا أنّه لم يحن وقته بعد، إذ نحن نبدأ

١- العلامة الحلى، تذكرة الفقهاء ٧: ٣٩٣.

٢- الهندى، كشف اللثام ٥: ٣٦٩.

٣- الطباطبائى، رياض المسائل ٦: ٣١٣.

٤- الخوانسارى، جامع المدارك ٢: ٤٠٥-٤٠٦.

٥- الكلبائگانى، كتاب الحج ٢: ١٤١، وتقرير الحج ١: ١٩٥.

٦- المدنى الكاشانى، براهين الحج ٣: ١٣٢؛ كما يصلح كلامه لدعم الاحتمال الخامس الآتى؛ وانظر: المرتضى، الانتصار: ٢٤٢.

ص: ١٤٤

بالأمارات لكي نعرف ماذا تعطينا، فإذا أجمل الأمر عُدنا إلى الأصل، وسيأتي، وأما خبر أبي بصير فهو لا يدلّ على أن متعلّق الحكم هو الخصومة، بل يدلّ على اشتراط وجودها، لا كفايتها، وفرق واضح بينهما.

الاحتمال الرابع: أن يقال: إن «لا- والله وبلى والله» يراد منه أبسط أنواع الحلف، فتكون كناية عن التشدّد في إطلاق حرمة الجدل، فكأنّه يقول: إنّ الحرام مطلق الجدل، حتّى هذا الذى فيه أبسط أنواع الحلف العابر غير المقصود.

ويدعم هذا الاحتمال أمران:

الأول: ما استفاض فى مصادر الفقه والرواية السنيّة، وكذا بعض المصادر الحديثيّة الشيعيّة، وقد أسلفنا نقل قسم منها، من أخذ «لا والله وبلى والله» أبرز أنموذج للغو اليمين، وهو اليمين التى تقع من المتكلّم بلا قصد الحلف، فإن ارتكاز هذا المثال، يدلّ على أن العرف آنذاك يرى مثل هذا التعبير سائداً فى أوساط الناس، وأهل السوق وغيرهم، بحيث يصدر من المتحاورين عن غير قصد، لشدة شيوع استخدامه فى المحاورات، فعندما يذكر الإمام عليه السلام هذا المثال فى باب الحجّ، فهو يريد التشدّد فى أمر الجدل لا التخفيف، خلافاً لمفاد الاحتمال الثالث المتقدّم.

الثانى: ما نقله جماعة منهم ابن حجر والعظيم آبادى من أنّه نقل عن عطاء والشعبي وطاووس والحسن وأبى قلابه أن «لا والله وبلى والله» لغة من لغات العرب، لا- يراد بها اليمين، وهى من صلة الكلام (١)، فهذا يؤكّد- رغم أنّها يمين- أنّها تحوّلت- من كثرة استعمالها- إلى أداة وصل فى الكلام، ممّا يرشد إلى ما ذكرناه.

وهذا الاحتمال- رغم لطافته- يواجه المشاكل عينها التى واجهها الاحتمال السابق، فلو كان المراد مطلق الجدل فلماذا لم تحكم بذلك الرواية الثالثة التى ورد فيها: لا لعمري؟! وهكذا غيرها.

ولعلّ هذا ما يضطرّنا للذهاب إلى الاحتمال الخامس وهو:

١- ابن حجر، فتح البارى ١١: ٤٧٦؛ والعظيم آبادى، عون المعبود ٩: ١١٣.

ص: ١٤٥

الاحتمال الخامس: أن يراد مطلق الخصومة المرفقة باليمين، سواء كانت شديدة أم خفيفة، ولعلّ هذا أيضاً هو مراد الفقهاء الذين ذكرنا أسماءهم في الاحتمال الثالث، مضافاً إلى أنه ظاهر آخرين (١)، وميزة هذا الاحتمال أنه:

أولاً: لا يعارض النصّ القرآني، بل يخصّيه، فبعد أن كان المراد ظاهراً مطلق الجدل صار المراد الجدل المصحوب باليمين، أو بحصّة خاصّة منه.

ثانياً: لا يفترض نحواً من الحكومة، كما في الاحتمال الثاني، فلا تكون هناك غرابة في تفسير الإمام عليه السلام، وعدم ذكره للفرد الواقعي إنّما هو لوجوده ضمن الفرد الجديد، فإن المفروض أن الفرد الذي تحرّمه الروايات هو جدال حقيقي غايته مرفق بمطلق اليمين أو بيمين خاص.

ثالثاً: إنّ هذا الاحتمال لا يواجه مشكلة الرواية الثالثة، كما واجهها الاحتمال الثالث، لأنّ سلب الحرمة عن مثل: لعمرى و... إنّما هو من باب عدم كون ذلك حلفاً، وإنّما لم نقل هذا الكلام في الاحتمال الثالث؛ لأنّ المفروض هناك أن تكون الحرمة منصبّة على النزاع الشديد، والحلف إنّما يكون طريقاً ومشيراً إلى ذلك، ومعه فتغيّر التعبير المشير أو الدالّ على تحقّق متعلّق الحرمة لا ينبغي أن يضرّ شيئاً، على خلاف الحال هنا، فإنّ المفروض ثبوت الحرمة على مطلق الجدل، غايته شريطة أن يرفق بحلف خاص أو مطلق الحلف بالله تعالى.

وبهذا كلّ، يردّ على مثل السيد الخوئي (٢)؛ حيث تمسّك بصحيحة معاوية (الرواية السادسة) لإثبات الاحتمال الأوّل.

نعم، يبقى على هذا الاحتمال تفسير مثل الرواية السادسة، والثامنة، والتاسعة، والعاشر، والثانية عشر، ومنها ما هو الصحيح السند؛ إذ تقدّم أنّها لا

١- انظر: المدني الكاشاني، براهين الحجّ ٣: ١٣٢، ١٣٣، والسيد محمود الشاهرودي، كتاب الحجّ ٣: ١٨١-١٨٢.

٢- الخوئي، المعتمد ٤: ١٦٢-١٦٣.

ص: ١٤٦

تأبى الاحتمال الثانى، فما هو المرجح؟

وقد يقال هنا: إن دوران الأمر بين التخصيص لا بلسان الحكومه- كما عليه الاحتمال الخامس- والتخصيص بلسانها، كما هو الاحتمال الثانى، يفرض تقديم لسان التخصيص بدون الحكومه، إذ يراه العرف أقل مؤونه، وأسرع انسباقاً إلى الذهن العرفى، ولاحظ ذلك من نفسك.

لكن مع ذلك كله، نلاحظ على هذا الاحتمال الأخير الخامس أنه لو صحّ نساءل: هل هذا البيان الوارد فى مجمل هذه النصوص هو بيان عرفى واضح للكشف عن أن حرمة الجدل مخصوصة بالجدال المرفق باليمين؟! هل قول: «الجدال هو لا والله وبلى والله» يستفاد منه عرفاً هذا المعنى، سيما بقريته الحصر فى بعض النصوص؟! لماذا لم يرد فى أى نصّ حديثى أى لسان آخر أوضح فى الدلالة؟! ليس الاحتمال الأول هو المنسب إلى الذهن وقد أحرزنا بطلانه؟ ألا يشهد لذلك- من باب التأييد- أنه هو ما فهمه جلّ العلماء المتقدمين؟!

إنّ هذا- وللإنصاف وعند النظر بعرفية إلى النصوص- ما يفقدنا الوثوق بالدلالة المذكورة، رغم لطافتها فى الاحتمال الخامس، فليراجع القارئ الروايات بروح عرفية بعيدة عن التصورات المسبقة ليتأكد ممّا نقول.

نعم، لو كان هذا اللفظ منصرفاً عند العرب إلى معنى خاص أوجب اتكال الإمام عليه السلام عليه، لأمكن ذلك، لكننا لا نحرز هذا الأمر، ومعه فلا يكفى مجرد الافتراض.

وعليه، يظهر أن كلّ احتمال من الاحتمالات التفسيرية السابقة فيه جهة ضعف، وأضعفها الأول، وأفضلها الأخير، لكن لا ترجيح قاطع يجمع بين الروايات جميعها، وعليه تتعارض القرائن والشواهد، ويُرجع إلى العمومات الفوقائية، وهى الآيه الكريمة الدالة على نفى مطلق الجدل، الذى يعنى النزاع ونحوه، وإلا فيرجع إلى أصالة عدم الحرمة ويؤخذ بالقدر المتيقن، وهو الذى يجمع

ص: ١٤٧

فيه بين شدّة الخصومة مع اليمين، أى الجمع بين الاحتمال الثالث والخامس، فهذا قدرٌ متيقّن للحرمة، وتجرى البراءة عن غيره إذا لم يدخل ضمن دائرة المتيقّن.

نتيجة البحث:

وعليه فإذا بنينا على حجّية خبر الواحد، وبنينا كذلك على إمكان تخصيص القرآن بالآحاد فالتفسير الأخير - بعد الأوّل - هو الأوفق بالقواعد والأقرب للعرفية، لو لا ما فيهما من محاذير، وإلّا لزم الأخذ بالآية لتدلّ على حرمة الجدل مطلقاً، بما يصدق عليه الجدل عرفاً، وهذا هو الأقوى، والله العالم.

هذا كلّ من حيث المبدأ، وأما كون الجدل فى معصية، أو تكزّر الحلف، أو الحلف الكاذب والصادق، أو الحوار الذى لا نزاع فيه، فهذا سيأتى معنا لاحقاً إن شاء الله تعالى.

المبحث الثانى: شمول الحكم للرجل والمرأة

أثار تكزّر كلمة الرجل فى روايات الجدل استفهام بعض الفقهاء (١) فى احتمال أن يكون الحكم مختصاً بالرجال، فيكون الجدل من محرّمات الإحرام الخاصة، لا من تلك المشتركة بين الرجل والمرأة.

والذى يبدو أن الجدل شامل فى حكمه للرجل والمرأة معاً، وذلك:

أولاً: إنّ استخدام كلمة الرجل غالب فى التعابير العربية، دون أن يراد منه الاختصاص، ومع هذه الغلبة لا تحرز القيدية فى النص، بل يبقى الظهور على حاله، فيكون أخذه على نحو المثالية.

ثانياً: إذا كانت بعض الروايات مختصة بالرجل فإنّ الآية القرآنية وبعض الروايات الأخرى مطلقه لا اختصاص فيها، ومعه يتمسك بها، ودعوى تقييد

١- انظر - على سبيل المثال -: الأردبيلى، مجمع الفائدة والبرهان ٦: ٢٩٥-٢٩٦؛ والكلبائى، كتاب الحج ٢: ١٤٧.

ص: ١٤٨

الطائفة المختصة للمطلقة بعيد جداً، لأن ظهور الطائفة المختصة في توضيق الدائرة إنما يسلم في أن هذه الروايات لا تفيد الشمول للمرأة، ولا يبلغ الحال بها أن تكون ظاهرة في نفي الحكم عن المرأة حتى تخصيص الأدلة الأخرى، فظهور الأدلة الأخرى يبقى على حاله.

نعم، قد يقال: إن مجي الروايات في سياق تفسير الآية يعطيها قدرة التخصيص، فلا يعود هناك إطلاق حجة في الآية، وحينئذ ينحصر الجواب بما قدمناه أولاً.

وعليه، فالظاهر شمول الحكم للرجل والمرأة معاً.

- يتبع -

مفترارات شعريه «من ديوان الشريف الرضى قدس سره»

- حى، بين النقا وبين المصلى، وفقات الركائب الانضاء (١)
 ورواح الحجيج ليله جمع، وجمع مجامع الأهواء (٢)
 وتذكر عنى مناح مطيى بأعلى منى ومرسى خبائى (٣)
 وتعمد ذكرى، إذا كنت بالخي - ف، لظبي من بعض تلك الأطباء (٤)
 قل له: هل تراك تذكر ما كان بين القبيبه الحمراء
 قال لى صاحبي، غداه التقينا نشاكي حر القلوب الظماء:
 كنت خبرتي بانك فى الوج - د عقيدى، وأن داءك دائى (٥)

- ١- النقا: القطعه من الرمل تنقاد محدودبه. المصلى: مكان الصلاة، ولعله أراد بهما موضعين بعينهما، والانضاء، الواحد نضو: المهزول.
 ٢- جمع: المزدلفه، وهى بين عرفات ومنى، وليله جمع ليله عرفه.
 ٣- منى: موضع فى مكه.
 ٤- الخيف: ناحيه من منى. غره بيضاء فى الجبل الأسود الذى خلف أبى قبيس وهو جبل فى مكه.
 ٥- عقيدى: معاهدى.

ص: ١٥٠

ما ترى النفر والتحمل للبي ن، فماذا انتظارنا للبكاء
لم يقلها حتى انثيت لما بي اتلقى دمعي بفضل ردائي

لا والذي قصد الحجيح لئنته، ما بين ناء نازح وقريب
والحجر والحجر المقبل تلتقى فيه الشفاء، وركنه المحجوب
لا كان موضعا الذي ملكته بين الأضالع بعد ذا الحبيب
إني وجدت لداذة لك في الحشا ليست لما كويل ولا مشروب
لي أنه الشاكي إذا بعد المدى ما بيننا وتنفس المكروب

إن طيف الحبيب زار طروفاً، والمطايا بين القنان وشعب
فوق أكوارهن أنضاء شوق طرقوا بالغرام دون الركب
كلما أنت المطي من الإغ ياء أنوا من الجوى والكرب
زارني وأصلاً على غير وعد، وأنشئ هاجراً على غير ذنب
كان قلبى إليه رائد عيني، فعلى العين منه للقلب
بت أهو بناعم الجيد غص، وفم بارد المجاجه عذب
بل وجدى، ومن رأى اليوم قبلى ناعماً للغليل من غير شرب
أنت على البعد همومي، إذا غبت، وأشجاني على القرب
لا أتبع القلب إلى غيركم، عيني لكم عين على قلبى (١)

لا يُبعدن الله بزد شيبه ألقيته بمنى، ورحت سلياً

ص: ١٥١

شَعْرٌ صَحِبْتُ بِهِ الشَّبَابَ غُرَانِقًا، وَالْعَيْشَ مُخَضَّرَ الْجَنَابِ رَطِيبًا (١)
 بَعْدَ الثَّلَاثِينَ انْقِرَاضُ شَبِيهَةٍ، عَجَبًا أَمِيمٌ لَقَدْ رَأَيْتُ عَجِيبًا
 قَدْ كَانَ لِي قَطَطًا يُزَيِّنُ لِمَتِي شَرَوَى السَّنَانِ يُزَيِّنُ الْأَثُوبَا (٢)
 فَالْيَوْمَ أَطْلُبُ الْهَوَى مُتَكَلِّفًا، حَصْرًا، وَأَلْقَى الْغَائِيَاتِ مَرِيبًا
 إِمَّا بَكَيْتُ عَلَى الشَّبَابِ، فَإِنَّهُ قَدْ كَانَ عَهْدِي بِالشَّبَابِ قَرِيبًا
 لَوْ كَانَ يَرْجِعُ مَيِّتٌ بِنَفْجِعِ وَجْوَى شَقَقْتُ عَلَى الشَّبَابِ جِيوبًا
 وَلَكِنْ حَنَنْتُ إِلَى مَنِي مِنْ بَعْدِهَا، فَلَقَدْ دَفَنْتُ بِهَا الْغَدَاةَ حَبِيبًا

وَرَكِبَ تَفَرَّى بَيْنَهُمْ قَطْعَ الدَّجَى، يَسِيرٌ عَلَى الْبِيدَاءِ يَنْتَهِبُ التُّرْبَا
 يَصُدُّونَ عَنْ وَرْدِ الْكُرَى وَعُيُونُهُمْ خَوَامِسُ حَتَّى تَشْرَبُ الْمَنْظَرَ الْعَذْبَا
 إِذَا دَعَرْتَهُمْ نَبَأَهُ غَادَرْتَهُمْ وَقَدْ أَيْقَظُوا مِنْ بَيْنِ أَجْفَانِهَا الْقُضْبَا
 سَرَوْا وَخُيُولُ اللَّيْلِ دَهْمٌ وَعَرَسُوا وَقَدْ غَادَرُوا فِي طِرَادِ الضُّحَى شُهْبَا
 يَصُوعُ هَجِيرَ السَّيْرِ بَيْنَ رِحَالِهِمْ، إِذَا مَا نَسِيمُ اللَّيْلِ فِي ثَوْبِهِ هَبَا

فِي كُلِّ يَوْمٍ لِالأَحْبَةِ مَطْرَحٌ، وَعَلَى الْمَنَازِلِ لِلْمَدَامِعِ مَسْفَحٌ
 شَوْقٌ عَلَى نَأَى الدِّيَارِ مُغَالِبٌ، وَجْوَى عَلَى طُولِ الْمَطَالِ مُبْرِحٌ
 نَفَرَتْ بَنَاتُ الصَّبْرِ مِنْكَ، وَطَالَمَا قُصِرَتْ نَوَازِعُ عَنْ ضَمِيرِكَ تَطْمَحُ
 يَا هَلْ يُمَانِعُ بَعْدَ طُولِ قِيَادِهِ قَلْبٌ يُطَاوِعُ فِي الْقِيَادِ وَيَسْمَحُ
 وَعَلَى الْمَطِيِّ ظِبَاءٌ وَجِرَةٌ كُلَّمَا غَفَلَ الْمُرَاقِبُ تَشْرَبُ وَتَسْنَحُ (٣)

١- الغرائق: الشاب الأبيض.

٢- القطط: الشعر القصير الجعد. الشروى: المثل. الأثوب: القنأ.

٣- وجره: موضع عرف بظبائه. تشرئب: تمد أعناقها. تسنح: تعرض.

ص: ١٥٢

خَالَسْنَا النَّظَرَ الْمُرِيبَ، كَمَا رَنْتَ بَقَرُ الْجَوَاءِ إِلَى وَمِضْ يَلْمُحُ
 يَبْسِمَنَّ عَن بَرْدِ الْعَمَامِ وَبَرْدُهُ رِيَانٌ يُعْبِقُ بِالْمُدَامِ وَيُصْبِحُ
 كَلَفَتْ عَيْنَكَ نَظْرَهُ مَزُودَةً مَنَعَتْكَ لَدَّتْهَا مَدَامُ تَسْفَحُ (١)
 أَمْسُوا كَأَنَّ لَطَائِمًا دَارِيَةً بَاتَتْ تَضُوعُ مِنَ الْقِيَابِ وَتَنْفَحُ (٢)
 مَلَكُوا وَلَمَّا يُحْسِنُوا وَوَلُّوا وَلَ مَا يَعْدِلُوا وَعَنُوا وَلَمَّا يَسْمَحُوا
 قُلْ لِلْيَالِي قَدْ مَلَكْتَ فَاسْجِحِي، وَلِغَيْرِكَ الْخُلُقُ الْكَرِيمُ الْأَسْجِحُ (٣)

مِنْ أَى حَظَبٍ مِنْ حُطُوبِكَ أَشْتَكِي، وَعَنْ أَى ذَنْبٍ مِنْ ذُنُوبِكَ أَصْفَحُ
 إِنْ أَشْكُ فِعْلِكَ مِنْ فِرَاقِ أَحَبَّتِي، فَلَسُوهُ فِعْلِكَ فِي عِدَارِي أَفْبِحُ
 ضَوْءٌ تَشَعَّعَ فِي سَوَادِ ذَوَائِي، لَا أَسْتَضِيءُ بِهِ وَلَا أَسْتَصِيحُ
 بَعْتُ الشَّبَابَ بِهِ، عَلَى مَقَّةٍ لَهُ، يَبِيعُ الْعَلِيمُ بِأَنَّهُ لَا يَزْبِحُ
 لَا تُتَكَرَّرَنَّ مِنَ الزَّمَانِ غَرِيبَةً، إِنَّ الْخُطُوبَ قَلْبِيهَا لَا يَنْزَحُ
 لِلذَّلِّ بَيْنَ الْأَقْرَبِينَ مَضَاضَةً، وَالذَّلُّ مَا بَيْنَ الْأَبْعَادِ أَرْوَحُ
 وَإِذَا رَمَتَكَ مِنَ الرِّجَالِ قَوَارِصُ، فَسِهَامُ ذِي الْقُرْبَى الْقَرِيبَةَ أَجْرَحُ

١- مزوودة، مفرعة.

٢- اللطائم، الواحدة لطيمة: وعاء المسك. دارية: نسبة إلى دارين، وهي مشهورة بمسكها.

٣- اسجحي: أحسنى.

ص: ١٥٣

الْبَسُ نَسِيحَ الذَّلِّ إِنَّ أُلْبِسْتَهُ مُتَمَلِّمًا، وَإِنَاءَ قَلْبِكَ يَطْفَحُ
 مَا دُمْتَ تَنْتَظِرُ الْعَوَاقِبَ لِابْدَأَ لَا تَعْتَدِي لِعُلَى وَلَا تَتَرَوَّحُ (١)
 وَضَجِيْعَكَ الْعَضْبُ الَّذِي لَا يَنْتَضِي، وَخَلِيْطَكَ الرَّوْرُ الَّذِي لَا يَبْرَحُ
 وَاعْلَمْ بِأَنَّ الْبَيْتَ، إِنَّ أَوْطِنْتَهُ، سَجْنٌ، وَطُولُ الْهَمِّ غُلٌّ يَجْرَحُ
 أُنْحَى لَا تَكُ مُضْغَةً مَزْرُودَةً، تَنْسَاغُ لَيْنَةَ الْقِيَادِ وَتَسْرَحُ (٢)
 أَلَا أَيْتَ، وَأَنْتَ مِنْ جَمْرَاتِهَا؛ وَمِنْ الْعَجَائِبِ جَمْرَةٌ لَا تَلْفَحُ
 كُنْ شَوْكَةً يُعْبَى انْتِقَاضُ شَبَاتِهَا، أَوْ حَمْضَةً يَشْجَى بِهَا الْمُتَمَلِّحُ (٣)
 وَانْفُضْ يَدَيْكَ مِنَ الثَّرَاءِ فَكَمْ مَضَى مِنْ دُونَ تَزْوَتِهِ الْبَخِيلُ الْمُصْلِحُ
 يَبْقَى لَوَارِثِهِ كَرَائِمَ مَالِهِ، وَلَقَدْ يُرْقَعُ عَيْشُهُ وَيُرْقَحُ (٤)

١- لا بدأ، من لبد بالمكان: أقام فيه.

٢- المزرودة: المبتلعة.

٣- الانتقاض: الاستخراج. الشبابة: حد كل شيء، وإبرة العقرب. الحمضة: ما ملح وأمر من النبات. يشجى، من الشجا: اعتراض عظم أو نحوه في الحلق. المتلمح: أراد الذي يأكلها.

٤- يرقح، من الرقاحة: الكسب والتجارة.

ص: ١٥٤

قَدْ يُنْتِجُ الْمَرْءُ الْعِشَارَ بِجَدِّهِ، وَسِوَاهُ يَعْتَامُ الْفُحُولَ وَيُلْفِخُ (١)
 لَا عُذْرَ إِلَّا أَنْ أَرَى سُرْبَاتِهَا سَوْمَ الْجَرَادِ يَنْوَرُ مِنْهَا الْأَبْطَحُ (٢)
 وَالْهَامُ تَعْتَصِبُ الْعِجَاجَ كَأَنَّهُ فِي الْجَوْ شُؤْبُوبُ الْعِمَامِ الْأَمْلَحُ
 قَوْمِي الْأُولَى ضَمِنَتْ لَهُمْ أَحْسَابُهُمْ أَنْ الزَّمَانَ بِمِثْلِهِمْ لَا يَسْمَحُ
 عَرَكَوْا أَدِيمَ الْأَرْضِ قَبْلَ نَبَاتِهَا، وَاسْتَفْسَحُوا أَعْطَانَهَا وَتَفَيْحُوا (٣)
 فَتَفَّوْا بِشَرِّ الطَّعَنِ أَكْمَامَ الْعُلَى، وَهُمْ جِدَاعُ قِبَائِلٍ لَمْ يَفْرَحُوا
 إِنْ أُخْرِجُوا لَمْ يَجْهَلُوا، وَإِذَا قَضَوْا لَمْ يَفْسُطُوا، وَإِذَا عَلَوْا لَمْ يَبْجَحُوا
 ذَنْبِي إِلَى الْبَهْمِ الْكَوَادِبِ أَتْنَى ال طَرْفُ الْمُطَهَّمِ، وَالْأَعْرُ الْأَقْرَحُ (٤) يُؤَلُونَنِي خُزْرَ الْعُيُونِ لِأَتْنَى
 غَلَسْتُ فِي طَلَبِ الْعُلَى وَتَصَبَّحُوا

١- العشار: النياق. يعتام: يختار.

٢- سرباتها، الواحدة سربة: جماعة الخيل.

٣- تفيحوا: توسعوا.

٤- الطرف: المهر الكريم. المطهم: التام من كل شيء. الأقرح: الذي في وجهه بياض دون الغرة.

ص: ١٥٥

وَجَذَبْتُ بِالطُّوْلِ الَّذِي لَمْ يَجْذِبُوا، وَمَتَّحْتُ بِالْعَرَبِ الَّذِي لَمْ يَمْتَنَحُوا
 مِنْ كُلِّ حَامِلٍ إِحْنَةً لَا تَنْجَلِي غَطْشِي دُجَّتْهَا وَلَا تَتَوَضَّحُ
 ضَبُّ يَدَاهُنِّي، وَيُشْكِلُ غَيْبُهُ مِمَّا يَرْعَى قَوْلَهُ وَيُصْرَحُ
 يَغْدُو وَمِرْجَلُ ضِغْنِهِ مُتَهَرِّمٌ أَبَدًا عَلَيَّ، وَجُرْحُهُ مُتَفَرِّحُ
 مَسِحَتِ جِبَاهِ الْوَانِيَاتِ وَلَطَمَتِ مِنْ دُونَ غَايَتِهَا الْعِتَاقُ الْقُرْحُ
 لَوْ لَمْ يَكُنْ فِي الْقُلُوبِ مَهَابَةٌ لَمْ يَطْعَنِ الْأَعْدَاءُ فِيَّ وَيَقْدَحُوا
 مَنْ خِيفَ خَوْفَ اللَّيْثِ خُطَّ لَهُ الرَّبِيُّ، وَعَوَتْ لِشَهْرَةَ الْكِلَابِ السَّبْحُ
 نَظَرُوا بِعَيْنِ عَدَاوَةٍ لَوْ أَنَّهَا عَيْنُ الرُّضَى لَأَسْتَحْسِنُوا مَا اسْتَقْبَحُوا
 مَا كَانَ مِنْ شُعْتٍ، فَإِنِّي مِنْهُمْ لَهُمْ أودَّ عَلَى الْبِعَادِ وَأَسْمَحُ

ص: ١٥٦

(هذه من علاه إحدى المعالي)

إشارة

(هذه من علاه إحدى المعالي) (١)

اختلاف الشيعة والسنة

حول رؤية هلال ذى الحجة وفروع ذلك

رضا المختارى

أضحت رؤية هلال ذى الحجة فى مكة، والاختلاف الواقع فيها بين الشيعة والسنة فى القرون الأخيرة من المسائل المهمة والمصيرية للحجاج الشيعة، واقرنت أحياناً ببعض المصائب المريرة والمؤلمة... إن عدم اعتماد ثبوت الهلال عند قاضى أهل السنة فى مكة، وبالتالي عدم ثبوت ذلك عند الشيعة، معلول لواحد من الأسباب الآتية أو أكثر:

أ- عدم حجية حكم قاضى أهل السنة، وإن لم يقم علم أو ظن على خلافه.

ب- اختلاف الأفق بين البلدان الشيعة، كإيران مع الحجاز (٢)، واعتماد أبناء كل بلد على أفق بلادهم دون التفات إلى اختلاف الآفاق.

ج- إعلان ثبوت الهلال فى البلدان المختلفة عن طريق وسائل الإعلام، واعتناء أبناء كل بلد بثبوتهم فى بلادهم.

١- مصرع من هائيه الشيخ كاظم الأزرى قدس سره وقد تمثلت به هنا فى مدح الثناء على الإمام الخمينى قدس سره، والمصرع الذى يليه كالاتى: «وعلى هذه فقس ما سواها».

٢- تغرب الشمس فى مكة بعد حوالى ست وأربعين دقيقة من غروبها فى طهران، الأمر الذى يؤثر فى إمكان رؤية الهلال فيها وعدمه فى طهران.

ص: ١٥٧

د- رؤية هلال ذي الحجة في بلد الانطلاق، ثم شد الرحال إلى مكة واحتساب الأيام في مكة طبقاً لرؤية الهلال في البلد الذي انطلق منه.

وسنبحث فيما يلي جوانب مختلفة لهذا الموضوع تحت عناوين عدة:

أ- ذكر موارد لوقوع الاختلاف في ثبوت هلال ذي الحجة في مكة وفقاً للتسلسل التاريخي.

ب- الجهود المبذولة والحلول المقترحة لرفع هذه المشكلة.

ج- اختلاف المصادر الفقهية في ثبوت هلال ذي الحجة، وبحث هذه المسألة فقهياً على نحو الإجمال، وبيان الأقوال في المسألة ومسارها التاريخي في الكتب الفقهية، والخدمة الكبيرة التي قدمها الإمام الخميني للحج من هذه الناحية، ومن هنا جاء عنوان هذه المقالة «هذه من علاه إحدى المعالي»، في إشارة إلى أن هذه واحدة من عشرات الأعمال العظيمة التي أنجزها الإمام الخميني قدس سره للمسلمين.

د- مبني ثبوت وإعلان رؤية هلال ذي الحجة في مكة المكرمة وآليات ذلك.

أ- بيان موارد لوقوع الاختلاف في ثبوت هلال ذي الحجة في مكة وفقاً للتسلسل التاريخي:

يتفق في بعض السنوات أن يكون الداعي إلى الإعلان ثبوت الهلال على خلاف الواقع، وذلك في الأعوام التي يصادف فيها عرفة يوم الجمعة، فيكون الأضحى يوم السبت، وهو المسمى بين أبناء العامة بالحج الأكبر، وفيه يحصل رؤساء مكة على أرباح مادية طائلة. جاء في مذكرات حسام السلطنة:

«يذكر أن السنة التي ثبت فيها القاضى هذه المسألة يسمّى الحج فيها في مصطلحهم بالحج الأكبر، وتمنحه - أى القاضى - الدولة العثمانية عطيةً عامّة تبقى فيه و في عقبه» (١).

١- سفرنامه حسام السلطنة رحلة حسام السلطنة، ص ١٠٥.

ص: ١٥٨

ولتحقيق ذلك: لو صادف العيد يوم الأحد، يتم التلاعب مسبقاً في رؤية الهلال بحيث يتم تقديم الشهر يوماً واحداً، فيقع العيد يوم السبت، وعرفه في يوم الجمعة، فيكون ذلك الحج هو الحج الأكبر.

ذكر عبد الحي الرضوي الكاشاني (متوفى بعد عام ١١٥٢ هـ) في الفصل السابع:

(عزمت الحج في عام ١٠٩٩، فجئت إلى إصفهان، وفي ليلة من ليالي شهر رمضان كنت في مجلس العالم الفاضل المولى الميرزا الشيرواني فسألني: «هل تروح الحج في هذا العام؟» أجبت: أجل. فقال: أخشى أن يحدث هذا الموسم محذور الحج الأكبر، إذ وفقاً للتقويم يقع عيد الأضحى في أول يوم من الأسبوع، ولذلك منعت جمعاً من تلاميذي وأقاربي من الذهاب إلى الحج، فقلت له: لا يسعني تأجيل هذا الحج، فسألني الدعاء، ثم توجهت إلى الحج، وكان هو الحج الأكبر، ولكن لم يحدث خلاف في رؤية الهلال، قال المولى الميرزا في ذلك المجلس: «إذا حدث ذلك يمكن الخروج في الإحرام بالعمرة المفردة»، وقال أحد الحاضرين: إن العلامة المجلسي قد أفتى بجواز الحل بالتضحية. قال المولى الميرزا: «هذه الفتوى خاطئة» فقلت: إنها صحيحة وذلك.. وبعد ذلك سكت الأستاذ.

سمعت أن العلماء في إصفهان وقم وشيراز كانوا يمنعون الحجاج- الذين يعودون إلى وطنهم ولم يكونوا قد أحلوا بالتضحية أو بالعمرة المفردة- من الدخول إلى منازلهم للحيلولة دون ارتكاب الحرام وأمور النكاح، وكان العلماء يطلبون منهم البقاء في المساجد ريثما يشاركون في الحج العام المقبل، كي يحلوا فيه (١).

١- صفويه در عرصه دين فرهنگ و سياست الصفوية في الميدان الديني، الثقافي، والسياسي ٣: ١٠٨٤-١٠٨٣.

ص: ١٥٩

وبما أنه عند وقوع الاختلاف في ثبوت الهلال ويوم عرفه والعيد لا- يستطيع الشيعة- عادة- الوقوف في الوقت الشرعي طبقاً لتشخيصهم، من هنا تحدث لهم مشاكل كبيرة أحياناً. وفيما يلي نشير إلى موارد من هذا الاختلاف:

١- ذكر عبد الحي الرضوي في كتابه المتقدم:

لقد حدثت هذه المشكلة في أيام حياتنا مراراً، حيث يحكم قاضي مكة بثبوت رؤية الهلال بشهادة شخص مغربي مثلاً، وتحدث هذه المشكلة حين لا يسمح للشيعة بالوقوف في عرفات في الوقت الشرعي. ذات يوم ذهب سيد فاضل إلى الحج، فلاحظ أنه لم يشهد أحد برؤية الهلال، ولما كان محرماً لازم مكة إلى العام المقبل، ثم عاد إلى وطنه بعد أداء الحج.

مسألة هلال ذي الحجة غدت مسألة مصيرية وخلافية بين المسلمين

حجّ الفاضل القزويني، ولما اشتبه الأمر، لم يجار أبناء العامة، فعلم بذلك رؤساء مكة وأمروا بقتله، فاختبأ في تنور وخرج من مكة، وأقام في ضواحيها إلى العام المقبل حيث حجّ متكرراً.

و حجّ فاضل آخر اسمه المولى زين العابدين (الكاشاني)، ولما لم يتابعهم، قتلوه. (١)

١- طبعاً هناك أسباب أخرى وراء مقتل الشيعة في المدن السنية، وللوقوف على مقتل المولى زين العابدين وكيفية ذلك راجع كتاب علل برفاتادن صفويان «أقول الصفويين»: ٣٦٣-٣٦٥.

ص: ١٦٠

... وكان أحد علماء كاشان، وهو المولى هادي، يرى هذا الحج صحيحاً ومجزياً عن حجة الإسلام. وقد حدثت هذه المسألة مرة أخرى أقام فيها سيد فاضل اسمه مير عبد الغنى مع جماعة في مكة، لم يتمكن العرب الذين جاؤوا الحج النيابي من الحج في الموسم، ولذلك لم يستنبهم الناس في الحج التالي، لأنهم كانوا يرونهم محرمين (١).

٢- حدث مثل هذا الاختلاف في عام ١٢٦٠، فقد ذكر محمد ولي ميرزا في مذكرات حجه ذلك قائلاً:

لما ثبت عند باشا الشام الهلال يوم الأربعاء بشهادة أعرابيين بدويين، وحكم بأن الخميس هو يوم عرفه، خلافاً للقاضي والشريف اللذين كانا يذهبان إلى أنه يوم الجمعة، جئنا إلى منى من خوفنا وصلينا في الليل هناك، وبعد سعي حثيث وجهد جهيد أفنعنا الشريف بإعطائه خمسمائة غازي (٢)، فسمح لنا بالبيت في عرفات ليلة الجمعة ونهاره، فبقينا هناك وجمعنا الخمسمائة غازي بعد عناء طويل (٣).

٣- حج اعتماد السلطنة في شهر شعبان عام ١٢٦٣ مع جماعة من بغداد ولما بلغ حمص في سوريا أواخر شهر رمضان من تلك السنة بدأ الخلاف في ثبوت الهلال:

كان يوم الجمعة الثامن والعشرين من شهر رمضان، فتوقف حجاج بيت الله في مدينة حمص، وإذا بصوت المدفع قريب الظهر يدوي معلناً عيد الفطر، بعد ثبوته لدى مفتي الشام، وبعد الفحص والتحقيق لم يستطع أحد رؤية الهلال ليلة السبت، ولم يُر الهلال إلا في ليلة الأحد بعد مضي يومين على أعياد السادة (٤).

١- صفويه در عرصه دين، فرهنگ وسياسة الصفوية في الميدان الديني، الثقافي والسياسي ٣: ١٠٨٣-١٠٨٤.

٢- عملة نقدية من المسكوكات القديمة.

٣- رحلة محمد ولي ميرزا: ٢٤٥، مطبوع في كتاب به سوى أم القرى «إلى أم القرى».

٤- رحلة الحاج علي خان اعتماد السلطنة: ٨٥.

ص: ١٦١

و يتضح في كلماته التالية أن الشيعة عملوا وفقاً لمذهبهم في ثبوت الهلال والوقوف في عرفات وسائر المناسك: أمضى الحجاج (الشيعة) يوماً هادئاً في مكة... وعليهم في صبيحة الثامن... ارتداء ثياب الإحرام ثانية على الحالة الأولى... وفي الغد ذهب السنّة إلى مكة، وحتى إذا لم يشتهب الأمر في رؤية هلال ذي الحجة بين الشيعة والسنّة، وقدم العمل بمناسك الحج يوماً طبقاً لفتوى مفتي الطائف، لكان (في جانب الله) وبِقضاءٍ منه، وإلا لو حصل خلاف ذلك لشقّ الأمر على الشيعة بسبب كثرة الجموع (١).

٤- حجّ العلامة مير حامد حسين الهندي، صاحب عبقات الأنوار، عام ١٢٨٢، وقد ذكر في مذكرات حجّه في تلك السنّة الخلاف في ثبوت هلال ذي الحجة بين الشيعة والسنّة:

... في يوم الاثنين التاسع والعشرين من شهر ذي القعدة، كنا أثناء الطريق عند الغروب عندما رأينا هلال ذي الحجة... وفي صبيحة يوم الخميس الثالث من ذي الحجة ١٢٨٢ وصلنا إلى مكة المكرمة. وقد اختلفنا مع السنّة في يوم واحد. للأسف لا نتمكن من الإحرام في يوم التروية، لأن أبناء العامة أعلنوا اليوم السابع من ذي الحجة تامناً وغادروا مكة، ولم نتمكن من البقاء في مكة، ولذلك أحرمانا بعد العشاء وأفضنا إلى منى. فبلغناها في بدايات الليل، فبقى بعض الحجاج وحجاج إيران الذين كانوا معنا في منى، أما نحن فواصلنا

ص: ١٦٢

طريقنا وبلغنا عرفات قبل طلوع الشمس... وفي يوم الثلاثاء الثامن من ذي الحجة، وعند اللحظات الأخيرة منه، ترك السنّة عرفات، لأنهم اعتبروا الثلاثاء اليوم التاسع، إلا أن الحجاج الإيرانيين والهنود وجميع أتباع المذهب الإمامي بقوا فيها. في ظهر الأربعاء نوينا الوقوف في عرفات وبقينا فيها حتى غروب الشمس، وبعدها توجهنا إلى المشعر الحرام... في الخميس وصلنا إلى منى... ثم تحركنا لرمي جمرة العقبة... بعد تناول الغداء مقرّنا وخرجنا في الإحرام (١).

٥- حجّ فرهاد ميرزا عام ١٢٩٢، وبما أنه كان عالماً وأميراً في الوقت نفسه، فحينما أحسّ بإمكان وقوع الاختلاف أوعز إلى سعيد باشا أمير الحج قائلاً:

أنا عالم وأرى الخميس غرّة، فإن اختلفتم فعسكروا، وسأبقى يوم الجمعة في عرفات، وإنى لا- أجعل علمي وديني تابعاً للتقويم الاسطنبولي.

لقد استفهم منى الشيعة من كافة البلدان والعجم البالغ عددهم حوالي خمسة آلاف، فقلت لهم: إننى سوف لا أذهب اليوم، كما أن العجم غير مأذونين بالذهاب، وامثل لى الجميع، ولم يغادر مكة منهم أحد (٢).

إلا أن الموكب الشامي والمصرى توجه قبل يوم- يوم الأربعاء- نحو منى، ولم يذهب فرهاد ميرزا الذى كان يرى الجمعة يوم عرفة.

٦- وقد وقع هذا الاختلاف عام ١٢٧٩، فقد ورد:

فى ليلة الجمعة الثانى من ذى الحجة اشتهر بين علماء أهل السنّة أن الليلة هى ليلة عرفة، فتوجه الجميع بحمد الله نحو منى (٣)، الأمر الذى

١- ميقات الحج، العدد ١٤: ١٦٨-١٦٩ من الهند إلى مكة.

٢- رحلة فرهاد ميرزا: ٢٠٠-٢١٠.

٣- رحلة بنت فرهاد ميرزا: ٢٨٢.

ص: ١٦٣

أسعد الحجاج الإيرانيين، حيث خلا لهم الجوّ في المسجد الحرام وتمكنوا من استلام الحجر الأسود. (١) كما ذكر حسام السلطنة في هذه المناسبة من تلك السنة:

منع قادة القوافل الإيرانية من التحرك في يومهم، وتعيّن عليهم الحركة في اليوم الثاني. ثم أضاف:

تابعنا أكثر الشيعة ولم يغادروا، وفي عرفات «كان المخيم الشامي والمصري مع شريف مكة إلى اليمين، وكان مخيمنا مع جميع الشيعة إلى اليسار». أقام الشيعة تلك الليلة في منى وأقاموا الصلاة بإمامة الميرزا حبيب الله الرشتي، من مراجع النجف (٢).

٧- ذكر الميرزا محمد حسين الفراهاني حج عام ١٣٠٢ فقال:

أصرّ السنّة على وقوع عرفات في يوم الجمعة، وذلك لكي يحصلوا على الحج الأكبر، ولأجل أنه إذا وقع عرفات في يوم الجمعة سيستحق القضاء علاوة على وظائفهم من الدولة، وتكثر النذور بسبب الحج الأكبر... أما الشيعة وأكثرهم من الإيرانيين، قرابة ستة آلاف نسمة، فلم يكن هناك من رأى الهلال، لذا جعلوا السبت يوم عرفة (٣).

٨- في عام ١٣٠٥ أعلن ثبوت الشهر قبل يوم كي يحصل الحج الأكبر، فقال نايب الصدر الشيرازي:

١- المصدر نفسه: ٢٨٢.

٢- رحلة حسام السلطنة: ١١٩-١٢١.

٣- رحلة الميرزا محمد حسين الفراهاني: ٢٠٧، نقلًا عن المقالة المتقدمة.

ص: ١٦٤

حكم القاضي بأن اليوم هو الثاني، فلم يكن هناك سبيل إلا متابعتة (١).

لذا توجه الجميع قبل يوم من التروية، أي في اليوم السابع، إلى منى، وفي صبيحة اليوم التالي توجهوا نحو عرفات، وفي الليل وبينما كان مئة وخمسون الف سني يتحركون من عرفات إلى المشعر أحيا تلك الليلة قرابة ثلاثين ألف شيعي من شيعة علي بن ابي طالب عليه السلام.

وقد أوضح نائب الصدر أنه حينما يحصل اختلاف في هذه المسألة ويتأخر الشيعة يوماً واحداً، كان شريف مكة يترك شخصين من أبناء عمومته مع الشيعة، حتى يساعدهم على المشاكل المحتملة (٢).

٩- قال ظهير الملك بشأن حج عام ١٣٠٦:

شوهه الهلال البارحة أثناء الطريق، وكان مرتفعاً جداً، وبحمد الله رُفِعَ هذا الاختلاف (٣).

في حين أعلن السنة الليلة السابعة أول الشهر، ومنه اشتد الخلاف ووقف الشيعة في عرفات بعد السنة بيوم، واستمر هذا التأخير حتى نهاية أعمال الحج، قال ظهير الملك:

رغم أن اليوم هو الثامن فقد اعتبره السنة تاسعاً، ولذلك يعتزمون عصر هذا اليوم الذهاب إلى عرفات، وسنتبعهم إن شاء الله بالهدوء وحدنا (٤).

١٠- قال المولى إبراهيم الكازروني بشأن حج عام ١٣١٥:

١- رحلة نائب الصدر الشيرازي: ١٧٤، نقلًا عن المقالة المتقدمة.

٢- المصدر نفسه: ١٧٩، نقلًا عن المقالة المتقدمة.

٣- رحلة ظهير الملك: ٢٧٥.

٤- المصدر نفسه: ٢٥٨.

ص: ١٦٥

رأينا الهلال في ليلة الجمعة غرة ذي الحجة الحرام، وكان مرتفعاً جداً، مما أدى إلى ظهور الخلاف بين الفريقين، ولذلك توقفنا في عرفات يومين، وقصدنا نية الوقوف في ظهر الأحد التاسع، الذي كان عاشراً عند أهل الخلاف، إلى غروب الشمس. (١) ١١- حج المرحوم الحاج سراج الأنصاري قدس سره عام ١٣٥٠، وفي هذا الشأن قال في معرض حديثه مع حمزة غوث سفير السعودية في إيران عام ١٣٦٧:

... حججت عام ١٣٥٠، ونزلنا أثناء الطريق بين مكة والمدينة لاحتمال كونها الليلة الأولى من شهر ذي الحجة الحرام، واستهل جميع الحجاج فلم يتمكن أحد منهم من رؤية الهلال. والذي أثار شكوكي أن أحد زعماء القوافل وكان أعور وقف إلى جانبي مستهلاً وأقر بعدم رؤيته للهلال، ولكن ما إن وصلنا إلى مكة حتى كان هذا الرجل أحد شهود الرؤية، وتم الإفتاء على طبق شهادة مثل هؤلاء الشهود (٢).

١٢- حج المرحوم السيد فضل الله الحجازي عام ١٣٦٢ هـ. الموافق ل ١٣٢٢ هـ. ش. مع جماعة من شهرضا، وبناءً على ما قاله في مذكرات رحلته (الرحلة الحجازية)، وقع خلاف في رؤية الهلال بين الشيعة والسنة في هذا العام أيضاً، وفي هذا العام نفسه حدثت واقعة القتل الفجيع للميرزا أبي طالب اليزدي قدس سره، ويظهر من بعض التقارير أن الخلاف المذكور كان دخيلاً في استشهاده، ذكر الحجازي في هذا الشأن:

كان الخامس من ذي الحجة أو السادس على رأى العامة يوم الجمعة... وفي اليوم السابع من ذي الحجة- الذي كان ثامناً

١- رحلة المولى إبراهيم الكازروني: ٣٦١، ٣٦٣، مطبوع في تراث ايران الإسلامى، ج ٥.

٢- الحاج مهدي سراج الأنصاري: ٢٤٧-٢٤٨.

ص: ١٦٦

عندهم- توجهنا إلى منى... وفى الصباح أفضنا من المشعر وجئنا إلى منى. وقد أعلن العامة هذا اليوم عيداً، وأطلقوا المدافع وجاؤوا بأعمال العيد، إلا أننا كنا على يقين من أن اليوم هو التاسع، كنا نريد الذهاب إلا أننا كنا نخاف المنع. بقينا إلى ما بعد الظهر وعندها تحركنا نحو عرفات، وفى أثناء الطريق صادفنا سيارة فأقلتنا، ولم يمض وقت طويل حتى دخلناه، وبدت لنا الخيام من بعد وشاهدنا جمعاً غفيراً، وكان الناس جماعات جماعات منهمكين بالدعاء وتلاوة القرآن والزيارة والتوبة والإنابة، وقد سادت عرفات حالة من السعادة والحبور، وكان جلياً أن اليوم هو يوم عرفة. وقد بقينا حتى نهاية النهار حتى أتت قوات من الشرطة إلى عرفات، وأرغمت الناس على ركوب السيارات، وأخذوهم إلى جهة منى والمحاكم للتحقيق، وظهر ضجيج غريب. وكان الناس يفرون إلى شتى الجهات. أوصيت رفقتى بعدم الخروج من عرفات قبل الغروب وليكن هروبكم نحو اليمين والشمال دون تجاوز حدود عرفة.

ص: ١٦٧

وفي الأثناء اضطرب الجو وتلبدت السماء بالغيوم وهطلت الأمطار بشدة. أخذ الشرطة جماعةً وذهبوا بهم، فأصبحت عرفات آمنةً وظهرت آثار الغروب. فأذن المؤذن وخرجنا من عرفات. كان الجو بارداً بعض الشيء والسماء تمطر، وكنا حفاة حاسرين ولم يكن علينا سوى ثوبى الإحرام، ولكننا دخلنا منى فرحين، وأمضينا الليل في الخيمة واستيقظنا سحرًا، وتوجهنا نحو المشعر وصادفنا شرطياً فرشونا، وواصلنا الطريق، وأدركنا الوقوف الإختياري في المشعر، وعدنا في الصباح إلى منى، وجئنا بأعمال العيد، وقد شاركنا بعض أبناء العامة في هذا الاحتياط.

بعد الرجوع من منى اختلفت الأوضاع، وأخذ العرب ينظرون إلى العجم بعداء، بل كانوا يغلطون القول ويشتمون، وسمع أن بعض تجار مكة لا يتعاملون مع العجم! وقد شاهدت بأم عيني بعض المصريين وغيرهم من العرب في المسجد الحرام، وقد أمسكوا برجل إيراني وهم يضربونه، وكان الآخرون يشجعونهم على ذلك ويقولون: «جزاك الله خيراً، جزاك الله خيراً!»، فسألت شخصاً عن السبب، فأجابني: إن العجم قد انتهكوا حرمة المسجد، وهل هناك ذنب أشد مما قام به إيراني البارحة من تنجيس المسجد الحرام! قلت: معاذ الله. إن المسلم لا يرتكب مثل هذا العمل، فهل يعقل أن يقوم إيراني مسلم بتحمل مشقات الطريق ونفقاته الباهظة (عشرة آلاف تومان أو خمسة آلاف تومان في الأقل) ليأتي إلى مكة، وينجس المسجد الحرام؟! (سبحانك هذا بهتان عظيم!).

في اليوم الثالث عشر من ذي الحجة أو الرابع عشر عند العامة، كنا بعد الظهر في المسجد الحرام، فشاهدت اضطراباً في الناس، وكان

ص: ١٦٨

العرب يقيمون الأفراح ويهنتون بعضهم قائلين: قتل العجمي، قتل العجمي! وحينما يصادفون الإيرانيين يشيرون إلى رقابهم ويقول: «كل عجمي يذبح!» (١).

جاء في تقرير السفارة الإيرانية المرقم ٧٧/ح/١٦٤ بتاريخ ٣٠/٩/١٣٢٢ هـ. ش. بهذا الشأن:

... علاوة على ما أصاب الحجاج من البؤس في هذه السنة، فقد وقع الكثير من المآسى هناك، وأدى ذلك إلى مقتل أحد الحجاج الإيرانيين، وبما أن سفارة مصر الحامية لمصالح الإيرانيين لم تقدم تقريراً إلى سفارتنا بهذا الشأن، ولم يأت أحد من الحجاج حتى الآن، فلم تحط السفارة علماً بهذا الموضوع، حتى عاد السيد باقر الكاظمي - الذي حج عن طريق مصر، عاد أمس (الثلاثاء ٢٩/آذر/١٣٢٢ هـ. ش.) على متن أول سفينة للحجاج، ونقل أخبار هذه الحوادث، وهاهنا نقل خلاصة إفاداته لإطلاع المعنيين: في بداية أيام الحج حيث لم يكن عدد الحجاج الواصلين إلى الحجاز كبيراً، سمعنا وصول برقية من العراق تقول: إن قرابة خمسة آلاف إيراني في طريقهم إلى الحج. وبما أن الحكومة الملكية لم تجز للحجاج الإيرانيين بالسفر لم نتوقع خروج هذا العدد الهائل من إيران إلى العراق تهريباً... ولم يمض طويل وقت حتى اتضح أن حوالي ستة آلاف إيراني قد ذهب إلى الكويت، وأن مجموعة أخرى ذهبت إلى العراق تحت غطاء زيارة المراقد المقدسة، وهناك قصدوا الحج وتحركوا نحو الحجاز، وأن ألفي شخص منهم اضطر إلى العودة لعدم

١- ميقات الحج، العدد ١٦: ١٦٣، ١٧٦، ١٧٧ «الرحلة الحجازية».

ص: ١٦٩

توفر واسطة النقل، وجاء إلى الحجاز أربعة آلاف شخص منهم...

وبالنظر إلى الاختلاف في رؤية هلال ذي الحجة كان في هذا العام- كأغلب الأعوام- خلاف في يوم العيد، وقد كان الأربعاء عيداً في إيران وأفغانستان والعراق وسوريا وحتى مصر، إلا- الحجاز، حيث أعلن العيد يوم الثلاثاء، وذهب سائر الأفراد إلى العمل طبقاً لأفق المكان وشهادة الشهود على رؤية الهلال كما عليه السعودية، إلا أن الإيرانيين وعدداً من شيعة العراق، وبسبب عدم رؤية الهلال وعدم قبولهم لشهادة الشهود السعوديين، تحدثوا معي (السيد الكاظمي) ومع السيد باقر البلوط (رئيس تشريفات البلاط العراقي) وعبد الهادي الجبلي من أعيان الشيعة في العراق كي نحصل على إذن بوجود موقفين، أي بعد الوقوف في عرفات في يوم الاثنين التاسع من ذي الحجة، أن يكون هناك وقوف ثانٍ في يوم الثلاثاء لكونه اليوم التاسع من ذي الحجة عند الشيعة. فقلنا لهم: إن هذا ليس عملياً، وقد سبق أن حصل اختلاف في رؤية الهلال، ومع ذلك فإن الدولة السعودية لم تسمح بتعدد الوقوف، بل ترى أن هذا يؤدي إلى إحداث الاختلاف والشقاق بين المسلمين ولا تراه جائزاً شرعاً، بل يرون المطالبين بذلك مخالفين للوحدة بين المسلمين وسيعاقبونهم بشدة، وبما أنهم يرون الوقوف في عرفات ركناً من الحج يسعون إلى أن يكون وقوفهم هذا صحيحاً، بحيث إن الملك ابن سعود نفسه يأمر أشخاصاً من ذوى النظر الحاد برؤية الهلال، وهناك الكثير في مختلف مدن نجد يتصدون لرؤية الهلال في اليوم المذكور، وتبلغ برقيات من جميع النواحي بهذا الصدد، وأن قاضي الشرع يدقق في شهادة الشهود بشدة، من هنا فإنهم يعتبرون عدم قبول فتوى حاكم الشرع

ص: ١٧٠

إهانة شديدة. مضافاً إلى أن الإصرار على هذا الموضوع غير مفيد، فإنه قد يضع الحجاج الشيعة في خطر. ولحسن الحظ فقد قام سماحة السيد أبو الحسن الإصفهاني بإرسال السيد إبراهيم شبر نيابة عنه إلى الحجاز ليبلغ الشيعة برأى سماحته في هذا النوع من الاختلافات. فالتقيت به وتحدثت معه بهذا الخصوص.

فقال: إن سماحة آية الله الإصفهاني قال لي: إذا اتضح أن ثمة خطر في تعدد الوقوف جاز على طبق المحل. فاتفقنا على أن يقوم السيد إبراهيم شبر بإبلاغ الحجاج بذلك. كما قمت أنا والسادة الآخرون بدورنا بإبلاغ الحجاج بهذا الموضوع واتفقنا على عدم التطرق أبداً حتى لا يقع خلاف بين الشيعة والسنة ولا يتعرض الحجاج الإيرانيون للخطر.

لكن علمنا بعد ذلك أن مجموعة من الإيرانيين قد رفعت إلى الملك ابن سعود عريضة باللغة الفارسية تطلب منه الأذن بالذهاب إلى عرفات يوم الأربعاء الذي كان هو اليوم التاسع من ذي الحجة وفقاً للتقويم الإيراني، ويوم عيد الأضحى وفقاً لحساب الحجاز. الأمر الذي أغضب الملك، وأمر رئيس الشرطة بحبس كتاب العريضة ومعاقبتهم بشدة، وقد تم حل الموضوع بشكل مناسب على حدّ تعبير رئيس الشرطة.

وبما أنني كنت ساكناً في مضيف البنك المصري، فقد ذهبت مع الحجاج المصريين إلى منى وعرفات طبقاً للمحل، وأتيت بمناسك الحج، ولكن برغم ذلك كله اتضح أن عدداً كبيراً من الإيرانيين وشيعة العراق قد توجهوا إلى عرفات يوم الأربعاء حيث تقرر رجوع الجميع إلى منى.

ص: ١٧١

قال رئيس إدارة الشرطة في الحجاز: في عصر اليوم المذكور أبلغني الملك بواسطة الهاتف غاضباً أنه أحيط علماً بأن عدداً من الحجاج الإيرانيين قد ذهبوا إلى عرفات، وأمر باعادتهم فوراً وبشتى السبل، فتوجهت إلى عرفات برفقة عدد كبير من الجنود، وشاهدت هناك عدداً كبيراً كما يحصل في يوم الوقوف، وقد قام بتحريكهم بصعوبة، إلا أنهم لم يكتفوا بذلك، وذهبوا إلى المشعر الحرام أيضاً، وقام هناك بصعوبة بالغّة بنقلهم إلى منى، وطبقاً لادعائه فإنه أبلغ الملك أن هذه المجموعة لم تخالف الإجماع وأنها لم تذهب إلى عرفات للوقوف مجدداً، بل اضطرت للبقاء هناك لعدم حصولها على واسطة نقلية.

ومهما كان فقد تركت هذه الحركة أثراً سيئاً على الملك ابن سعود ورجال الدولة المتعصبين، واعتبروها إهانة شديدة، وأضرموا حقدهم وفكروا في الانتقام.

وبعد رجوع الحجاج من منى وانتهاء مناسك الحج، سمعنا أن شخصاً إيرانياً ألقى القبض عليه بتهمته تدنيس الحرم المطهر في مكة المكرمة، ثم أحضره موثقاً أمام إدارة الشرطة بين الصفا والمروة، وبعد قراءة الحكم ضرب رأسه بالسيف.

وقد التقاني أمير الحج المصري، وسألني عن هذا الموضوع والفرقة الشيعية التي ينتمي إليها ذلك الشخص، فرفعت الاشتباه عنده وقلت له: لا ينبغي لأى عاقل تصديق مثل هذه التهم استناداً إلى شردمة من الجهال المتعصبين... (١) ١٣- حجّ الشيخ آغا بزرك الطهراني عام ١٣٦٤، وقد حصل في ذلك العام

١- أسناد روابط إيران وعربستان: ٩٩-١٠٢.

ص: ١٧٢

اختلاف في رؤية الهلال أيضاً، وقد ذكر في مخطوط مذكراته في هذا الشأن:

تشرّفنا- في يوم الثلاثاء الذي هو أول ذى الحجة عند السعوديين ولم يُر فيه الهلال بالمدينة للغيمة المتراكم- في صبيحة ذلك اليوم أوّلاً إلى مسجد قبا...

... وبعد الفريضة في عصر يوم الثلاثاء أحرمنّا للحج، وفي أول ليلة الأربعاء خرجنا إلى منى، وبتنا بها حتى النهار، فارتحلنا إلى عرفات واقفين بها مع الناس حتى أفاضوا منها إلى المشعر الحرام في أول ليلة الخميس وبتنا بالمشعر ووقفنا بين طلوعى الفجر والشمس، ثم عُمدنا إلى منى لرمى الجمره بالعقبه، وذبحنا ولكن لم نُجَل، وبقينا يوم الخميس الذى هو عيد الجمهور محرماً حتى الليل، فذهبنا ليلة الجمعة إلى عرفات ثانياً وأدركنا الوقوف الاضطرارى بها، ورجعنا إلى المشعر قبل الفجر ووقفنا بها بين الطلوعين من يوم الجمعة فأدركنا الوقوف الاختيارى من المشعر والاضطرارى من عرفات بعدما توقّفنا الوقوفين الاختياريين مع الجمهور. وفي يوم الجمعة رجعنا إلى منى ورمينا الجمره وذبحنا ثانياً وحلّقنا...

ولم ير الهلال في ليلة الخميس مع سلامة الأفق من الغبار وغيره، ومع بذل الجهد من جماعة في الاستهلال، فصار شهر ذى الحجة على حساب القوم واحداً وثلاثين يوماً (١).

١٤- حجّ آية الله السيد محمود الطالقانى قدس سره عام ١٣٧١ هـ. الموافق ل ١٣٣١ هـ. ش، وقد بين قصة الاختلاف في ثبوت هلال ذى الحجة من تلك السنه بالتفصيل الآتى:

١- تراث الحديث الشيعى ١: ٤١٦-٤١٧، ترجمه الشيخ آغا بزرك الطهرانى، بخط يده.

ص: ١٧٣

ذهب التقويم الإيراني إلى أن السبت هو أول الشهر، ونحن بانتظار تقرير الوضع هنا، وإذ بنا نفاجاً بإعلان الحكومة ليلئ الخميس برؤية الهلال، وثبت أن يوم الخميس هو أول الشهر، وقد أحدث هذا الخبر اضطراباً بين الإيرانيين حيث كان الاختلاف في يومين! فما هو العمل؟

وأخذ الحديث يدور بين عامة الحجاج حول حكم الحج، ويراجعون العلماء، فيماذا يجب العلماء؟ وفي هذه الأثناء وصل آية الله الكاشاني إلى مكة، فاستولى السرور على بعض البسطاء، ظناً منهم أن بإمكانه حل الاختلاف أو صرف الحكومة عن قرارها أو السماح للحجاج بتكرار العمل!

فذهبنا للقاءه، وأخذنا نسال الباعة والمسؤولين في الحكومة عنه، ورغم أن جميع الشخصيات تضمحل أيام الحج في مكة إلا أن دخوله كان محسوساً للجميع! فأرشدونا إلى دائرة الأمن العام، اجترنا المسجد الحرام وسألنا رئيس الدائرة عن محل إقامة السيد، فأرسل معنا بعض الشرطة، وكان بالقرب من أحد أبواب البيت غرف اصطف عدد من العسكريين قبالتها.

صعدنا السلالم ودخلنا في غرفه كان السيد جالساً، إلى جانب الأبواب المشرفة على البيت، فاتضح أنه كان يرانا من مكانه وينتظر قدومنا، وبعد الترحيب تباحثنا بشأن الاختلاف حول الهلال، فقال بعض مرافقيه: تمت رؤية الهلال ليلئ الجمعة في بعض أنحاء إيران، وادعى بعض الرؤية.

وفي هذه الأثناء كان عدد من الذين أرسلهم للقاء ولي العهد السعودي يتحدثون عن اللقاء به وما رأوه من التشريفات. كنا نتطلع إلى معرفة ما إذا كانوا قد توصلوا إليه في هذا اللقاء بشأن العلاقات الدولية-

ص: ١٧٤

الإسلامية، أو إصلاح أمر الحاج والحجاج الإيرانيين، إلا أن الحديث كان منصّباً على وصف الغرف والبيوت وكيفية الضيافة! قال أحد الذين ذهبوا إلى ذلك اللقاء: «كان مكانك خالياً يا أخي. لقد كان الهواء في غرفة الأمير بارداً مثل منطفئة دربند!».

وكانت حركات البعض مقززة حتى أنها لفتت أنظار الجنود السعوديين، ماذا يمكننا أن نفعل؟! إن الفساد يصيب الفاكهة اللذيذة أكثر من غيرها!

حلّ الظهر وارتفع الصوت بالأذان من المسجد الحرام! وانتظمت دوائر المصلين خلال بضع دقائق وامتأ المسجد إلى الأروقة، وقام بعض الجنود المكلفين بحراسة السيد بالاعتداء في مكانهم، وكان الأجدد بنا أن نلتحق بصفوف الجماعة كما أرشدنا الأئمة الأطهار عليهم السلام، إلا أننا ظللنا أماكننا حتى انفصلت الصلاة، وكان بعض الجنود ينظرون إلينا مندهشين، فطلبت من السيد أن يقوم للصلاة مباشرة، فقام السيد وقام بعض الحجاج الإيرانيين بمجاورتنا. وكان الجنود السعوديون يفسحون لنا الطريق، فدخلنا المسجد، وكان بعض الحجاج المصريين وغيرهم واقفين ينظرون إلينا، فشرعنا في أداء الصلاة، وكان بعض الحجاج يشيرون لبعضهم ناحية السيد، وكان من الممكن استغلال هذا الاهتمام والاحترام والشهرة، للتقريب بين المسلمين ورفع سوء التفاهم، إلا أنه كان في فترة نقاهة وإبلال في المرض وخاضعاً للضغوط الفكرية، كما كان العقلاء والصلحاء في حاشيته قلة قليلة...

... كان الاختلاف في رؤية الهلال وما يتعين فعله في الغد أهم بحث يدور بين الحجاج الإيرانيين، وفي هذه الأثناء قيل: إن الحجاج

ص: ١٧٥

المجاورين لنا من أهالي جبل لبنان، وهم من الشيعة، يقولون: إنهم شاهدوا الهلال في لبنان ليلة الجمعة، فدعونا من بين من يدعى الرؤية منهم اثنين مكتملين كي يشهدا، وجاء عدد من علماء إصفهان وغيرها من المدن كي يسمعا شهادتهما! قام السيد الإصفهاني بلغته العربية المهشمة والمطعمه بلهجته الإصفهانية بإرباكهما بكثرة أسئلته حول موقع الهلال في ناحية الشرق؟ ومقدار ارتفاعه في الأفق؟ واتجاه طرفي الهلال؟! حتى هرب أحدهما وظل الآخر مرابضاً، وأخذ يجيب عن الأسئلة، لقد كان الخلاف بين الخميس والجمعة.

سألني أحد الفضلاء: ماذا ستفعلون؟ فقلت له: ما هو الحل برأيكم؟

فقال: إذا لم يثبت الهلال عندنا فغداً سيكون تاسعاً إذا استطعنا فعلينا أن ندرک كلا الموقفين، فغداً ظهرنا نقف في عرفات، وغداً ليلاً في المشعر، وإلا فلا بد من إدراك أحدهما، وعليه لا بد غداً من إدراك المشعر ليلاً إلى ما قبل طلوع الشمس. فقلت: أما أنا فسوف لا أفعل ذلك، فلا الاجتهاد يفرضه ولا التقليد!

قبل ثلاثة قرون لم يكن في المصنفات الفقهية خلاف في مسألة الهلال بين السنة والشيعة

إن مسألة الاختلاف في هلال الحج من المسائل المستحدثة! فقد حج المسلمون بعد ارتحال الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وحتى هذا العام ألفاً وثلاثمائة واثنين وستين مرة (١). ولم يحدث خلاف في رؤية الهلال

١- الصحيح هو ألف وثلاثمائة وواحد وستين مرة؛ فقد كان حج السيد الطالقاني باعترافه عام ١٣٧١ هـ. ق. الموافق ١٣٣١ هـ. ش، وكانت مغادرته لإيران في ١٨/ ذى القعدة/ ١٣٧١ هـ. ق، الموافق ل ١٩/ مرداد/ ١٣٣١ هـ. ش، راجع كتاب «به سوى خدا می رویم».

ص: ١٧٦

سواء في عصر الأئمة أو بعده إلا- في هذه السنوات الأخيرة بعد التقدم التكنولوجي في وسائل النقل وتوثيق العلاقات، حيث يأتي الحجاج الإيرانيون بتقويم المنجّمين الإيرانيين أو تسمعون من المذيع أو المسافرين أن هذا اليوم هو اليوم الأول في إيران فيما تعلن الحكومة هنا يوماً آخر، مضافاً إلى وجود الظنون السيئة، لذا يقال: كما أننا لا نذهب إلى مذهبهم فلا نقبل هلالهم، فنحن نتبع أفقنا الذي هو أفق الشيعة. فهل هذا من الموارد التي يسوغ فيها التعصّب؟! إننا شئنا أم أبينا نتواجد في أرض الحجاز فعلياً اتباع الأفق في الحجاز...

فعلى قولكم، باستثناء الأعوام التي يكون فيها الهلال مرتفعاً ويراه الجميع- وهو قلما يحصل- لا بد من حصول هذا الاختلاف ولا بد من هذا الاحتياط! سواء اتفقت رؤية الهلال في إيران والحجاز أو اختلفت، لأن أول الشهر في إيران بسبب اختلاف الأفق لا يكون حجّة على الحجاج، ومن ناحية أخرى فإنكم لا تثقون بإعلان الدولة هنا!

... ثم اتضح فيما بعد أن جماعة ذهبت البارحة إلى المشعر وتعرضت للمشاكل، وكان أحد الفضلاء قد كسر ضلعه وكان يأن ويكتّم عنا وجعه...! (١) ١٥- حجّ المرحوم آية الله السيد أبو القاسم الكاشاني قدس سره عام ١٣٧١ هـ. ق.

الموافق ل ١٣٣١ هـ. ش، وكما تقدم في تقرير آية الله السيد محمود الطالقاني الذي حج في العام نفسه، فقد حدث الاختلاف في هذا العام أيضاً، وقد توجه السيد جعفر الرائد بوصفه مدير المكتب المرافق لمظفر أعلم، سفير إيران في السعودية، إلى جدة، وكان مرافقاً لآية الله الكاشاني أثناء الحج، وقد ذكر في هذا الشأن ما يلي:

١- به سوى خدا می رویم: ١٧٥-١٨٤، ١٨٨.

ص: ١٧٧

... حصل ذلك العام اختلاف بين السنة والشيعة في رؤية هلال ذي الحجة، وكان آية الله الكاشاني يرجو من السلطات السعودية السماح للشيعة بأداء مناسك الحج بعد يوم، إلا أن الأمير السعودي لم يكتف بعدم السماح، بل امتعض من هذا الطلب، لأنه رأى فيه بداية انقسام كبير بين المسلمين - شيعه وسنة - في موسم الحج، فأمر بإرسال عدد كبير من الجنود إلى مخيم آية الله الكاشاني ومظفر أعلم سفير إيران حتى يحول دون الانقسام في أداء مناسك الحج من جهة، ولمنع من يحاول الاعتداء على الشيعة تحت هذه الذريعة من جهة أخرى (١).

ذكر السيد كاظم الآزرى القائم بالأعمال القنصلية في السعودية، في تقريره المرقم ٧٠٩ بتاريخ ٢٢ / ٧ / ١٣٣١ هـ. ش:

... في الثامن من ذي الحجة كان الحجاج الإيرانيون في ضيق شديد بسبب الاختلاف بيومين في رؤية الهلال بين التقويم الإيراني والحجازي، وكانوا يراجعون سماحة السيد لحل هذا الإشكال والوقوف الاضطراري ليوم عرفه في اليوم التالي، وقد عقد العزم على مفاوضة الجهات المعنية في الحكومة السعودية بهذا الشأن، ومع الأخذ بنظر الاعتبار التجارب التي كانت عندي، ذكرت له عدم جدوائية ذلك، بيد أنى أنجزت أوامره بعد إصراره عليها.

وقبل الظهيرة من ذلك اليوم قال لي سماحته: أريد منك إبلاغ رسالتي إلى السلطات المحلية هنا (وشرح لي رسالته). فقمتم في الوهلة الأولى بزيارة الشيخ إبراهيم السلیمان مدير مكتب الأمير فيصل، والذي كانت تربطني به صداقة طويلة وحميمة، الأمر الذي شجعني

١- تاريخ وفرهنگ معاصر، ش ٦-٧: ٣٣٣ «آية الله السيد أبو القاسم الكاشاني كما عرفته».

ص: ١٧٨

على الدخول في صلب الموضوع بصراحة فقلت له: إن الاختلاف بين التقويم الإيراني والحجازي في الأعوام السابقة كان في يوم واحد، ولذلك كانت حجة اختلاف الأفق مقنعة، لكن الاختلاف في هذه السنة بلغ يومين مما عقد الأمر علينا، وأرى أن أقول لكم بصراحة: إن شهودكم قد أخطأوا في هذه السنة، وذلك لأنه من الناحية الفلكية يمكن رؤية الهلال في الحجاز ونجد (الواقعة إلى الشرق من مصر) قبل رؤيته في إيران، ولكن تستحيل رؤيته إلا بعد رؤيته في مصر. ومع وجود رصد «خلوان» في مصر والدقة المبدولة في هذا المجال لا يُعقل وقوعهم في الخطأ، وأن جميع البلدان الإسلامية باستثناء السعودية قد أخطأت في ذلك!

وبعد هذه المقدمة طلبت منه إيصال الموضوع بشكل مناسب إلى الأمير فيصل، وهو شخص مثقف ومتفهم، وأن يطلب منه سرّياً- كما أراد آية الله الكاشاني- إصدار أمر لقوات الشرطة بعدم التعرض لأولئك الذين يبقون في عرفات إلى اليوم التالي، ويفيضون في الليلة التالية إلى المشعر الحرام.

ورغم أن المدعو كان يشاطرنى الرأي إلا أنه قال: لا تأثير للأدلة الفلكية والرياضية هنا، ولا يسعنا إلا الانقياد لحكم المحكمة الشرعية، كما أنه مع وجود الأمير سعود لا يمكن للأمير فيصل أن يعمل شيئاً، فالأفضل محاورة الأمير سعود في هذا الشأن...
جاء أحد الفضلاء، واسمه بحر العلوم، للقاء سماحة آية الله وقال له:

هناك شيعيان: أحدهما كويتي وكلاهما موثوقان عنده، يشهدان برؤية الهلال ليلة الجمعة ٣١ / مرداد. كما شهر السيد شمس قنات آبادي أنه شاهد الهلال في الليلة المذكورة بوضوح، عندما كان قادماً من

ص: ١٧٩

شميران إلى طهران، كما شهد السيد عباس الناجي صهر سماحة السيد آية الله الكاشاني الذي كان برفقة السيد قنات آبادي تلك الليلة بتأييد هذه الشهادة، ومن مجموع هذه الشهادات ثبتت رؤيته هلال ذي الحجة ليلة الجمعة الموافق للحادي والثلاثين من شهر مرداد عند السيد الكاشاني. وقل الاختلاف إلى يوم واحد، وهو أمر طبيعي بالنظر إلى اختلاف الأفق، وأضحى ثبوت الهلال في الحجاز في ليلة الخميس الموافق للثلاثين من مرداد محتملاً، وبما أنه لم يكن لدينا علم بالخلاف، أي لم يكن عندنا قطع بخطأ دعوى رؤية الهلال هنا، تم الإفتاء طبقاً للموازين الفقهية باتباع حكمهم، خصوصاً وأن بعض أجلة فقهاء الشيعة أمر بمتابعة الجماعة حتى مع العلم بالخلاف.

من هنا، ذهب أكثر الحجاج الإيرانيين وعدد من العلماء طبقاً لأمر آية الله الكاشاني إلى اتخاذ يوم الجمعة اليوم التاسع من ذي الحجة، ووقفوا مع الناس في عرفات. ولكن برغم ذلك عمد بعض إلى العمل بالاحتياط، وأفاضوا إلى المشعر في الليلة التالية، وأعادتهم الشرطة بالإكراه وقامت بشتهم.

كتبت مجلة المصور التي تطبع في «دار الهلال» المصرية تفصيلاً مبالغاً فيه حول هذا الموضوع، وبعض أجزاء ما كتبتة بجانب للحقيقة تماماً.

وكما تقدم فإن طلب سماحة آية الله الكاشاني كانت له صبغة تزويد المجلة المذكورة بالخبر وإن لم تنشره بشكل مطابق للواقع؟! لم يكن هناك إذن مستقل للإيرانيين بالوقوف، وقد كان جواب الأمير مطابقاً للشرح المتقدم، وما نسبته المجلة من الكلام للأمير من: «أن الحكومة السعودية لا تسمح لأي مسلم بالقدوم إلى هذا

ص: ١٨٠

البلد ليفرض على الدولة قانوناً غير قانونها، وأن الدولة لا تسمح للكاشاني وغيره بالتخلف في عرفات بعد إفاضة الحجاج منها ولو لدقيقه واحدة، ولو أنه لم يوافق على هذا القرار طوعاً أو كرهاً فسوف يعاد إلى بلده عبر الطائرة» عارٍ عن الصحة تماماً. *** بما ان الاختلاف في ثبوت هلال ذي الحجة في مكة المكرمة يؤدي عادة إلى ظهور مشاكل للشيعه كان الشيعه في المواسم التي لا يطرأ فيها هذا الاختلاف يؤدون مناسكهم بهدوء بالٍ واطمئنان:

١- ذكر أمين الدولة بشأن حج عام ١٣١٦ هـ. ش: «لا يوجد- بحمد الله- خلاف في هذا العام بين الفريقين حول رؤية الهلال ويوم العيد» (١).

٢- وكتب حول حج عام ١٣١٧ هـ. ش:

«بما أنه لم يكن هناك اختلاف في بداية ذي الحجة من هذا العام بين السنة والشيعه، فقد كان لكثرة الناس وازدحام الحجاج مشهد رائع لا يمكن وصفه» (٢).

٣- في عام ١٣٣١ هـ. ش. أوشك الاختلاف على الظهور، إلا أن علماء الشيعه بادروا إلى البحث والتحقيق وارتفع الإشكال (٣).

٤- قال السيد فخر الدين الجزائري حول حج عام ١٣٤٠ هـ:

توجهنا في الليلة الأولى من الشهر إلى جبل أبي قبيس للاستهلال وشاهدنا الهلال، وبعدها أخذ الشيعه السنة يشهدون جماعات

١- سفرنامه أمين الدوله: ١٨٩، نقلًا عن مقال «حج گزارى ايرانيان در دوره قاجار».

٢- سفرنامه عتبات ومكه: ١٧٢، مطبوع في «ميراث اسلامى ايران» ج ٥.

٣- سفرنامه ميرزا على اصفهانى: ٢١٥-٢١٦، مطبوع في كتاب «به سوى ام القرى».

ص: ١٨١

جماعات عند حاكم مكة، وتم بحمد الله ثبوت أول الشهر، ولم يظهر خلاف في هذا الشأن بين الشيعة والسنة، وقد كان هذا الخلاف يؤدى إلى مشقة الحجاج في أغلب الأعوام (١).

٥- جاء في مذكرات الشيخ آغا بزرك الطهراني حول حج عام ١٣٧٧ هـ. ق:

وكان نزولنا في المدينة في بستان أسعد أمر الله في ليلة الأربعاء التي هي في التقاويم الإيرانية آخر ذى القعدة وفي التقويم السعودى غرة ذى الحجة، وقد شهد جمع من الحجاج وغيرهم برؤية الهلال، وغلب الظن بعدم كذبهم وعدم الخطأ في بصرهم من جهة الظن بأنه كان ممكن الرؤية في تلك الليلة بحسب الدرجة التي رأيناها فيها في ليلة الخميس في البستان المذكور، بعدما صلّيت جماعة المغرب ونوافلها، ثم العشاء، ومضى قرب ساعة من الليل، فأروني وأنا جالس في وسط الدار لتعقيب الهلال في محلّه المرتفع فوق الحائط، ثم نقلوا أنه غرب قرب ساعة ونصف من الليل ومن هنا، اطمأنت النفس بأن ليلة الأربعاء كانت أول ذى الحجة وإن لم تثبت الرؤية شرعاً، لعدم بلوغ الشهود إلى حدّ الشيع والافتراض، فوافقنا السعوديين وعرفنا يوم الخميس، وعيدنا يوم الجمعة! (٢)

ب- الجهود المبذولة لرفع هذا الإشكال

كما تقدم في صورة الاختلاف بين الشيعة والسنة في ثبوت هلال ذى الحجة في مكة- أعم من عدم الثبوت عند الشيعة، طبقاً لحكم ونظر قاضى أهل السنة أو العلم بخلافه- كان الشيعة يصدّون على الوقوف في عرفه والمناسك الأخرى طبقاً

١- سفرنامه جزائرى: ٤٠، نقلًا عن مقال «حج گزارى ايرانيان در دوره قاجار».

٢- ميراث حديث شيعه، بالفارسيه ١: ٤٢١-٤٢٢، «زندگى نامه خودنوشت شيخ آقا بزرك تهرانى».

ص: ١٨٢

لرأيهم في ثبوت الهلال، وهذا ما لا يمكن تحقيقه إلا في سنوات معدودة. من هنا، ففي السنوات الأخرى وإن أمكن التماشي صورياً مع أهل السنة في الوقوف بعرفات والأعمال التالية، إلا- أنهم لم يكونوا ليروا ذلك صحيحاً ومجزياً. وكانوا يحلون بالعمرة المفردة والهدى، ويمكنون في مكة إلى الحج المقبل، وإذا لم يكن حجهم واجباً يعودون إلى أوطانهم.

والبعض الذي كان يجهل هذين الحلين- العمرة المفردة والهدى- ويعود إلى الوطن يحكم ببقائه على الإحرام، ويحكي عن ذلك تقرير عن أواخر العهد الصفوي، وقد تقدم ذكره، ويختص بذلك الفصل السابع من «حديقة الشيعة للرضوى» (بعد ١١٥٢). طبقاً لما هو منقول في مذكرات الحج والمصادر المشابهة قلما كان يحصل توافق ومجاراة أهل السنة- على سبيل التقيء- بل قام الرضوي بانتقاد الذين أفتوا تقيء بصحة المناسك المذكورة.

وبالالتفات إلى ما تقدم سعى بعض علماء الشيعة إلى البحث عن طرق لحل هذه المعضلة، وفيما يلي نشير إلى نماذج من محاولاتهم وجهودهم:

١- المرحوم الحاج سراج الأنصاري العالم الجدد، خبير عصره. التقى عام ١٣٦٧ هـ. حمزة غوث سفير العربية السعودية في إيران، وقد تم نشر تقرير حول هذا اللقاء في مجلة «المسلمين» الشهرية في العدد الأول والثاني (١/ مرداد/ ١٣٢٧ هـ. ش. الموافق ل ١٦/ رمضان/ عام ١٣٦٧ هـ. ق) تحت عنوان «تفصيل اللقاء بين السيد الحاج سراج الأنصاري مع سماحة السيد حمزة غوث مندوب المملكة السعودية»، وكان عام ١٣٢٧ هـ. ش. هو عام عودة العلاقات بين إيران والعربية السعودية بعد أربع سنوات من الانقطاع وترك الحج- بسبب استشهاد الميرزا أبي طالب اليزدي في مكة عام ١٣٢٢ هـ. ش.- وأخذ الإيرانيون بعدها يتوجهون إلى الحج. يقول الحاج سراج في هذا التقرير:

بالنظر إلى حرص «اتحاد المسلمين» البالغ على إقامة الوحدة

ص: ١٨٣

الإسلامية في جميع الأقطار الإسلامية، واهتمامها الدائم وسعيها الجاد للوصول إلى هذا الهدف المقدس، لذا يجوز لكل عضو من أعضاء هذا الاتحاد الاهتمام بهذا الشأن، وفتح الطريق للوصول إلى هذه الغاية، وبهذه المناسبة تقدمت بإرسال السيد الدكتور موسى حكمت سكرتير الهيئة الإدارية للاتحاد إلى السفارة السعودية للحصول على موعد للقاء خاص بالسفير السعودي، وقد كان ذلك في يوم الخميس العاشر من شهر تير بوصفى «مؤسس اتحاد المسلمين»...

... ثم قلت: إن ما هو مهم وفي غاية التأثير بالنسبة للشيعة في مناسك الحج هو مسألة رؤية الهلال، إذ بعد فتوى المحكمة الشرعية في مكة، تعتمد الحكومة السعودية إلى إكراه الجميع على العمل بمقتضى فتوى المحكمة، وجعل اليوم الذى تحدده المحكمة هو اليوم الأول من الشهر. فما هو المحذور فى أن يحضر شخص من علماء الشيعة فى هذه المحكمة وأن يكون حاضراً أيضاً عند شهادة الشهود، ليكون مساهماً فى الفتوى عند الإفتاء ولا يحصل الاختلاف؟

فقال السيد حمزة غوث فى جوابه عن هذا الاقتراح: إن هذا الأمر مستحيل، لأن التدخل فى هذا الشأن يُعدّ تدخلاً فى الشؤون الداخلية للبلاد، وهذا ما لا يمكن العمل به. مضافاً إلى أنكم إذا اعترفتكم بكون العريضة السعودية بلداً إسلامياً فعليكم أن تدعونا لقراراته، كما أننى إذا أقيم حالياً فى إيران وأراها بلداً إسلامياً وغداً شهر رمضان المبارك، وستعلن الحكومة أن اليوم الكذائى اليوم الأول من شهر رمضان المبارك عندها سيجب على الإذعان لذلك، وسيجب على صيام ذلك اليوم حتى وإن وصلتني برقية من الحجاز على نفى كون ذلك اليوم من رمضان. فهل يمكننى أن أكره الحكومة

ص: ١٨٤

بأنه مادام مفتيكم شيعياً فعليكم أن تأذنوا لشخص من أهل الإفتاء من أهل السنّة للحضور في المحكمة الشرعية والاستماع إلى شهادة الشهود...؟

قلت: إننا نرى أن العريّة السعودية بلد إسلامي، إنما الكلام في مستند الفتوى. فقد قمت شخصياً بزيارة مكّة المكرمة عام ١٣٥٠، وذات ليلة ترجل جميع الحجاج من حافلاتهم في الصحراء بين مكّة المكرمة والمدينة المنورة بغية الاستهلال، لاحتمال كون تلك الليلة هي الليلة الأولى من شهر ذي الحجة الحرام. ولم ير الهلال أحد منا.

والذي أثار سوء ظني أن أحد رؤساء القوافل والذي كان وقف إلى جانبي عند الاستهلال وصرّح لي بعدم تمكنه من رؤية الهلال، لكن حينما وصلنا إلى مكّة المكرمة كان هذا الرجل أحد الشهود الذين شهدوا برؤية الهلال، وقد تم إصدار الفتوى استناداً إلى شهادة مثل هؤلاء الشهود!

من هنا إذا حضر أحد العلماء الشيعة في المحكمة، وتمّ التدقيق في وضع الشهود، فسوف لا يكون هناك خلاف في البين.

قال السيد حمزة غوث: إن التدقيق في مستند الفتوى وظيفه المفتي الشرعية والوجدانية، وعلى فرض عدم التدقيق من قبل المفتي في فتواه، فإن ذمه العاملين على طبق فتواه سوف لا تكون مشغولة، ولا يكونون مسؤولين أمام الله عزّ وجل.

وإذ بلغ الكلام هذا المبلغ لم أشأ مواصلة الموضوع وإثبات عدم صحة دليل السيد حمزة غوث في المسألة المفروضة، وعلى كل حال عاد بنا الحوار إلى موضوع رفع الاختلاف (١).

ص: ١٨٥

٢- تقدّم أن آية الله السيد أبا القاسم الكاشاني قدس سره ذهب إلى الحج عام ١٣٧١ هـ. ق. الموافق لعام ١٣٣١ هـ. ش. وقد برز في ذلك العام مثل هذا الاختلاف أيضاً. من هنا تصدّى آية الله الكاشاني للبحث عن حلّ لهذه المعضلة. وقد كتب سماحة السيد جعفر الرائد الذي كان برفقه آية الله الكاشاني رسالة تفصيلية باللغّة العربيّة إلى الملك سعود ملك العربيّة السعوديّة (١)، تقترح بعض الأمور؛ بغية التقريب بين المسلمين وتوحيدهم، ولإنعاش شؤون الحج والعمرة، ومنها عدم تحديد أيام عرفه والعيد في يوم محدد، كيما يتسنى لأي فرقة ممارسة مناسك حجّها في اليوم الذي يثبت عندها... (٢) كانت دعوة آية الله الكاشاني إلى أداء حجّين في حالة ظهور الاختلاف بين

١- كان عبد العزيز آنذاك ملكاً للسعوديّة والأمير سعود ولياً للعهد. وكانت رسالة آية الله الكاشاني موجهة للملك عبد العزيز.

٢- تم اقتراح هذا الموضوع على القادة السعوديين بشكل سرى وشفهي، ولا يوجد في الرسالة المذكورة شيء عن هذا المعضل، وقد نشر النص العربي لرسالة آية الله الكاشاني قدس سره إلى عبد العزيز في مجلة «مقات حج» الفارسيّة، العدد ٤٣: ٦٤.

ص: ١٨٦

الشيعه والسنة في ثبوت رؤية هلال شهر ذى الحجة، خلافاً لما كانت تتوقعه السلطات السعودية ومجامع أهل السنة؛ إذ كانوا يتصورون أنه عالم دين وسياسي ومتحرر يتسامح في هذه الموضوعات الفرعية (١).

وقد كتب سماحة السيد كاظم الآزرى القائم بالاعمال القنصلية في العربية السعودية أيضاً فى التقرير رقم ٧٠٩ بتاريخ ٢٢/٧/١٣٣١ هـ. ش. فى هذا الخصوص:

رغم وضوح عدم وجود أثر للحوار مع الأمير سعود، ولكى يتخفف الأمير فيصل من أعباء التدخل فى هذا الموضوع الحساس، فقد أحالنى إلى الأمير سعود، وبما أن سماحة آية الله الكاشانى كان يصبر على أخذ موعد من السكرتير الخاص للأمير سعود توجهت إلى قصر ولى العهد، وكان الأمير سعود حينها منشغلاً بتناول الغداء.

لم تكن لدى سابقه طويلة مع السكرتير الخاص للأمير سعود والذى تولى مهامه فى الآونة الأخيرة، ولذلك عرّفت نفسى له بالنحو المطلوب، وأشرت إلى سابقى وارتباطى بالبلاد العربية السعودية، ومن خلال بيان الموقع الممتاز الذى يتمتع به سماحة آية الله الكاشانى فى العالم الإسلامى، وضرورة تلبية مطالبه وحسن تأثير ذلك على الإيرانيين وسائر المسلمين، أثرت الموضوع بنحو مناسب، وقلت: إن اقتراح سماحة آية الله الكاشانى لا يرمى إلى صدور إذن خاص للإيرانيين بالوقوف، وإنما مطلبه الوحيد يتلخص فى عدم مضايقة من يريد العمل بالاحتياط ويتوجه يوم السبت إلى عرفات للوقوف الاضطرارى، ويوم الأحد للمشعر الحرام، وذلك بأن تغض الشرطة الطرف عن مثل هؤلاء الأشخاص، وذكرت به بأن هذا الشيء لا يتخذ

١- «تاريخ و فرهنگ معاصر» العدد ٦-٧: ٣٣٣ «آية الله سيد أبوالقاسم الكاشانى آن طور كه مى شناختم».

ص: ١٨٧

صفه محاباه للإيرانيين فى المعامله والمصادقه على وقوف مخصوص لهم.

وقد نقل المدعو القضيئه إلى الأمير سعود، وقال فى الجواب بعد تقديم أسمى مراتب الاحترام والسلام على لسان ولى العهد لسماحه آيه الله الكاشانى:

قال الأمير: إن هذا الاقتراح من مثل هذه الشخصيه التى هى من دعاه وقاده الوحده الإسلاميه يبدو بعيداً ومستبعداً؛ لأن ذلك يؤدى إلى تشتت المسلمين وتفرقتهم.

إن سائر المسلمين - برغم اختلاف أحكام المحاكم الشرعيه فى بلدانهم بشأن يوم الوقوف فى عرفات مع حكم المحكمه الشرعيه فى الحجاز - يذعنون لحكم القاضى ويقف حوالى أربعمائى ألف مسلم من مختلف البلدان يوم الجمعه فى عرفات، ومع فغض الطرف عن عدد محدود لا يتجاوز الثلاثه آلاف شخص فى الوقوف فى اليوم التالى الذى يُعد بمنزله إذن ضمنى بهذا العمل، يؤدى إلى تفرقه المسلمين، والحكومه السعوديه لا يمكنها أن توافق على هذا الأمر بتاتا، وتطلب من سماحه آيه الله الكاشانى أن يدعو الإيرانيين إلى عدم الخروج عن إجماع سائر المسلمين، وأن يقفوا فى عرفات فى اليوم الذى يقف فيه سائر المسلمين.

وفى الختام نقل عن الأمير قوله: إن الجهات المعنيه ستقوم بمواجهه من يعمل على خلاف إجماع المسلمين، ويتوجه يوم السبت إلى عرفات أو ليله الأحد إلى المشعر الحرام، بقسوه بالغه.

وقد رفعت الجواب المذكور إلى سماحه آيه الله الكاشانى.

ص: ١٨٨

٣- نقل آية الله السيد محسن الحكيم قدس سره إلى السلطات السعودية اقتراحاً مشابهاً للاقتراح الذي تقدّم به آية الله الكاشاني، ولم يلق آذاناً صاغية أيضاً.

كما تشرف المرحوم جلال آل أحمد في عام ١٣٨٣ هـ. ق، الموافق لعام ١٣٤٣ هـ. ش. بالحج، وأشار إلى هذا الموضوع في مذكراته عن حجّه هذا، والتي عنوانها ب (خسى در ميقات) (١)، وكذلك في رسالته إلى سماحة السيد الإمام الخميني قدس سره من مكة المكرمة.

وقد ذكر آل أحمد في رسالته هذه:

مكة المكرمة، اليوم الحادي والثلاثون من شهر فروردين، عام ١٣٤٣ هـ. ش، الموافق للثامن من ذي الحجة عام ١٣٨٣ هـ. ق. آية الله! عندما عمت الفرحة مدينة طهران لدى سماع نبأ إطلاق سراحكم، كنا- في المطار- منتظرين الإقلاع الى مكة المكرمة، فلم تسمح لنا الفرصة بتقريب يدكم ثانية. ولكن وقع هنا أمران أو ثلاثة وجدت من المستحسن التذرع بها للترحيب بكم... الأمر الآخر أنه أشيع في هذه المدينة أن آية الله الحكيم كان من المقرر تشرفه بالحج، ولكن تقدم بثلاثة شروط، استجاب السعوديون لاثنتين منها، ورفضوا ثالثها، فقد استجابوا لإقامة محراب للشيعة في بيت الله وإعادة بناء أضرحه البقيع، أما الشرط الثالث الذي رفضوه فهو حقّ إبداء الرأي في رؤية الهلال والعمل به. ولذلك امتنع عن المجيء بنفسه، وأرسل هيئته ربما كانت برئاسة ابنه... (٢).

١- راجع كتاب خسى در ميقات: ١٢٦-١٢٧.

٢- صحيفة كيهان، عدد خاص بمناسبة مرور مائة عام على ولادة الإمام الخميني قدس سره، بتاريخ شهر مهر عام ١٣٧٨ هـ. ش، ص ٤.

ج) الائتلاف في ثبوت هلال ذي الحجة في المصادر الفقهية

يتمّ التعرض لبحث ثبوت الهلال وكيفية ذلك عادة في الكتب الفقهية في باب الصوم وفي باب الشهادات، بمناسبة عدم قبول شهادة النساء في رؤية الهلال. ولم يتمّ التعرض له في باب الحج، إلا في القرون الثلاثة الأخيرة، حتى في رسائل مناسك الحج للشهيدين الأول والثاني وغيرهما.

ولم يرد بحث هذا الموضوع في باب الحج في كتب الفقهاء المتقدمين والتراث الفقهي للمحقق الحلبي والعلامة الحلبي، مثل قواعد الأحكام وإرشاد الأذهان وتبصرة المتعلمين. وإنما تعرّض العلامة الحلبي في المنتهى والتذكرة والتحرير للكتب الفقهية لدى أهل السنة إلى حالة ما لو كانت ليلة الثلاثين من شهر ذي القعدة غائمة ولم يكن من الممكن رؤية هلال ذي الحجة، فما هو الحكم؟ وفروع من هذا القبيل.

ثم تعرّض الشهيد في الدروس لهذه الفروع:

منها: «ولو رأى الهلال وحده أو مع غيره وردت شهادتهم وقفوا بحسب رؤيتهم وإن خالفهم الناس، ولا يجب عليهم الوقوف مع الناس»، وهو ما قاله الفقهاء بشأن شهر رمضان المبارك. ونقل العلامة في المنتهى عن الشافعي قوله: «إنهم يقفون على حسب رؤيتهم وإن وقف الناس في غير ذلك» (١).

لكن لا يوجد هناك بحث حول اختلاف الشيعة والسنة في ثبوت هلال ذي الحجة في مكة في الكتب الفقهية قبل ثلاثة قرون، وكأنّ الحجاج الشيعة كانوا يقومون بمناسك الحج تزامناً مع السنة، كما لم يكن الخلاف موجوداً في عصر الأئمة المعصومين عليهم السلام. وقد ظهر الائتلاف في ثبوت هلال ذي الحجة بين الشيعة والسنة لأسباب مختلفة منذ أواخر العهد الصفوي فما بعد، وقد تقدم ذكر نماذج لذلك.

وحيثما لم يكن بإمكان الحجاج العمل طبقاً لرؤيتهم وإتيانهم الوقوف في عرفات

١- ذكرت المصادر الدقيقة لأقوال الشيعة وأهل السنة في ميراث فقهي التراث الفقهي ٢: رؤية الهلال، الأجزاء، ٣-٥.

ص: ١٩٠

وسائر المناسك مع أهل السنة لم يحكم بإجزاء هذا الحج وصحته حتى في صورة التقيّة، بل كانوا يخرجون من الإحرام بالعمرة المفردة والهدى، وكان الحج يفوتهم.

يظهر من كتب الفقه الاستدلالي للمتأخرين أن أول من تحدث عن أجزاء الحج وصحته هو صاحب الجواهر (١٢٦٦) وسنقل ذلك فيما بعد. كما نقرأ في مناسك الحج للشيخ الأنصاري (١٢٨١) والذي علق عليه الكثير من الفقهاء:

هرگاه در پیش قاضی عامّه، هلال ثابت شود و حکم کند و در پیش شیعه شرعاً ثابت نشده باشد، لهذا روز عرفه نزد عامّه روز هشتم باشد در پیش شیعه؛ پس اگر ممکن است مخالفت ایشان در بیرون رفتن به سوی عرفات - که روز خروج ایشان است از مکه - یا ممکن باشد ماندن شب آن روز در عرفات تا فردا - که روز عرفه است - یا رفتن و برگشتن فردا پیش از غروب آفتاب، به جهت ادراک و قوف اختیاری عرفه، یا بعد از غروب آفتاب به جهت ادراک اضطراری آن، اگر متمکّن شود از مراجعت قبل از آن؛ پس واجب است که چنین کند تا ادراک و قوف اختیاری یا اضطراری نماید، از آنجا [یعنی عرفات] به مشعر رفته ادراک آن نیز نماید، و اعمال روز عید را در منی به عمل آورد [اگر چه به نظر عامه روز یازدهم است].

و اگر ممکن نشود ادراک و قوف عرفه اصلاً؛ پس اگر ممکن است ادراک و قوف مشعر الحرام، پس آن نیز کفایت می کند، و حج او صحیح است، و الاّ حجّ او در آن سال فاسد خواهد بود.

والحاصل ان التقيّة في المقام لاتصحّ العمل على الأحوط الأقوى، واللّه العالم (١).

ص: ١٩١

وهنا علق من كبار الفقهاء صاحب العروة (١٣٣٧)، وآية الله الحاج السيد حسين البروجردى (١٣٨٠) على الجملة الأخيرة من مناسك الشيخ الأنصارى بقولهما: (إن الأقوائية محل تأمل)، والظاهر أن آية الله السيد أبا الحسن الإصفهاني وآية الله البروجردى يذهبان إلى صحة وإجزاء متابعة أهل السنة في صورة عدم العلم بالخلاف. وقد كتب آية الله الطالقاني بمناسبة هذا الاختلاف في حج عام ١٣٧١/ ١٣٣١ هـ. ش:

... بما أنه في الاختلاف تقوم محاكم الحجاز دائماً بالحكم قبل يوم من أول الشهر، ولم يحصل علم بالخلاف أبداً، فقد حلت فتوى سماحة آية الله البروجردى «أدام الله بقاءه» هذه المشكلة (١).

وهنا ننقل فتاوى عدد من المراجع المعاصرين:

أ) آية الله الحكيم قدس سره (١٣٩٠):

الظاهر صحة متابعتهم تقيّة في الوقوف بعرفات والمشعر، ويكون مبرئاً للذمّة، سواء أكان هناك علم بمخالفة الواقع أم لم يكن، ولا ضرورة إلى تعريض المكلف نفسه إلى الإيذاء والإهانة. إذن يكفي الوقوف معهم، أما بقيّة المناسك في منى مثل رمي الجمره والتضحية والحلق والمبيت في ليالي التشريق فالظاهر في صورة الشك وعدم العلم بمطابقة حكم القاضي للواقع هو التبعية لهم في مناسك منى،

١- به سوى خدا می رویم: ١٨٧.

ص: ١٩٢

وهو كافٍ أيضاً. وفي صورة العلم بالمخالفة فالظاهر أن يأتي بمناسك منى بما يتفق والمذهب الشيعي.

(ب) آية الله السيد محمود الشاهرودي (١٣٩٤):

لا يجوز اتباع حكم القاضي السني، إلا أن الرجوع في هذه المسألة إلى المجتهد المطلق الذي يرى اتباعه مجزياً جائز.

(ج) آية الله السيد هادي الميلاني (١٣٩٥):

في صورة عدم العلم بمخالفة حكمه للواقع يجوز العمل بحكمه.

(د) آية الله السيد أحمد الخوانساري (١٤٠٥):

فتواه هي نفس فتوى الشيخ الأنصاري التي نقلناها من مناسكه.

(ه) آية الله السيد أبو القاسم الخوئي (١٤١٣):

لو احتمل المطابقة للواقع في حكم ذلك الحاكم فالظاهر لزوم متابعتة من باب التقيّة، وأن يقف في يوم وقوفهم. وفي فرض التقيّة

تجب متابعة الحاكم السني، ويكفي في صحّة الحج من دون حاجة إلى الاحتياط. ولو خالف شخص التقيّة متذرعاً بالاحتياط يكون قد

ارتكب حراماً، ولا يكون وقوفه جزءاً من الحج، ولو اكتفى به كان حجّه باطلاً.

(و) آية الله السيد محمد رضا الكلبيگاني قدس سره (١٤١٤):

لو اضطر تقيّة إلى متابعتهم وخاف العمل بوظيفته فالأقوى صحّة هذا الحج وكفايته عن حجّة الإسلام حتى مع العلم بالخلاف. ولو

تمكن من العمل بوظيفته دون خوف فالأحوط متابعتهم رجاءً، ثم يعمل بوظيفته حتى مع عدم العلم بالخلاف (١).

١- مناسك حج جامع: ٧٤-٧٦ وقد تم نقل الفقرة أ إلى هذه الفقرة من هذا المصدر.

ص: ١٩٣

أما الإمام الخميني قدس سره فهو وإن كان له رأى مشابه لرأى الآخرين حيث جاء في تحرير الوسيلة قوله:
لو ثبت هلال ذي الحجة عند القاضي من العامة وحكم به ولم يثبت عندنا، فإن أمكن العمل على طبق المذهب الحق بلا تقيئه وخوف
وجب، وإلا وجبت التبعية عنهم، وصح الحج لو لم تتبين المخالفة للواقع، بل لا يبعد الصحة مع العلم بالمخالفة، ولا تجوز المخالفة، بل
في صحه الحج مع مخالفة التقيئه إشكال... ولما كان أفق الحجاز والنجد مخالفاً لآفاقنا- سيما أفق إيران- فلا يحصل العلم بالمخالفة إلا
نادراً (١).

إلا أنه قدس سره عدل عن هذا الرأى فيما بعد، وقد أعلن بتاريخ ٢٨ شوال عام ١٣٩٩ / ٢٩ / ٦ / ١٣٥٨ هـ. ش. وبشكل قاطع ومطلق:

يجب في الوقوفين متابعة حكم قضاء الأخوة من أهل السنه ويقع مجزياً حتى مع القطع بالخلاف (٢).

ويبدو من خلال الحوادث التاريخية التي تقدمت الإشارة إلى نبذة منها، ومع الالتفات إلى وضع العربية السعودية في هذه الأيام
وظروف الحج الخاصة، أن هذا هو الرأى الصحيح، وقد قام الفقيه الجليل وأحد الكمّل قبل حوالي قرنين من الإمام الخميني قدس
سرّه، وهو العلامة بحر العلوم قدس سره (١٢١٢) بالافتاء بنفس هذه الفتوى.

١- تحرير الوسيلة ١: ٤١٨، المسألة ٧.

٢- صحيفة الإمام ١٠: ٦٢، أجل «هذه من علاه إحدى المعالي».

ص: ١٩٤

وقد ذكر صاحب الجواهر بعد بحث الفروع المذكورة في المنتهى والتحرير والتذكرة و الدروس في هذا الخصوص مانصه:

نعم بقي شئ مهم تشتد الحاجة إليه، وكأنه أولى من ذلك كله بالذكر، وهو أنه لو قامت البيئنة عند قاضى العامة وحكم بالهلال على وجه يكون يوم التروية عندنا عرفه عندهم، فهل يصح للإمامى الوقوف معهم ويجزىء، لأنه من أحكام التقيئة ويعسر التكليف بغيره، أو لا يجزىء، لعدم ثبوتها في الموضوع الذى محلّ الفرض منه، كما يؤمى إليه وجوب القضاء في حكمهم بالعيد في شهر رمضان الذى دلت عليه النصوص التى منها: «لأن أظفر يوماً ثم أقضيه أحبّ إليّ من أن يضرب عنقى»؟

لم أجد لهم كلاماً فى ذلك، ولا يبعد القول بالأجزاء هنا إلحاقاً بالحكم للحرج، واحتمال مثله فى القضاء.

وقد عثرت على الحكم بذلك منسوباً للعلامة الطباطبائى، ولكن مع ذلك فالاحتياط لا ينبغى تركه، والله العالم (١).

وبما أن العلامة بحر العلوم قد أقام عدّة سنوات فى مكّة المكرمة، وبعبارة أصحّ: قد تعرّف على «موضوع» الحكم بشكل كامل وأحاط بجوانبه، فقد أصاب فى إصدار مثل هذه الفتوى، وهذا بخلاف ما لو كان العالم الذى يريد الإفتاء جالساً فى مجالس الدرس والبحث فى النجف الأشرف أو قم المقدسة بين جموع غفيرة من الشيعة بعيداً عن مشاكل الابتلاء بالتقيئة، وعن الالتفات إلى حالات القتل التى وقعت وما تحمله بعض من المصائب فى هذا الموضوع، أجل إن المعرفة العميقة والصحيحة بالموضوع تُعدّ من أولى شروط الإفتاء فى هذه المسألة.

لقد حجّ الأئمة المعصومون عليهم السلام مع أصحابهم قرابة قرنين مع أهل السنة دون أن ينقل مورد واحد عن عدم وقوفهم فى عرفات والمناسك الأخرى للحج معهم،

ص: ١٩٥

ومن البعيد جداً احتمال اتفاق القول فى جميع هذه المدة مع أهل السنة وأمرء الحاج. كان الحكام ينصبون على الدوام أمرء على الحجيج، وكان الناس يتبعونهم فى جميع المواقف، وقد ذكر المسعودى فى مروج الذهب أسماء أمرء الحاج من العام الثامن للهجرة إلى سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة للهجرة فى بابٍ أفرده لذلك (١). من مآثر الإمام الخمينى فتواه بلزوم متابعة أهل السنة فى هلال ذى الحجة حتى مع القطع بالخلاف. بل على العكس من ذلك، إذ لم يتم عدم تماشى الأئمة عليهم السلام وأصحابهم مع أهل السنة وأمرء الحاج فحسب، بل قد أمر المعصوم عليهم السلام فى رواية بمتابعتهم، كما جاء فى رواية أبى الجارود: سألت أبا جعفر عليه السلام: أنا شككنا سنة فى عام من تلك الأعوام فى الأضحى، فلما دخلت على أبى جعفر عليه السلام وكان بعض أصحابنا يضحى، فقال عليه السلام: «الفطر يوم يفطر الناس، والأضحى يوم يضحى الناس، والصوم يوم يصوم الناس» (٢). وفى هذا الحديث الشريف لم يفضل الامام عليه السلام بين العلم بالخلاف وعدمه، وبين التمكن من العمل بالوظيفة دون خوف وتقية وعدمه.

وكذلك نقل أهل السنة عن عائشة وأبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وآله ما يلى مرتباً:

- الفطر يوم يفطر الناس، والأضحى يوم يضحى الناس (٣).

- الصوم يوم تصومون، والفطر يوم تفطرون، والأضحى يوم تضحون (٤).

١- مروج الذهب ٢: ٥٦٦.

٢- تهذيب الأحكام ٤: ٣١٧، ح ٩٦٦؛ وسائل الشيعة، ١٠: ١٣٣، أبواب ما يمسك عنه الصائم، الباب ٥٧، ح ٧.

٣- كنز العمال ٨: ٤٨٩، ح ٢٣٧٦٣.

٤- سنن الترمذى ٢: ١٠٢، ح ٦٣٩.

ص: ١٩٦

وقد قال الترمذى في شرح الحديث الثانى:

فسر بعض أهل العلم هذا الحديث، فقال: «إنما معنى هذا الصوم والفطر مع الجماعة وعظم الناس» (١).

كتب المرحوم آية الله الطالقانى قدس سره قبل سنوات حول هذه المسألة:

رغم أن الكثرة والنفوذ في الحج كان على الدوام مع أهل السنة والجماعة، ومع ذلك لم تبين وظيفة الشيعة وكيفية إثبات أول الشهر في الأحاديث والكتب الفقهية المتقدمة بشكل واضح؛ بل على العكس فإن أحاديثنا وظاهر الآيات فيما يتعلق بإدراك الوقوفين والذي هو من أركان الحج، ناظر إلى إدراك الإجماع ومتابعة عامة الناس...

وإذا لم يلتفت بعض الفقهاء المتأخرين بشكل كامل إلى الأحاديث والآيات وسيرة الماضين، فقد أراد إثبات نفس الموازين والقواعد العامة في إثبات الموضوعات الشرعية والهلال فيما يتعلق بالحج بحدافيرها. إلا أن الذين التفتوا ودققوا في هذه الآيات والأحاديث وموقع الحج والاختلاف، يرون كفاية عدم العلم بالخلاف ويحكمون بضرورة التبعية، ولا يرون لزوم المشاهدة والعلم أو الظن القوى الذى يرونه فيما مثل إثبات هلال رمضان أو شوال، وبما أنه في حالات الاختلاف تحكم محاكم الحجاز بيوم سابق على الشهر لا يحصل علم بالخلاف أبداً، وقد ذلت فتوى سماحة آية الله البروجردى قدس سره هذه

ص: ١٩٧

المشكلة (١).

د) كيفية ومبنى ثبوت وإعلان رؤية هلال ذي الحجة

ليس بأيدينا اطلاع كامل عن جزئيات كيفية ثبوت رؤية الهلال عند قضاء العامة في مكة المكرمة في الأزمنة الماضية. وإنما على حدود علمنا- كما تقدم في كلام المرحوم الحاج سراج الأنصاري- كانوا يعتمدون أحياناً حتى على شهادة الفاسقين والكاذبين. وكذلك في الأقل في عهد العثمانيين كانوا في الأعوام الممكنة يقدمون الإعلان عن بدء الشهر يوماً ليوافق «الحج الأكبر» في رأى أهل السنّة، كما تقدم ذلك مفصلاً.

من جهة اخرى، ينقل المرحوم آية الله الطالقاني قدس سره بمناسبة الاختلاف في ثبوت هلال ذي الحجة في مكة المكرمة عام ١٣٧١ هـ. ق، عن بعض المسؤولين السعوديين الدقة والاحتياط التام في إعلان ثبوت الهلال، حيث يقول:

من خلال التعبد الذي توليه الحجاز حكومه وشعباً للأحكام الدينية، والأهمية التي تعلقها على الحج، فإنه لا يتم الإعلان عن بدايه الشهر إلا بعد التحقيق الكافي، فما هو المبرر الذي يدعو إلى إفساد وإبطال حج آلاف المكلفين من خلال الإهمال والتقصير؟! ولماذا يكون اليوم الأول من الشهر متقدماً في الحجاز عند ظهور الاختلاف، ولم يحدث أن يقع متأخراً؟ مع أن بقاء الحج في الحجاز مدة أطول حتى ولو ليوم واحد يعود عليهم بالنفع، أفلا تدفع هذه القرائن إلى الاطمئنان؟

كما أن السيد مظفر أعلم سفير إيران في الحجاز كان يقول بعد ختام موسم الحج: «كان ولي العهد السعودي مستاءً من سلوك بعض الإيرانيين فيما يتعلق بإعادة الوقوف، وقال: ما هو الدليل الذي يدفعنا

ص: ١٩٨

إلى إفساد حج الناس! إن الدقة التي نبذلها في إثبات هلال شهر رمضان وذى الحجة تفوق أى شىءٍ آخر. فما لم يشهد خمسون شخصاً من مختلف نقاط البلاد لا يحكم القاضى بشىء، ومالم يحكم القاضى لا تقوم الحكومة بالإعلان عن بداية الشهر» (١).

ومهما كان الوضع عليه فى الماضى، فليس له تأثير ملحوظ على وضعنا الراهن، فما هو المهم حالياً هو ثبوت الرؤية والإعلان عنها. نقلت صحيفة الشرق الأوسط بتاريخ ١٥ / ١ / ٢٠٠٠ م عن رئيس مجلس القضاء الأعلى فى العربية السعودية أنه يثبت شهر رمضان بشهادة شخص واحد، بينما لا يثبت عيد الفطر إلا بشهادة شاهدين فى الأقل. إلا أن السلطات المسؤولة فى العربية السعودية أعلنت أنها منذ عام ١٤٢٠ فما بعد اعتمدت الحسابات الفلكية والنجومية. ويؤكد على ذلك بعض الخبراء فى هذا المجال مثل البروفسور يوسف مروء، ولكنه أشكل عليه بعدم انطباقه على الضوابط الشرعية الصحيحة، حتى أنه يتم أحياناً الإعلان عن ثبوت الهلال قبل ساعات من ظهوره. وقد ذكرت نص كلام يوسف مروء فى الجزء الرابع من رؤية الهلال، كما سأذكر طرفاً منه بعد ذلك.

كتبت صحيفة البلاد بتاريخ السبت ١٧ / نيسان / ١٩٩٩ م حول هذا الموضوع ما يأتى:

لائحة حول رصد أوائل الشهور الهجرية

أعلن المشرف على معهد بحوث الفلك والجيوفيزياء، بمدينة الملك عبد العزيز للعلوم والتقنية الدكتور عبد الله الراجحي، عن صدور الموافقة الملكية على اعتماد لائحة مجلس الشورى حول رصد وتحري أوائل الشهور الهجرية القمرية على غروب الشمس قبل غروب القمر حسب توقيت مكة المكرمة، وأن تتخذ إحداثيات المسجد الحرام أساساً لذلك، وأوضح د. الراجحي أن فريقاً علمياً من

ص: ١٩٩

المعهد قام بإعداد تقويم هجرى قمرى لمدة تزيد عن ٢١٠٠ سنة تبدأ من عام ١٠٠ قبل الهجرة وحتى عام ٢٠٠٠ هجرى قمرى، صدرت فى جداول وفى مجلد واحد، وقد أقر هذا التقويم من قبل لجنة تقويم أم القرى، وسيتم العمل به ابتداءً من غرة محرم عام ١٤٢٠ هـ، وتمت الموافقة على قيام معهد بحوث الفلك والجيوفيزياء ومعهد بحوث الحاسب والالكترونيات بإعداد الحسابات الفلكية الخاصة بتقويم أم القرى.

وبين د. الراجحى أنه قد تم تحديد إحداثيات الكعبة المشرفة بدقة باستخدام أحدث الأجهزة العلمية. وأن هذا التقويم يحتوى على جداول تحدد موعد غروب الشمس وموعد غروب القمر لآخر ليلة فى الشهر الهجرى القمرى حسب توقيت مكة المكرمة.

كما كتبت صحيفة الشرق الأوسط بتاريخ ١٧/٣/١٩٩٩ م مايلى:

استخدم فريق علمى متخصص فى مدينة الملك عبد العزيز للعلوم والتقنية فى الرياض أحدث برامج الحاسب الآلى فى إنجاز تقويم هجرى قمرى إسلامى جديد، لمدة تزيد عن ٢١٠٠ عام، منذ ١٠٠ عام قبل الهجرة، وحتى عام ٢٠٠٠ بعد الهجرة النبوية الشريفة. واستندت هذه البرامج إلى جداول تحدد لحظة غروب الشمس وغروب القمر فى مكة المكرمة، وعلى اعتبار أن تحديد بداية الشهر القمرى الهجرى الجديد يعتمد على تحديد وقت غروب القمر بعد غروب الشمس، وتسجيل الفارق الزمنى بينهما، كما يحدد هذا التقويم بداية الشهر الهجرى القمرى بما يقابله بالتقويم الميلادى والتقويم الهجرى الشمسى.

ص: ٢٠٠

ويتألف الفريق العلمى الذى أنجر هذا التقويم من الباحث الفلكى عبد العزيز سلطان الشمري، والدكتور فايز الحرقان، المشرف على معهد بحوث الحاسب والالكترونيات، والدكتور عبدالله الراجحي المشرف العام على بحوث الفلك والجيوفيزياء، والباحث الفلكى ياسر عبد الرحمن حافظ، ويذكر أن إنجاز هذا التقويم الجديد جاء استجابةً لقرار أصدرته الحكومة السعودية ومواقفة الجهات العليا على اعتماد لائحة مجلس الشورى حيال رصد وتحري أوائل الشهور الهجرية القمرية والتي أقرت المادة ال ١١ منها إعداد تقويم هجرى قمرى، يأخذ فى الاعتبار إحداثيات المسجد الحرام فى مكة المكرمة، وأن يغرب القمر بعد غروب الشمس فيها، وهو ما سيعتمد عليه ابتداء من شهر محرم المقبل ١٤٢٠ للهجرة فى تقويم أم القرى الجديد.

كما كتبت هذه الصحيفة بتاريخ ٩/٤/١٩٩٩ م:

اعتمد فريق علمى من مدينة الملك عبد العزيز للعلوم والتقنية KACST على أحدث برامج الحاسب العالى فى إعداد تقويم إسلامى هجرى قمرى جديد، موجد لمدة تزيد عن ٢١٠٠ عام (من عام ١٠٠ قبل الهجرة حتى عام ٢٠٠٠ هجرية قمرية)، استناداً إلى إحداثيات المسجد الحرام، وأن يغرب القمر فى سماء مكة المكرمة بعد غروب الشمس، على أن يشترط فيها ولادة القمر فلكياً باعتباره آخر يوم من الشهر القديم، مع تسجيل الفارق الزمنى بين الغرويين واحتساب اليوم التالى بداية للشهر الهجرى القمرى الجديد. كما حدّد البرنامج بداية الشهر الهجرى القمرى بما يقابله بالتقويم الميلادى والتقويم الهجرى الشمسى.

ص: ٢٠١

ويتكون الفريق العلمى المشارك فى إعداد هذا المشروع من الباحث الفلكى عبد العزيز بن سلطان الشمري، د. فايز عبدالله الحرقان، المشرف على معهد بحوث الحاسب والالكترونيات، د. عبدالله ناصر الراجحي، المشرف على معهد بحوث الفلك والجيوفيزياء، والباحث الأستاذ ياسر عبدالرحمن حافظ.

حساب القمر

وبين الأستاذ عبد العزيز الشمري، الباحث الفلكى ضمن الفريق العلمى ل «الشرق الأوسط»، أن بدايه الشهر الهجرى القمري الجديد يتم تحديدها بناءً على غروب الشمس بمكة المكرمة قبل غروب القمر بعد ولادة الهلال فلكياً **NEW MOON**. وأضاف: إنه بالإمكان حساب لحظة ولادة الهلال فلكياً بدقة لأقرب دقيقة، ولأى شهر من أشهر السنة الهجرية القمرية لآلاف السنين الهجرية. فيما ذكر د. فايز الحرقان بأنه قد سبق وأن عملت الجداول التى تحدد هذه اللحظة من عام ٤٠٠٠ قبل الميلاد إلى عام ٨٠٠٠ بعد الميلاد، على برامج خاصة بالحاسب الآلى، بمختلف لغات الحاسب الآلى (بيسك، فورتران...) من قبل المراصد الفلكية العالمية، إلّا أنه تم وضعها على أساس أن تحصل تلك اللحظة قبل منتصف الليل حسب موقع جرينتش، لكى يكون اليوم التالى هو أول أيام الشهر الهجرى القمري. وأوضح الأستاذ عبد العزيز الشمري: أن ولادة الهلال فلكياً (من الناحية العلمية الفلكية) هى اللحظة التى يكون فيها مركز الأرض والشمس والقمر على استقامة واحدة فى نهاية كل شهر هجرى قمري، ويكون القمر بين الأرض والشمس، بشرط أن القمر قد أكمل دورة

ص: ٢٠٢

كامله حول الأرض، ولحق بها ليكون مركزه ومركز الأرض والشمس على استقامة واحدة، وهذه اللحظة يطلق عليها لحظة الاقتران أو الاجتماع، على أن تسبق مغيب الشمس بمكة المكرمة، وحتى يوضح الفرق بين ولادة القمر فلكياً وولادة القمر شرعياً فإن المقصود بولادة القمر شرعياً (من الناحية العلمية الشرعية) هو أن يكون الهلال فوق الأفق بعد غروب الشمس في موقع التحزى، وأن يغرب القمر (الهلال) بعد غروب الشمس بحيث يكون بالإمكان رؤيته وقد تخلق فيه النور، ويتم ذلك بعد ولادة الهلال فلكياً، أى بعد لحظة الاقتران وزوال القمر بعد لحظة الاقتران.

ولتوضيح الفرق بشكل أدق، فإن ولادة الهلال فلكياً (لحظة الاقتران) أن يكون مركز الأرض والشمس والقمر على استقامة واحدة في نهاية كل شهر هجرى قمرى، ولا بد من أن تسبق لحظة غروب الشمس في مكة المكرمة، وأن يكون غروب القمر بعد غروب الشمس، أما ولادة القمر (الهلال) شرعياً فهي تخلق النور من القمر (الهلال) بعد لحظة الاقتران وأن يغرب (الهلال) بعد غروب الشمس في مكة المكرمة.

وأضاف الأستاذ عبد العزيز الشمري: أن الأسس العلمية الشرعية والفلكية التي تم بموجبها إعداد التقويم الهجرى القمري الإسلامى الموحد هي:

١. اعتبار مكة المكرمة كأساس لهذا التقويم (حسب إحدائيات الكعبة المشرفة) باعتبارها قبله المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها.
٢. اعتبار لحظة غروب الشمس فى مكة المكرمة كأساس لبداية اليوم الجديد فى جميع أيام السنة، وعلى مرور الأزمنة.
٣. أن يتم غروب الشمس بمكة المكرمة قبل غروب الهلال (القمر)

ص: ٢٠٣

فى مكة المكرمة فى نهاية آخر يوم من الشهر الهجرى القمرى القديم وبداية الشهر الجديد، وأن تكون لحظة الاقتران (الاجتماع- ولادة الهلال فلكياً) قد حصلت قبل غروب الشمس فى مكة المكرمة لهذا اليوم.

برامج كومبيوترية

وأضاف الشمرى إن من أهم الطرق التى بموجبها يتم إعداد التقويم الهجرى القمرى ما يلى:

الطريقة الأولى، وهى الطريقة التى يتم بها إعداد التقويم الهجرى القمرى الإسلامى الموحد:

١. معرفة لحظة غروب الشمس فى مكة المكرمة من خلال برنامج فى الحاسب الآلى، يأخذ فى الاعتبار إحداثيات (خط الطول وخط العرض) للكعبة المشرفة (الحرم المكى الشريف) فى مكة المكرمة.
(قد تم أخذها بأحدث الأجهزة الخاصة بتحديد الإحداثيات).

ص: ٢٠٤

٢. معرفة لحظة غروب القمر في مكة المكرمة من خلال برنامج في الحاسب الآلى يأخذ في الاعتبار إحداثيات (خط الطول وخط العرض) للكعبة المشرفة (الحرم المكي الشريف في مكة المكرمة) المملكة العربية السعودية.

٣. تتم المقارنة بين هاتين الظاهرتين في آخر ليلة من كل شهر هجرى قمرى، فإذا كانت لحظة غروب القمر في مكة المكرمة بعد غروب الشمس في مكة المكرمة في آخر ليلة من الشهر الهجرى القديم، فإن اليوم التالى هو أول أيام الشهر الهجرى الجديد. ثم تم وضع جداول تحدد غروب الشمس وغروب القمر والفرق بينهما في آخر كل ليلة من الأشهر الهجرية القمرية، والفرق بينهما والتاريخ الميلادى المقابل لها، وكذلك تم تحديد اليوم الذى يبدأ به الشهر الهجرى وما يقابله بالهجرى الشمسى والميلادى. ويمكن من خلال هذه البرامج إعداد تقويم هجرى قمرى على أساس الإحداثيات للحرم المكي الشريف، وعلى أساس الأخذ في الاعتبار غروب القمر بعد غروب الشمس في مكة المكرمة لآلاف السنين الهجرية القمرية، وأن تكون بداية اليوم من لحظة غروب الشمس في مكة المكرمة.

قال البروفسور يوسف مروء في كلمته في صيدا بتاريخ ١٣ / ١١ / ١٩٩٩ م في معرض نقده لهذه الطريقة الحسابة في الإعلان عن ثبوت الهلال طبقاً لتقويم أم القرى:

يقوم هذا التقويم على اعتبار خروج القمر من المحاق كبداية للشهر القمري على أساس أن يكون اليوم التالى - وهو خروج القمر من المحاق في أى ساعة من ساعات ذلك اليوم حسب التوقيت العالمى -

ص: ٢٠٥

هو بداية الشهر الجديد، والمعروف أنّ هذا التقويم هو نفس التقويم الذى يعمل به مرصد البحريّة الأمريكيّة. وقد تعيّن فى هذا التقويم بدايات ونهايات الشهور القمرية بشكل قاطع ثابت لا علاقة له بالرؤية العينية للهلال... وقد أدّى الحال إلى قيام خلاف دائم بين الجمعيات الفلكية العربية الإسلامية من ناحية... مجلس الإفتاء الأعلى فى المملكة العربية السعودية، ويصل هذا الخلاف إلى الأوج فى تعيين بداية شهر رمضان المبارك ونهاية وبداية ذى الحجة فى كلّ عام... إنّ الضعف والخلل فى هذا التقويم يتمثل فيما يلي:

١. حساب بداية الشهر القمري فى السعودية على أساس التوقيت العالمى... الفرق حوالى ٨ ساعات أحياناً.
٢. فى حالات كثيرة يستحيل توفير إمكانية الرؤية العينية للهلال، ممّا يتضارب مع البداية الفلكية المقررة للشهر حسب التوقيت العالمى. بالرغم من كلّ هذا النقص، استطاعت السلطات السعودية أن تجد دائماً من يتقدّم بشهادة الرؤية منذ العام ١٩٩٠. وقد احتجّت الجمعيات الفلكية فى البلدان الإسلامية وفى أمريكا الشمالية على الأسلوب المتبع فى تقويم أمّ القرى. وقد وجه احتجاج صدر عن رئيس الجمعية الفلكية الأردنية الأستاذ حاتم ممدوح أبو زيد بتاريخ ٢٣ رمضان سنة ١٤١٨... إلى مجلس الإفتاء الأعلى فى الرياض حول الإعلان عن ولادة هلال شوال قبل موعده الطبيعى بيوم كامل (٢٤ ساعة). وقد أجابه أحد المسؤولين المدعو محمد بن أحمد... ولم يتعرّض.. لا بقليل ولا بكثير إلى موضوع الرؤية والشهود، بل ذكر طريقة حسابية

ص: ٢٠٦

قمريه في تعيين الشهر القمري بالنص التالي:

«يُعتبر تقويم أمّ القرى أنّه إذا كان عمر القمر عند مغيب الشمس مقدار ١٢ ساعة فما فوق، فعندئذ يكون اليوم السابق هو أول أيام الشهر الإسلامي؛ لأنّ اليوم الإسلامي يبدأ عند المغيب الشمس».

فسرّوا لنا هذا الكلام!!! (١) وعليه، في بعض السنوات تم إعلان ثبوت الهلال استناداً إلى هذا الحساب الخاطيء وغير المنطبق على الأسس الصحيحة لثبوت الهلال، أو اعتماداً على الشهود حتى قبل ظهور الهلال.

فمثلاً في عام ١٤١٩ هـ. أعلنت السلطات السعودية أن غروب الأربعاء (الموافق للسادس والعشرين من شهر اسفند عام ١٣٧٧ هـ. ش.) شوهده هلال ذى الحجة، وأن يوم الخميس سيكون أول شهر ذى الحجة. في حين أنه في غروب الأربعاء المذكور لم يكن الهلال قد بلغ الاقتران ولم يتجه إلى الشرق من الشمس ليظهر الهلال الجديد؛ لأن غروب الشمس في مكة قد حصل في تلك الأربعاء في الساعة السادسة والدقيقة الحادية والثلاثين، وكان اقتران الهلال والشمس في الساعة التاسعة والدقيقة الثامنة والأربعين من ذلك اليوم، وعند غروب الشمس كان الهلال تحت أفق مكة بثلاث درجات.

وعلى كل حال، ليس هناك ما هو أكثر من القطع بالخلاف في بعض الموارد، ولكن «وماوراء عبّادان قرية»، وكما تقدم فقد أفتى الإمام الخميني قدس سره بضرورة متابعتهم حتى مع القطع بالخلاف، ويقع الحج صحيحاً ومجزياً و «هذه من علاه إحدى المعالي».

١- ميراث فقهي ٢: رؤيت هلال، ج ٤.

ص: ٢٠٧

الحج مائدة مباركة...!**إشارة**

محسن أسدى

إنه فعلاً مائدة ذات ألوان خيراتها كثيرة وبركاتها وافرة! وأنه حديقته غناء ذات أشجار باسقة وأغصان ناضرة وثمار يانعة وأزهار ساحرة! يحار المرء من أى ألوانها يأكل! ومن أى ثمارها يقطف!!

فقد راح الكثيرون يكتبون عن فريضة الحج عن أحكامها وأهدافها ومقاصدها وتاريخها وموقعها... فأخذ كل واحد منهم رزقاً من مائدتها أو ورقه من أوراقها أو ثمرة من ثمارها لعله يشبع بها شغف نفسه أو يطفئ بها فضوله ويروى ظمائه... حتى غدت كتاباتهم جميلة خضراء عطرة، وكيف لا وقد اكتسبت جمالها ورونقها وفتنتها من تلك الألوان والأزهار... وقد ارتأيت عن ابتعد عن أحكامها الشرعية ولأترك المجال للأقلام أن تكتب ما تطرحه الأفكار من مفاهيم عن هذه الفريضة وما تجود به القرائح شعراً أو نثراً عنها وأن أقف محايداً بعض الشئ ناظراً مكتفياً بما قرأه هنا وهناك راضياً بأن أكون ناقلًا ما وفقت إليه ووقفت عليه من نظرات جميلة وآراء متينة على الأقل من وجهة نظري، تبين لنا عظم هذه الفريضة وقدسيتها وأثرها على النفوس المؤمنة المليئة الممتنعة عما يخل بأدائها وكمالها وأجرها... واقتبست ألفاظاً وجملاً، بل مقاطع، مما كتبه، أو استخلصت المراد مما

ص: ٢٠٨

دونوه، وصفها لها ولما تحمله من عطاء دائم لا يعرف النضوب، وما ينبغي لنا أو يجب علينا القيام به إزاءها، وهو أن نعي ما نعمل وأن نفقه ما نؤديه من مناسك؛ لأن الجهل فيها يعدّ منقصه في أدائها وفي معرفتها والاستزادة من أجرها وثوابها إن لم أقلّ خيانه لها. وهذه صفحات قرأتها تتوفر على وصف رائع جميل للحج فرضاً، وللحج موقعاً، وللحج أهدافاً، وللحج ثماراً، وأيضاً تتضمن موقفنا كيف يجب أن يكون وبأى شى يجب أن يتصف؟.. لتكتمل الصورة التي بها يكون صلاحنا وخلصنا ورشدنا ونجاتنا بل وحياتنا في الدنيا والآخرة باستجابتنا الرائدة والواعية:

«يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم..»

* الوعى أمر ضرورى، وهو أول قراءتى فكل شىء لا شىء إذا لم يكن الوعى حليفه وأساسه، ولا بد من مرافقته لنا ونحن نتعبد الله تعالى فى هذه الأماكن المقدسة التى تتم فيها شعائر الحج، إذ فيها ربط بين الماضى والحاضر، واستشعار لعمق هذه الشعائر التى نذهب إليها فهذه الأماكن وتلك الشعائر تحمل معانى عميقة ودلائل عظيمة، فعندما يذهب أحدنا إلى العقبة مثلاً لرمى الجمرات فعلىنا أن نعي ونفهم أن هنا تمت بيعه العقبة التى كانت نواة للدولة الإسلامية الأولى، وكانت بمثابة جمعية تأسيسية لإقامة الدولة المنشودة. وقال النبى صلى الله عليه وآله لمن كانوا فى هذا الموقع «اختاروا منكم اثنى عشر نقيباً».

وهذا مبدأ للشورى والاختيار والاقتراع، وبه وُلدت أولى المؤسسات الدستورية فى الدولة الإسلامية، وفى الغالب فإن الناس يهتمون ويتذكرون مكان أول برلمان، فالناس يذهبون إلى اليونان ويقولون: هنا كانت أكاديمية أفلاطون، وهنا كان سقراط يلتقى بتلاميذه، فهذا معنى المكان، فما بالك بالمكان «مكة» الذى انطلقت منه كلمة لا إله إلا الله محمد رسول الله، وما بالك بالمكان «المدينة» الذى أسست به أول دولة إسلامية يرعاها رسول الله والمخلصون من أتباعه ومريديه؟!!

ص: ٢٠٩

وكذلك عند الطواف ينبغي للحاج أن يتذكر أنه حول هذا البيت العتيق طاف الرسول صلى الله عليه وآله والأنبياء من قبله والأئمة والصالحون.

ونحن ننظر إلى مسجد الرسول صلى الله عليه وآله، فما أحسن أن نلتفت إلى «فقه المكان»، فعندما أقف مثلاً وأنظر إلى مثنوى رسول الله صلى الله عليه وآله فهذه لحظة نورانية. وأحس أنه حي، وأنتى أناحيه، وأنه يسمعنى.. وحينما أنظر إلى الروضة الشريفة، وأتذكر حديث النبى صلى الله عليه وآله: «ما بين بيتى ومنبرى روضة من رياض الجنة».

وأرى الناس يحرصون على الصلاة فى هذه الروضة، ويعرفون أن الصلاة فى هذا المكان لها أجرها العظيم وثوابها الكبير، فكم هو جميل ورائع أن يعرف الزائر كل هذا فيندفع برغبة وحرص حتى لا تفوته الصلاة ولا العبادة فيه! ولكننى فى الحقيقة أشير إلى موضوع آخر نستوحيه من فقهاء هذه الروضة، ففى هذه الروضة كانت مدرسة النبوة التى تخرج فيها الجيل الفريد الذى غير مجرى التاريخ والحضارة وأعرف أن الصحابى «ربعى بن عامر» عندما ذهب إلى «رستم» قائد الفرس وسأله رستم: ما الذى جاء بكم؟ قال: جئنا لنخرج من شاء الله من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.

إنه كلام عظيم يدل على وعى أكبر، من علمه هذا؟ لو لم يكن واحداً من رواد تلك المدرسة النبوية الكبيرة بسموها ومعانيها... ولا يفرحنا أن نعتنى بالشكل بعيداً عن المضمون، وبالمظهر بعيداً عن الجوهر، بل يجب أن يزيدنا ذلك أسفاً وألماً وحزناً، وعلينا أن نتأمل أن الإسلام أو القرآن عندما يطلب منا الصلاة لا يقول: أداء الصلاة، إنما يقول: «إقامة الصلاة»..

فنحن نريد إقامة مناسك الحج والعمرة؛ فلا بد لنا أن لا نكتفى بمعرفة أحكام المناسك، بل علينا أن نعرف فقه المناسك، وفقه مكانها وزمانها.. ونستحضر

ص: ٢١٠

الماضى لربطه بالحاضر ونستفيد منه فى حياتنا ومستقبلنا، ونتروّد من ذلك بالدروس والعبر العظيمة.. ونلاحظ أيضاً أن الله تبارك وتعالى عندما تحدث عن الزاد فى الحج بيّن أنه التقوى فقال: «وتزودا فإنّ خيرَ الزَّادِ التَّقْوَى»، وعندما تحدث عن الذبائح قال:

«لن ينالَ اللهَ لِحومِها ولا دماؤها ولكن ينالهُ التقوى منكم».

إذن علينا أن نعرف أن الله تعالى تعبّدنا بذلك لا لتؤديها فقط، وإنما لنستفيد دروساً منها وعبراً ومنافع لنا تقربنا إليه تعالى فلا نعصيه، ولا نتخلف عن طاعته ورضاه وإلا «فإن الله غنى عن العالمين» آل عمران ٩٧.

ففى هذه الروضة كانت

مدرسة النبوة

إن من ينظر إلى أداء فريضة الحج يرى عجباً.. والرأى لا يشاهد إلا ما يدعو إلى الدهشة فإذا رأيت ثم رأيت موكباً من مواكب الله، وقافلة من قوافل الإيمان..

وحيشاً من جيوش الحق.. وجنداً من جنود اليقين.. هديرهم تكبير.. وهتافهم تسبيح.. ونداؤهم تلبية.. ودعاؤهم تهليل.. مشيهم عبادة.. وزحفهم صلاة..

وسفرهم هجرة إلى ربهم.. وغايتهم مغفرة ورضوان.. تراهم فى حشدهم صورة متكاملة متناسقة فى إطار نورانى على اختلاف أجناسهم.. وتباين اللغات وتغاير الأوطان..

اجتمعوا على كلمة الله تعالى.. والتأموا فى بيت الله.. والتحموا أمام الله فى رحمة وعطف وحنان، شعار كل فرد منهم «وَإِخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ»..

مظهرهم كأنهم بنيان مرصوص.. تركوا البلاد، والديار، والأهل، والأولاد..

والتجارة والأعمال.. لم تسبقهم قوة قاهرة.. ولم تجبرهم قوانين دنيوية، بل جاؤوا مندفعين بدافع من أعماقهم، منبثق من وجدانهم، نابع من فيض إيمانهم ومعين يقينهم.. قطعوا الفيافي والقفار.. واجتازوا الجبال والوديان.. وعبروا البحار

ص: ٢١١

والأنهار.. وطاروا على متن الهواء.. قاصدين بيت الله الحرام.. يعيشون في رحابه.. وينعمون بقدسيته.. مستشرفين بضيافته.. متلمسين لرحمته..

مستهدفين المغفرة.. مستمطرين الرضوان، كما قال ربهم:

«وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا..»

هو بيت العز والشرف، بيت المجد والكرم، بيت الرجاء والأمل.. واحه الضال.. وهداية التائه.. وملجأ القاصد.. وملاذ الخائف.. ومقام الطائف والعاكف.. من دخله كان آمناً.. فى جنباته الطهر والنقاء.. وعلى أبوابه البذل والعطاء.. وبين أركانه الجود والسخاء.. فالأجر مضاعف.. والجزاء موفور..

والذنب مغفور.. والسعى مشكور.. عند رب لا تُغلق رحابه.. ولا تُسد أبوابه..

لا- يخيب سائلما.. ولا- يردّ طالبيا.. فهو الحليم الذى لا يعجل.. والكريم الذى لا يبخل.. وفى ميدان هذا البيت يتجلى الدين فى أروع صورة وأبدع مظهر.. جموع تطوف وتطوف.. وفئات تصعد وتنحدر بين الصفا والمروة..

فمن خلال الطواف نتعلم النظام، ونتدرب على التعاون وإنكار الذات، ونتلقى دروساً عملية فى الآداب، والمروءة، والحب، والعطف، والحنان، ونؤمن بأن التوجيه الدينى أسمى من أى توجيه؛ فأى توجيه تكون له مثل هذه الفعالية؟ إن الجيوش تحتاج إلى ربط وإحكام، وضبط ودقة.. بعد تدريب متواصل.. وإشراف حازم.. إلا أننا نرى الحجيج - على كثرتهم واختلاف أجناسهم وتباين لغاتهم - يسرون فى اتجاه واحد.. وارتباط وتآزر، ووحدة وتكاتف.. ووسط التلبية الهادرة، والأصوات العالية.. إذا أذن المؤذن سمعوا الأذان.. ولبوا النداء.. فإذا بالجميع وقوف وكأن على رؤوسهم الطير.. لا تسمع حينئذ إلا همساً.. ولا تحس إلا أنفاساً، ولا ترى إلا أجساماً منظومة، وأقداماً مصفوفة.. إذا ركع إمامهم ركعوا، وإذا سجد سجدوا، وإذا قرأ أنصتوا، وإذا دعا آمنوا.. إنها صورة من صور الجمال.. من الحسن والجلال.. ومشهد من مشاهد الكمال.. ولتأت الدنيا.. الدنيا

ص: ٢١٢

كلها لتطل على هذا المنظر البديع المتناسق.. وليشهد الوجود كل الوجود بأن الإسلام هو دين النظام.. ودين التضامن.. ودين الألفة.. ودين الحياة..

إنه الأذان!

«وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَا تَوَكُّبَ رَجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا النَّبِيَّ الْفَقِيرَ» الحج: ٢٧، ٢٨.

نعم يا إبراهيم أذن.. أذن.. أذن.. فالدنيا تسمعك.. والكون يصغى إليك..

والجود يلبي.. فنداؤك عبر الزمان ينشر على الأرض السلام.. ودعاؤك يبعث في الآفاق رونق الحياة.. وعجبت يا إبراهيم عندما قال لك ربك: أذن يا إبراهيم..

فقلت وقتئذ: وما يبلغ صوتي؟!

فقال لك مولاك: يا إبراهيم عليك الأذان.. وعلينا البلاغ..

فناديت في الأجواء والآفاق: يا أيها الناس إن الله كتب عليكم الحج فحجوا.. فلبى نداءك أهل الأرض وأهل السماء.. حتى النطف في أصلاب الرجال.. والأجنّة في أرحام الأمهات..

انه السعى!

ومن خلال السعى بين الصفا والمروة يستشعر الحجاج معنى التضحية والجهد.. هذا الجهد الذي قاسته السيدة هاجر من أجل شربة ماء تروى غلة طفل، رضيع أنهكه الجوع وأرهقه الظمأ.. امرأة وحيدة وسط الجبال الشاهقة وبطون الوديان السحيقة تهول هنا وهناك.. في صعود وانحدار.. وحيرة واضطراب.. يمزق أحشاءها أنين ولد عليل.. جفّ ريقه.. وجمد لسانه اللاهث من شدة العطش.. فإذا ما اشتد الخطب.. وادلهم الأمر.. تجلت رحمة الله كالنور في الظلمة.. كالأمل الباسم وسط اليأس الحالِك.. فتفجّر الماء سلسًا.. وانساب عذبًا

ص: ٢١٣

دافقًا.. إنه بئر زمزم.. زمزم الميمون.. زمزم المبارك.. النبع الطاهر.. الرحيق الحلو.. الدواء الشافي؛ ليعرف الناس أن الله تعالى لا ينسى مخلوقاته.. وأن الفرج بعد الضيق.. وأن مع العسر يسراً:

«وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا».

وانها عرفات!

وفى الموكب الإلهي.. وفى الركب الروحاني.. وفى مسيرة الإيمان.. يتوجه الحجاج بين الزحام المتكاثف.. وسط الجموع الصاخبة.. وخلال الكتل الزاحفة قاصدين عرفات.. متجذرين من ملابسهم، اللهم إلا من إزار ورداء أبيضين يتساوى فيهما الغنى ذو المال الوافر والجاه العريض.. بالفقير والمسكين ليتذكروا جميعاً ذلك الكفن الذى يُلْفَهُم عند وداعهم الأخير.. وكما قال عيسى عليه السلام: «يا أيها الناس لقد جئتم إلى الدنيا وأنتم عراء، وستخرجون منها وأنتم عراء».

إن هذا الزحام المائج يذكركم كذلك بيوم الحشر وما فيه.. «يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم».. فى عرفات تذوب الطبقية.. وتتلاشى التفرقة.. وتتجسد المساواة الحقّة.. المساواة الصادقة.. المساواة الخالية من كل تكلف أو خداع.. المساواة التى فقدت فى العالم المتحضر.. وضاعت فى دنيا المدنية الزائفة..

عند الصعود إلى عرفات.. يتسابق الحجاج ويتنافسون.. يتسابقون إلى ربهم.. ويتنافسون فى كسب رضاه.. لله درك يا عرفات.. فيك ينسى المؤمن الدنيا وما فيها من متاع.. ويهجر الحياة بما تحويه من ترف وملذات.. لا يهّمه لفح الهجير.. أو وهج الشمس.. ولا يمنعه شدة برد.. أو هطول مطر؛ لأنه خرج من نطاق البشرية إلى رحاب الروحانية؛ لأنه انسلخ من المادية إلى عالم المعنويات؛ لأنه تجرد من تربيته ليصعد إلى الملاء الأعلى.. الملائكة.. وينتظم فى صفوف

ص: ٢١٤

الأبرار.. أى سحر فيك يا عرفات؟! إن البصر لا يقع عليك إلا ويرى عابداً يتبتل.. ومدتبا يتوجع.. ومؤمناً يخشع.. ومصلياً يركع.. وعاصياً ذا عين تدمع..

فكأنى بك بحيرة قدسيه تغسل الآثام.. وتمسح الخطايا.. وتمحو السيئات.. يومك يوم نور.. ويوم رحمة.. يوم بركة.. ويوم عطاء.. يوم يباهى به الله ملائكة السماء.. فتبتسم الآفاق.. وتشرق الأكوان.. ويعم الغفران.. فيندحر الشيطان..

كأنى بالحجاج يسألون عرفات عن هذه الأمجاد التى اعتلت ذروته.. وتلك الكتائب الأولى التى عاشت على سطحه فترة من الزمن.. وكأنى بالجبل الرحيب يقول: كانوا أبطالاً أفذاذاً جنوداً بواسل.. كانوا أنقياء أطهاراً.. صدقوا ما عاهدوا الله عليه.. أشدء على الكفار رحماء بينهم، تراهم ركعاً سجداً، يبتغون فضلاً من الله ورضواناً، تعرفهم بسيماهم من أثر السجود.. فرضى الله عنهم ورضوا عنه، وذلك هو الفوز المبين..

كأنى بالجبل الأشم يذكّرنا بالقائد الأعظم.. بالزعيم الأكبر.. بالمرشد الملهم.. محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وهو يلقي أسمى خطاب فى الوجود.. وأخلد حديث على صفحات الزمان.. وأظهر دستور عرفه التاريخ فى حجة الوداع.. يرسم للبشرية طريق خلاصها.. وسبيل مجدها.. ودروب سعادتها.. وسكب فى أذن الدنيا أصدق قانون.. فيه صلاح المجتمع.. وتقويم للخلق أجمعين.. صان فيه حقوق الناس وكرامة الإنسان:

«الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا».

إنها الروضة المباركة!

زيارتها تختلف عن كل زيارة.. زيارة فيها السعادة والهناء.. زيارة فيها الصدق والوفاء.. زيارة فيها الفوز والفلاح؛ لأنها نزهاء القلب.. لأنها فرحة الفؤاد.. لأنها فسحة الروح.. لأنها متعة خاطر.. لأنها فرصة الحياة.. زيارة

ص: ٢١٥

فواحة بالعطير.. شذية العبير.. دافعة بالطهر.. وهاجة بالنور.. فياضة بالأمل الوضاء.
 إنها زيارة محمد رسول الله صلى الله عليه وآله خاتم الأنبياء.. سيد المرسلين.. أفضل العابدين.. درة الخاشعين.... إنه أعظم مخلوق في الوجود.. إنه تاج الشرف على رؤوس البشر.. إنه وشاح الحق على كتف الزمن..
 وعبر هذه الزيارة الخاشعة تنهمر الدموع.. ويشتد النحيب.. ويتنفذ الوجدان.. فالكل أتى يدفعه شوق جارف وحنين عارم.. وشغف متحفز.. لزيارة رائد الإنسانية، ومعلم البشرية، وباعث المحبة.. ليكحل العين برؤياه..
 ويضمخ النفس بليقاه.. متنسماً ريح الجنة.. وأريج الفردوس.. فى صمت وخشوع.. ورهبة ورغبة.. وروعاً وجلال.. فهنا مهبط الوحي.. ومنابع الطهر.. ومنزل الرحمة.. وشاطئ الأمان.. ومشرق الحضارة.. ومحراب القداسة.. ومن خلال تلك الرحاب.. يتفجر الإيمان.. وينطلق اليقين.. وينبثق الدين.. وتذوب النفس فى كؤوس الصفاء.. فيبدو الحاج وقتئذ مجلواً بنور الله سبحانه.. وضياء بشعاع التقوى.. ومزوداً بخير زاد، مغتسلًا من الخطايا والآثام..
 متوجاً بتاج العز والكرامة.. عليه فيض من رضى.. وغمرة من حنان.. ولمسة من رحمة.. وهكذا يعود الحاج من رحلتهم الميمونة، ودراستهم المباركة، إلى بلادهم فى تألق وإشراق، ونقاء وانطلاق، يمنحون الحياة الخير والرجاء، وينشرون البر والسلام.

انها قرائع رائعة!

وأسوق هنا شيئاً من أمثلة الخواطر التى تجيش بها قرائع الشعراء حول فريضة الحج موقعاً وأهدافاً.. إنها خواطر مبعثها هذا الهوى المستكن فى أفئدتهم، إجابة لأذان أبى الأنبياء سيدنا إبراهيم عليه السلام.
 وهى خواطر مهما كانت لن تبلغ من وصف البحر الزاخر إلا ما تبلغه من

ص: ٢١٦

وصف قطرة ماء تنفصل من الموج الخضم المتلاطم، ومن ثم يبقى الحج دائماً مجالاً يتسع للمزيد من القول أمام هتاف الشعراء، حين يرون بأعينهم أمواج الحجيج في كل عام، تتجه- في بعث ونشور- قاصدة بيت الله الحرام، تؤدي ما افترض عليها، وتبغى ميلاداً جديداً في حياتها، ميلاداً بعد ميلادها الأول، ميلاداً يعود فيه الذاهبون من ذنوبهم كيوم ولدتهم أمهاتهم.

وأنظر إلى الكعبة المشرفة، يملأ البصر منها نور العين وتملاً البصيرة منها أنوار الروح وأقرأ:

«انَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ * فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ». آل عمران: ٩٦-٩٧.

لقد دار الزمان واستدار، وبلغت الروح دار القرار، قد أسكنتها إرادة الله بيته الحرام، وأمكنتها يد القدرة من رحلة العمر وتمام الأمر، فقد أجاب نداء أبي الأنبياء عليه الصلاة والسلام حين أذن في العالمين بالحج المبرور إلى البيت المعمور: «وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَا تَوَكَّرِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ» الحج: ٢٧.

إنها الروح!

التي تهتف:

خذوني خذوني الى المسجد خذوني الى الحجر الأسود

خذوني إلى زمزم علها تبرد من جوفى الموقد

خذوني لأستار بيت الاله أشد به فى ابتهاج يدي

دعوني أحط على بابه ثقال الدموع واستنفد

فإني أحيأ على لطفه وأن ياتنى الموت استشهد

إنها الروح!

ها هي الروح قد حملت البدن إلى تحية هذا البيت، حياً وإقبالاً، وتحية وامثالاً، فطاف البدن شفاءً ووفاءً وقرباً ورجاءً:

طف بي بمكة إني هدني تعبي واترك عناني فإني ها هنا اربى

ودع فؤادى يمرح فى مرابعها ففى مرابعها يغدو فؤادى حياً

فإن طوافى وسعى واحرامى.. ليمتد إلى مكة بأسرها.. فمكة كلها حرم؛

هنا أمرغ خدى صبوة وجوى فتهتف الحور بشرى خدك الترب

فإن رأيت دموعى انبتت حجراً فتلك منى دموع الفرحة العجب

ولماذا كل هذا الحب العاجب والشوق اللاجب. إنه وحسب تصديقاً بكتابك يا رب، ووفاءً بعهدك، واتباعاً لسنة نبيك صلى الله عليه و آله:

هنا بمكة أى الله قد نزلت هنا تربى رسول الله خير نبي

هنا الصحابة عاشوا يصنعون لنا مجدداً فريداً على الأيام لم يشب

وزيارة بيت الله الحرام لا يهدأ لها أوار ولا يقتر لها قرار، إنها هزة الشوق ولدعة التوق، وعند أعقاب هذا البيت أحيأ من جديد:

كم هزنى الشوق يا خير الديار وكم عانيت بعدك وجداً دائم السبب

ألا إليك أرى الأشواق تقعد بي وعند ذكرك أشواقى تعلق بي

وعند ذكرك أنسى أنني بشر وكالملاك أحيأ في المدى الرحب

فتبدعين كيأني من تقى وهدى فلا أحس بما ألقاه من وصب

ما غير زوره بيت الله ترجع لى شباب روحى إذا امتدت يد التوب

ربى حنانك فاكتبها وخذ بيدى كى يهتف القلب يا فوزى ويا طربى

اللهم آمين، اللهم اكتبها مبروره مأجوره لكل مشتاق، واطو اللهم له الديار والأسفار والأعماق، يا رب يا واهب يا فتاح يا رزاق.

إنها مكه أم القرى، الأرض التى حرمها الله فأصبحت للناس حرماً آمناً «أو لم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم...»

العنكبوت: ٦٧.

موطن الأمن والحمى والجوار درة الأرض منبع الأنوار

حرم الله أرضها وجباها من قديم بباهر الأسرار

مكة الطهر والسلام تسامى قدرها فوق سائر الأمصار

رحمة الله ظللتها وفيها من رضا الله أعذب الأنهار

كل من جاء للرحاب يلبى دامع القلب خشية من نار

يملاً الأمن قلبه وتتلقى روحه رحمة من الغفار

وليس بكثير على أم القرى أن تكون عروس المدائن وقبلة العابدين، فهى البلد الذى اختاره الله لبيته الحرام واختصه بالتوجيه إليه.

ترنيمه في بطحاء مكة:

وبها الأركان والبيت الذي شد بالإيمان ازر المسلمين
 اسعد الله بها من اسعدا جاور الركن وحيا المسجدا
 قف بهذا السفح قرب العلم وانهل الطيب شذا من زمزم
 وطف البيت طواف المحرم واعتمر لله رب العالمين
 من ذراها نزل الروح الأمين في ثراها وضع الحق المبين
 إنها المنهل والمورد، وهي الغاية والمقصد، فهي منزل الوحي ودار الإسلام:
 شريعة الله رفت في مأذنها وفي الحنايا دعاء سبح الله
 تروى العطاش على الأزمان زمزمها كما روى لهيف الخطو مسعاها
 من كان في كنف البطحاء مسكنه كانت سجايها بعضاً من سجايها
 ومن تكن كعبة الإسلام قبلته فإنما الخلد والرضوان عقباها
 وتتواصل الخيرات والبركات بين مهد النبوة ومهبط الوحي:
 بوركت يا أم القرى من بقعة خلعت عليها الينبات إهابها
 زف الخليل إليك إسماعيل فالتقت هضابك بالجلال وبالباها
 وأتى ختام المرسلين مبشراً بالنور يجلى للنهي ما رابها
 وغدوت بالبيت العتيق منارة أبداً تردد هديها وثوابها
 وعدت مروجاً كالرياض وجنة رضوان فتحت للحنيفة بابها
 يا أيها الناس! إن الله قد فرض عليكم الحج فحجوا، فما يدرى أحدكم ما يعرض له فقد يضيع المال، وتصل الراحلة، وتكون الحاجة،
 فهيا نردد:

إلى عرفات الله يا خير زائر عليك سلام الله في عرفات
 ففي الكعبة الغراء ركن مرحب بكعبة قصاد وركن عفاء

ص: ٢٢٠

على كل أفق بالحجاز ملائكتك تزف تحايا الله والبركات
لدى الباب جبريل الأمين براحة رسائل رحمانية النفحات
وما سكب الميزان ماء وإنما أفاض عليك الأجر والرحمات
وزمزم تجرى بين عينيك أعينا من الكوثر المعسول منفجرات
فالكعبة الغراء منتهى القصاد، وراية العباد، وإليها تطير الأرواح فالتوجه إليها عبادة، والنظر إليها عبادة، وهذه مناجاة الكعبة الغراء:
بنور على أم القرى وبطيب غسلت فؤادى من أسى ولهيب
لثمت الثرى سعياً وكحلت مقلتي بحب كأسرار السماء مهيب
وأمسكت قلبى لا يطير إلى منى بأعبائه من لهفه وحبيب
هنا الكعبة الزهراء والوحي والشذى هنا النور فافنى فى هواه وذوبى
ويا مهجتى بين الحطيم وزمزم تركت دموعى شافعاً لذنوبى
وفى الكعبة الزهراء زينت لوعتى وعطر أبواب السماء نحيبى
الحجاج والعمار وفد الله - عز وجل -، وهم مضمونون عليه، إن قبضهم أن يدخلهم الجنة وإن ردهم، ردهم بأجر وغنيمه؛ يحمل قلبه،
وقلوبنا معه إلى البيت العتيق فيقول:
فلبى الله مبتهلاً إليه إلى البيت العتيق حملت قلبى
على الخدين فى صمكت لديه وطاف بركنه والدمع يجرى
وبين المروتين سعيت سعياً كما يسعى الحمام بمروتيه
له سبحانه ندعو ونرجو هداية أمة وقدت عليه
وما فى الأرض من نعم توات على مر الزمان فمن يديه
فله وحده سبحانه الشكر والضراعة والذكر، لييك اللهم لييك.. لييك لا

ص: ٢٢١

شريك لك ليك.. إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك ليك.

لييك يا رب الحرم.. لبيك يا رب الجود والكرم..

لييك يا رب الورى لبيك أنت المنعم

هذا نداؤك قد سرى والكل باسمك محرم

ولكم تخر لك الجباه وأنا بعفوك أطمع

وسيظل الطمع فى رحمة الله، وغسل الذنوب على أبواب التوبة وأعتاب الرجاء:

دعونا إلى الحج حتى سعى له كل من رامه مطمعاً

فكنا له خير داعٍ دعا بعزم متين ودين مكين

رفعنا على البيت أسمى لواء وطاف بمكة منه الدعاء

سرى فى البطاح شجى الرجاء مغنى به كل جاد أمين

وهذه نبعه ثرة من نبعات الحياة، وخفقة من خفقات القلب النابض، إنها مناجاة حيث باب الكريم وحيث فضله وكرمه وعفوه...

كعبة الحسن تبتت سحراً فما أحلاها بوقت السحرا

تغمر الأرواح من نفحاتها تتملئ من شذاها العطرا

كلما طفت بها فى لهف هزنى الشوق للثم الحجرا

فرسول الله قد قبله كيف لا أنها بلثم الحجرا

فهى الأرض التى بارك الله تراها وسماها، لا يفزع طيرها.. ولا يعصد شجرها.. وهى سقيا زمزم.. طعام طعم وشفاء سقم.. فهنيئاً لأهلها

حيث ينجيهم:

ص: ٢٢٢

يا أهل مكة ماء زمزم عندكم يشفى من الالام والأسقام
 وطعام طعم لا مرأه بفضله وشفاء سقم فى مدى الأيام
 وعلى طريق الحب فى الله.. وعلى خطى رسول الله يتدفق نهر الإيمان بين مكة والمدينه..
 يا أهل مكة حيا الله معدنكم أنتم كرام وفيكم يزهر الأمل
 ما فكر القلب يوماً فى سلوككم وكيف أسلو ونار الشوق تشتعل؟!
 ولى بمكة إخوان عرفتهم وقلوبهم برسول الله متصل
 إن تحتفل أمه فى ذكر قائدها فإننا برسول الله نحتفل

والحج شعيرة الشعائر وحياء الأبدان والضمان، ورحلة الولاء والبراء:

«وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ».
 وتتجلى عطاءات الجواد الذى لا- يعضل، والكريم الذى لا- يبخل، وهبات الحليم الذى لا يعجل، على كل من طاف ولبى، ووقف
 بساحه العرض بعرفات الله.. حيث يشهد الله ملائكته أنه قد غفر لأهل عرفات جميعاً..
 فى ائتلاف النور والجلال فى عرفات وهدير الدعاء ملئ الحياه
 وحشود الحجيج موج تموج قد تهادى فى موكب الرحمت
 ملؤها النور والجلال وفيض من فيوض الإيمان والنفحات
 وامتداد الأكف لله تدعو والضراعات ملئ كل الجهات
 فيباهى بهم إله البرايا كل من فى السماء من كائنات
 هم لمبادئ أتونى اليوم شعناً لا يريدون غير وجهى وذاتى
 فاشهدوا أننى غفرت ذنوباً لعباد يدعون فى عرفات
 ونختم هذا الفصل بقصيده أحمد شوقى حين حج صديقه محجوب البيت الحرام، وفى بدايتها يتوجه إلى هذا الصديق بالحديث ذاكراً
 له ذلك المكان، الذى له الوقع الحسن على أذن كل حاج يقصد بيت الله الحرام وهو الحجاز:
 محجوب إن جئت الحج الحجاز وفى جوانحك الهوى له
 شوقاً وحباً بالرسول واله ازكى سلاله فلمحت نضرة بانه و شممت كالريحان ضاله
 وهنا يشير الشاعر إلى الهوى، والشوق، والحب الذى يملأ جوانح كل متجه إلى حج بيت الله الحرام، وإلى زيارة النبى صلى الله عليه و
 آله، تلك المشاعر القلبية التى تجعل العيون ترى كل شى حولها بهيجاً ناضراً ذا عقب طيب ورائحة زكية.
 ثم يتابع الشاعر المسير مع هذا الحاج متنقلاً معه إلى حيث الأماكن المقدسة فيقول:
 وعلى العتيق مشيت تن ظر فيه دمعك وانهماله
 ومضى السرى بك حيث كان الروح يسرى والرسالة
 وبلغت بيتاً بالحجاز ز يبارك البارى حياله
 الله فيه جلا الحرام لخلقه وجلا حلاله
 فهناك طبّ الروح طبّ العالمين من الجهالة
 إنه ينتقل معه إلى البيت العتيق، وإلى كل مكان سرى فيه الروح الأمين بالرسالة القرآنية التى أحلت الحلال، وحرمت الحرام فى جلاء

ووضوح لا مجال فيه لشك أو ريب، وهنا يأتي التذكر بالنع والشمرة المنتظرة بعد أداء الفريضة، إنها الشمرة التي تشفى بها الأرواح من مرض، وتهدى بها العقول من بعد ضلالة، إنه

ص: ٢٢٤

الطبّ الناجع في الشفاء؛ لأنه طبّ رب العالمين، الذي خلق فسوى، والذي قدّر فهدى.

ويتابع الشاعر التذكير بكل شى يجده الحاج من كل ما يتصل بماضيه مكاناً وثقافه وذكريات غالية:

وهناك أطلال الفصاحة والبلاغة والنبالة

وهناك أزكى مسجد أزكى البرية قد مشى له

وهناك عذرى الهوى وحديث (قيس) والغزاة

وهناك مجرى الخيل يجرى فى أعنتها خياله

وهناك من جمع السماحة والرجاحة والبسالة

وهناك خيتم النهى والعلم قد ألقى رحاله

وهناك سرح حضارة الله فيأنا ظلاله

إنها دعوة إلى استحضار الماضى بكل أمجاده ومفاخره؛ إذ لا انفصال للحاضر عن الماضى فى تاريخ كل أمة تعتز بنفسها وتريد أن يكون لها شأن بين الأمم.

إن هذا الماضى هو الذى يوقد عزائم الحاضر؛ لكى تشعر فى داخلها أنها جديرة حقاً بأن تصنع شيئاً، من هنا كانت هذه الإشارة المكررة فى أبيات الشاعر (وهناك) تلك الإشارة التى تعنى التذكير، والتعظيم، والإعلاء، والإكبار لكل ما هو مرصود مذخور فى تاريخ هذه الأمة.

إن كل ذلك يمثل حضارة أنعم الله تعالى بها عليها، وجعلها تفتياً ظلالها، ومن ثمّ فهى نعمه يجب أن تشكر، وأول دلائل الشكر أن يحافظ عليها، وحفظها بإحيائها، والتمسك بها، والعمل على منوالها فى تجديد موصول، لا تنفصم فيه العرى، ولا تنقطع بين أطرافه الأسباب.

تهفو قلوب المؤمنين إلى المسجد الحرام، ولا يهدأ هذا الحب مهما تغير الزمان

ص: ٢٢٥

وتراخت الأيام؛ ذلك لأنهم يرون فيه بقيّة من مجد دينهم السالف امتزج بروحهم امتزاج النور بالهواء، لا يتنسى لمحلل أن يفصم ما بينهما، ولا لمعتك الحياة أن تمحو أثرهما.

يتذكر المسلمون ما غبر من تاريخ هذه البلاد، وتمرّ بخيالاتهم أطياف مما عمل سكانها، ويستنبطون ما فى الأرض ويستظهرون ما على ظهرها بها فيشرفون من حال إلى حال، ويجدون أن دهرهم هدم منهم العناصر الحية، فتناثرت رفاهيتهم وذاقوا بأسهم، فكانهم هم الموتى، وكان أسلافهم أضفت عليهم الحياة أثوابها، فتلك آياتهم متجسمة تفرغ حياتها وتشرق نورانيتها على هذه المشاعر الكريمة، وتسطر كلماتها فى الأرض إلى نهاية الدنيا؛ ليقراً فيها معانى الإخلاص والوفاء والرحمة، وناهيك برجال استلهموا الفطنة فما كذبتهم، وعالجوا الهموم فما صرعتهم، وقطعوا الشك يتلجلج فى الصدور بقوة يقينهم، ومحووا الخوف يذهل النفوس بصرامه إقدامهم، فإذا دين الله يزيد أتباعه ولا يقلون، وينفذ شعاعه فى رفق وتؤدة حتى يستفيض على الجزيرة وما حوالها جميعاً فى مدى لا يتجاوز العشرين عاماً، وهى فى عمر الدهر لم تكن شيئاً مذكوراً، فكانت هذه المعجزة الإنسانية الكبرى التى تفيأ ظلالها كلّ لاجئ والمنارة الوضوء لمعاني الإخاء والمساواة إذا رغبت الناس فى نعمة الحياة، واهتدوا إلى دين الله.

أفكان من الغريب أن يشرع الله من فضله فريضة الحج ويجعلها أحد أركان الدين الخمسة؟! ليصل المسلمون حاضرهم بماضيهم، ويغذوا مشاعرهم بذكريات أسلافهم، ويترسموا فى دنياهم خطى رجالاتهم؛ ويعلموا أن المسلم أخو المسلم لا يفرق بين الأخوين اختلاف مكان أو تفاوت لسان أو ألوان، وهذه بقعة الحج تجمع بينهما على بعد المكان، وتغرس الود فى نفسيهما على تقوى من الله ورضوان.

إذا أذن مؤذن الحج رأيت صدى دعوته يتجلجل فى جنبات العالم الإسلامى،

ص: ٢٢٦

ويهب المشاعر هزاً إلى أرض الحجاز، وإلى الكعبة قبله المسلمين، وإلى تلك المناسك التي تفصح عن سرّها، وتبين عن شريف حكمها، فإذا وقف الحجيج في عرفات، هاتفين لبيك لبيك - وقد حسروا الرؤوس وأطرحوا زينة هذه الحياة الدنيا - فكأنهم في يوم المحشر وقد زاغت الأبصار فلن ترى إلا - خاشعاً يتبتل، وباكيًا يتوسل، ومذنبًا يتوب، ونفسًا تذوب، وتشعر آئذ أن الروح الأمين والملائكة المقربين تطل على هذه الجموع من عل، معجبة بتقواها، مشاركة في دعواها، مفرة بقصور علمها عن مغزى الإرادة الصمدانية:

«سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم».

يؤلف بين المسلمين ويجمع كلمتهم، ويلفتهم إلى أن القوة في اتحاد الكلمة، وطرح تلك الزخارف الفاتنة والرجوع إلى طهارة الدين، فإذا كانوا يريدون الخير فهذا طريقه مُعَبَّد وما عليهم لو خرج أغنياؤهم ومتوسطوهم عن قليل من المال في سبيل هذه الفريضة وشهود الجماعة، فيؤدون واجباً لله في إقامة أحد الأركان، وواجب الأُخوة الإسلامية في توثيق روابطها، وواجب الإنسانية في برّ جماعات انقطعوا لجيرة الله، وحُرموا كثيراً من وسائل الحياة، ثم شاهدوا آثاراً حافلة بشتى الذكريات تحدث عن غير حديثاً عجيباً يهدى إلى الرشد، ويحفز إلى كل فضيلة وكمال، وما تقهقر المسلمون إلا حين تراخت العرى بين ماضيهم وحاضرهم، فزلزلتهم أطماع الدول، وتنكرت لهم مباسم الكون وخشنت مناعم الزمان، وضرب الدهر ضربته في ذلك البنيان المرصوص حتى كاد اليأس يعصر عود الأمل، ويصبح أبناء الإسلام في ليل من الشك مظلم. نعم في تلك البقاع الطاهرة تتحلى النفس بالقوة، وتتجلى الشمائل المرجوة، وتحسس إلى النفس معاني الشرف والإباء والمفاخرة، تدفع بها دفعا لا شعورياً إلى الاستهانة بالخطوب.

إن هذه المناسك التي يؤديها الحاج لتكشف عن نواحي العظمة في هذا الدين،

ص: ٢٢٧

وتحت على السمو بالروح إلى عليين، فهذا الإحرام والطواف حول الكعبة، والسعى بين الصفا والمروة، والوقوف بعرفات، ورمى الجمار، عند العقبة، وتقديم الهدى، واستلام الحجر الأسود، والإهلال بالتلبية.. كل هذا يفسح للمتدبر العاقل عن مغاز سامية لصالح المعاش والمعاد، وتلك البقاع الحجازية تهيب كل بقعة منها بالمسلم أن يكون رجلاً قوى الإرادة، لا يثنيه في سبيل الحق والكرامة خطب إن ذل، ولا مغر وإن جل، هذا جبل ثور وغاره المبارك، مهبط جبريل على خاتم النبيين، وتلك دار الأرقم شعار الوفاء والتضحية، وتلك الكعبة بناء إبراهيم، وعرفات مجمع الحسنات، يرى المؤمن في كل منها حالاً تنطلق بمجد الدين والأجداد، وهاجياً يرشد الأبناء والأحفاد!!

الرمزية:

ومن الجوانب الخاصة بفضيلة الحج أنه يتعلق بمشروع إلهي عظيم، بدأ بإبراهيم عليه السلام واكتمل بمحمد صلى الله عليه وآله. ومناسك الحج المختلفة هي مراحل هذا المشروع الإلهي التي يعيدها الحاج بصورة رمزية: فالإنسان الحاج يغادر موطنه متجهاً إلى الحجاز كما كان إبراهيم عليه السلام قد خرج من العراق متجهاً إلى الحجاز. ويتخلى الحاج عن ملابسه العادية ويلفّ حول جسده رداءين، وهذا اللباس - الذي هو الإحرام - مماثل للباس البسيط الذي كان إبراهيم وإسماعيل يرتديانه. وعندما يصل الحاج مكة ويطوف حول الكعبة فهو يقلد الطواف الذي قام به إبراهيم وإسماعيل توثيقاً للعهد الإلهي. وعندما يسعى الحاج سبع مرات بين الصفا والمروة فهو يقلد سعي هاجر؛ بحثاً عن الماء في الصحراء. وعندما يذهب الحاج إلى منى وينحر قربانه فهو يعيد - بصورة رمزية - ما

ص: ٢٢٨

فعله إبراهيم حين استعد لنحر ابنه، ثم نحر كبشًا بأمر ربه.

وعندما يتوجه الحاج إلى الجمرات فيرمى الشيطان بالجمار فهو يكرر عمل إسماعيل عليه السلام الذي رمى الشيطان بالجمرات عندما حاول أن يغويه.

ثم يجتمع كل الحجاج بميدان عرفات، وهنا يجتمع كل الحجاج في ميدان واحد مفتوح، فيعاهدون ربهم عهدًا جماعيًا أنهم سيظلون ينفذون في حياتهم القادمة ما تعلموه خلال الحج، وأنهم سيعيشون مقلدين حياة أولئك الأبرار الذين يكون الحج تذكيرًا لهم. وقد وصف القرآن مناسك الحج بالشعائر، أي العلامات.. وهي كلها الوقائع التي وقعت لإبراهيم وأسرته خلال تنفيذ الخطأ الإلهية التي أرادها الله تعالى من إبراهيم عليه السلام.

ومن الجوانب الخاصة بفضيلة الحج أنه يتعلّق بمشروع إلهي عظيم بدأ بإبراهيم عليه السلام واكتمل بمحمد صلى الله عليه وآله ويقلد الحاج هذه الوقائع بصورة رمزية ويعاهد ربه بأنه - هو الآخر - سيصبح جزءاً من هذا التاريخ الإيماني الذي ترتضيه السماء. فالحاج يعاهد ربه بأنه لو طرأت الحاجة فإنه سوف يحطم حياته القائمة ليتقدم نحو الحق، وأنه سيرضى بترك الراحة والرفاهية واختيار القناعة والبساطة، وأنه سيسعى من أجل الله، وأنه سيرمي تقاليد الشيطان بالجمار، وأنه سيدور حيثما دار به دين الله، وسيستسلم لكل ما يقتضيه هذا الدين.

فالحاج يقول لله تعالى بلسان عمله وحاله: إنه لو اقتضت الضرورة مرة أخرى لأجل الدين فإنه مستعد لكي يذهب إلى منتهى ما يمكن أن يذهب إليه أحد من البشر، وهو أن «يذبح» ابنه ابتغاء مرضاء الله.

النسل الجديد!

وكانت رحلة إبراهيم عليه السلام من العراق إلى مكة والوقائع التي وقعت هنا بعد مجيئه خطئاً إلهياً عظيماً الشأن بدأ تنفيذها قبل نحو ٢٥٠٠ سنة، وخلاصة هذه الخطئ أن الشرك كان قد غلب على الفكر البشرى منذ نحو خمسة آلاف سنة؛ لدرجة أن شعبة ما من شعب الحياة لم تكن تخلو من أثر الشرك، واستمر هذا الحال جيلاً بعد جيل، وكانت النتيجة أن قام تسلسل فكرى للشرك عبر الأجيال المتعاقبة. وكل مولود فى تلك الأزمنة كان يرث عقلية الشرك وينشأ عليها، وهذا هو السبب فى أن نداء الأنبياء بالتوحيد لم يكن يؤثر فيهم كثيراً.

وهنا وضع الله تعالى خطئاً لكى ينشأ نسل جديد من البشر بعيداً عن مؤثرات بيئة الشرك؛ لكى يفكر بعيداً عن تسلسل الشرك الفكرى.. وكان أنسب شئ لهذا مكاناً غير مأهول، وبعيد عن المستوطنات البشرية. ولذلك اختيرت لهذا الغرض بلاد العرب الصحراوية المجدبة التى كانت منقطعة عن العالم المأهول حينذاك.

والإنسان الأول المطلوب لإنشاء نسل جديد فى هذه المنطقة الصحراوية الجدباء هو من يكون مستعداً ليسكن فيها، مدرغاً أنه قد يدفع حياته ثمن العيش بها، وهنا رأى إبراهيم رؤياً بأنه «ينحر» ابنه.. وكان المقصود من هذا هو التأكد مما إذا كان إبراهيم مستعداً لكى ينضم إلى الخطئ الإلهية بحيث يذهب بولده ويسكنه هناك حيث لا شئ غير الجبال المجدبة وصحارى الرمال.. فكان السكن فى الحجاز حينئذ مرادفاً للسكن فى وادى الموت.

وقد ظل الحجاز غير مسكون فى الأزمنة الغابرة لفقدانه الماء والخضرة.

وكان الحجاز القديم خالياً من آثار حضارة الشرك؛ لأنه كان خالياً من وسائل الحياة. وهذه الخاصية التى أخلت الحجاز القديم من المشركين هى التى أهلتها لكى يُعدَّ به نسل جديد من الموحدين، وكان وضع إبراهيم المدية على حلقوم ابنه

ص: ٢٣٠

إسماعيل إعلاناً بأنه مستعد لهذه التضحية كل الاستعداد؛ ولذلك اختير إبراهيم وإسماعيل لهذه الخطئة الإلهية، وبدأ العمل لإعداد نسل جديد من البشر بإسكان إسماعيل وأمه في منطقة نائية من الحجاز القديم. وكان إبراهيم عليه السلام قد دعا الله بأن يُظهر رسولاً من نسل إسماعيل..:

«ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم» البقرة: ١٢٩. وقد ولد رسول الله صلى الله عليه وآله نتيجة هذا الدعاء. ولكن، كما هو معلوم، هناك فاصل ٢٥٠٠ سنة بين هذا الدعاء وتحققه، والسبب في هذا التأخير هو أن نسلًا جديدًا كان يُعدّ خلال هذه المدة ليفكر بعيدًا عن تسلسل الشرك الفكري، ويكون مستعدًا ومؤهلًا نتيجة التربية الصحراوية لكي يقف إلى جانب الرسول ويساعده على تكميل رسالته؛ ولهذا السبب سميت هذه المجموعة بـ «خير أمّة»، وهي أغرب أمّة في التاريخ، فصحيح أن جزءاً منها عادى الرسول في بداية الأمر، إلا أنها وقفت إلى جانبه بكل قوتها عندما فهمت الأمر وأدركت الحقيقة.

وهذا النسل الذي نشأ بمكة قد تداخلته - فيما بعد مؤثرات - الشرك من جزاء تأثير البيئة المحيطة، ولكنه كان نسلًا محفوظًا نقيًا في حقيقة الأمر، وكان الناس على الفطرة الصحيحة باستثناء بعض الأفراد قليلي الفهم، وقد وقف أفراد من هذا النسل موقف المعاداة من الرسول في بداية الأمر، إلا - أن معاداتهم كانت تعود إلى الجهل، وعندما أدركوا أن محمدًا رسول حقًا وأن دينه صادق، تحولت عداوتهم إلى قبول وتحولوا إلى أصحاب له بكل ما لديهم من همّة ونشاط.

وكانت الصفة المميزة للنسل - الذي أعده إبراهيم عليه السلام بذبح ابنه رمزياً - هي أنه كان ينظر إلى الأشياء نظرة حرة مستقلة، وكان بإمكانه أن يعترف بمثل هذه الحقيقة، فكان يتمتع بكامل الكفاية للاعتراف بالحقيقة.

وفيه فئات ثلاث:

ص: ٢٣١

فئة آمنت بالحق فور اطلاعها عليه.

والفئة الثانية أنكرت النبوة في بداية الأمر إلا أنها بادرت إلى الاعتراف بها عندما فهمت الحقيقة.

أما الفئة الثالثة فلم تعترف للحفاظ على رئاستها ومراكزها...

١- كان خالد بن سعيد بن العاص من أوائل الذين آمنوا برسول الله صلى الله عليه وآله، وجاء خالد إلى رسول الله ذات يوم وقال: «يا محمد إلام تدعو؟ قال: أدعو إلى الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، وخلع ما أنت عليه من عبادة حجر لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع ولا يدري من عبده ممن لم يعبه. قال خالد:

فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله؛ فسرى رسول الله بإسلامه، وتغيب خالد، وعلم أبوه بإسلامه، فأرسل في طلبه من بقي من ولده ممن لم يسلم ورافعاً مولاه، فوجدوه فأتوا به إلى أبيه أبي أحيحة، فأثبه وبكته وضربه بمقرعة في يده حتى كسرها على رأسه ثم قال: اتبعت محمداً وأنت ترى خلافه قومه وما جاء به من عيب آلهتهم وعيب من مضى من آبائهم؟ فقال خالد: «قد صدق والله واتبعته» (١).

وكان خالد يقول بعبارة أخرى: إنه عندما يقول محمد القول الحق، فكيف يمكنه ألا يعترف برسالته ويؤمن بها؟!

٢- ويتعلق المثال الآخر بسهيل بن عمرو الذي كان مندوب أعداء الإسلام عند صلح الحديبية.. وعندما بدأوا في كتابة المعاهدة بعد مفاوضات طويلة قال رسول الله صلى الله عليه وآله، وهو يملئ نص المعاهدة: «هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله»، فاعترض سهيل بشدة على كلمة «رسول الله»، وقال: «والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك».

ويخبرنا التاريخ أن سهيل بن عمرو كان صادقاً كل الصدق في كلماته هذه

١- الطبقات الكبرى لابن سعد، ٤: ٩٤ طبعه دار بيروت، ١٣٩٨، ١٩٧٨.

ص: ٢٣٢

وكان يعارض الإسلام بسبب جهله ليس إلا، أما حينما أدرك سهيل - فيما بعد- أن الرسول صلى الله عليه و آله نبي صادق، آمن به وسخر حياته كلها لأجل الإسلام، وقد وقف سهيل موقف صدق يذكره التاريخ حين همت قريش بالردة في أعقاب وفاة رسول الله صلى الله عليه و آله.

والنسل الإنسانى الذى أنشأه إبراهيم عليه السلام بامثاله «ذبح ولده»، تكونت منه «خير أمة» أى من صفوة هذا النسل والتي قبلت بدين التوحيد قبولاً كاملاً، وقضت على عصر الشرك بتضحيات لا مثيل لها، وفجرت عصر التوحيد..

واستغرق تنفيذ هذه الخطة ألفين وخمسمائة سنة، ابتداءً بإبراهيم عليه السلام وانتهاءً بمحمد صلى الله عليه و آله، وكان مركز هذه الخطة تلك المنطقة من بلاد العرب التى تسمى بالحجاز ومركزها مكة.

«... يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم» البقرة: ١٢٩.

العهد والعمل:

والحج إعادة رمزيه لذلك التاريخ، والمسلمون يعاهدون ربهم مرة أخرى عبر شعائر الحج بأنهم راغبون فى الاشتراك فى هذه الخطة الإلهية.. فهم يتقاطرون إلى أرض إبراهيم وإسماعيل رافعين شعار «لبيك اللهم لبيك»، ويقلدون- بصورة رمزيه خلال أيام معلومات- ما وقع عليهما فى حقيقة الأمر.

والحقيقة هى أن عمل الحاج لا ينتهى بعد الفراغ من شعائر الحج، بل يبدأ عمله الحقيقى بعد الانتهاء منها، فعودته من الحج بداية لرحلة أكثر أهمية..

ويردد الحاج مرة بعد أخرى خلال شعائر الحج كلمات: «لبيك اللهم لبيك»..

فما هى هذه الكلمات؟ إنها كلمات معاهدة بين الله وعبده.. وتقع المعاهدة دائماً فى

ص: ٢٣٣

بداية أمر ما، فهي ليست نهاية له، وهكذا عبادة الحج، فمن يعود بعد أداء مراسم الحج فقد رجع بعد عقد معاهدة مقدسة مع ربه، ويجب عليه ألا يخلد لحياته على سابق عهدا قبل الحج، بل يجب عليه أن يبدأ العمل وفق أحواله وكفايته طبقاً لما عاهد ربه، فالعودة من الحج عودة من مقام العهد إلى مقام العمل، ولا تنتهي مسؤوليات الحاج بعد الانتهاء من الحج، بل تزداد وتكبر في حقيقة الأمر. وما هي معاهدة الحج؟ إنها عزم إعادة تاريخ معين، وهي إقرار باستعداد العبد لتكرار الحياة الإبراهيمية، فحين شاهد إبراهيم عليه السلام أهل العراق «المتحضرين» لا يصغون لكلامه حول التوحيد والآخرة، وضع خطة جديدة لعمله بأن أخضع نفسه وأسرته لأشد التضحيات فأنشأ نسلًا جديدًا، لقد حوّل إبراهيم عمل الدعوة إلى خطة عظيمة، وقام بكل ما كانت هذه الخطة تقتضى منه من تضحيات.

وهكذا يجب على الإنسان أن يقوم اليوم بكل ما تقتضيه الظروف، وأن يظل صابراً على هذا الدرب إلى أن تحين منيته، أو أن يصل إلى هدفه المنشود.

إن الحج عزم على إعادة هذا التاريخ بصورة رمزية في أيام الحج، وبصورة عمل مخطط في الحياة الحقيقية بعد انقضاء أيام الحج. هذه هي طاقة من معالم الحج وهذه بعض مقاصده وثماره... انتقيت أكثرها من كتابات متناثرة هنا وهناك عرضت لي، فرأيت من المناسب جمعها وترتيبها مع حذف أشياء وإضافة أخرى...

ص: ٢٣٤

شخصيات من الحرمین الشریفین (٢٠) سلمان الفارسی

إشارة

هادی القیسی

تشرق على صفحاتنا هذه شمس الحقيقة، التي جسدت جوهر الوفاء والمحبة والتفاني؛ من أجل خط ونهج كان ولا يزال يعيش في هاجس شخصيه عظيمه، رسمت لنفسها طريقاً شائكاً نهايته السعادة الأبدية.

هذا الطريق لا- يسلكه إلا من رأى الحقيقة بقلبه قبل عينيه، فقرر أن يستمر به وإن أدى إلى ترك الأهل والأوطان، فعزف عن الحياة الرغيدة التي لم تدم لأحد، واستبدلها بما هو أعظم منها.

فمن اللحظة الأولى التي وصل بها هذا الباحث إلى أنشودته وعثر فيها على ضالته، أخلص لها بكل ما اوتى من قوة، وبقي يقدم ويضحى ويتفاني من أجلها، غير متأثر بالعوائق والموانع التي توضع في طريقه، لأنه كان موطناً نفسه على كل المصاعب والمتاعب من أجل هذا الهدف، وقد وصل إليه، وبعد هذا فلا يثنيه عنه أحد، فهو كالجبل الراسخ لا تهزه الرياح العواتي.

ترى من هو ذلك الشخص الذي يتحلى بهذه الصفات؟ لا بد أنه من عظماء الأمة الإسلامية ورمز من رموزها وعلماء من أعلامها.

نعم، إنه صحابي من بين آلاف الصحابة الذين عاشوا مع رسول الله صلى الله عليه و آله

ص: ٢٣٥

وصاحبوه، لكنّه استطاع - بإيمانه وإخلاصه ووفائه وثباته وتفانيه في خدمة الإسلام ونبية الأكرم صلى الله عليه وآله - أن يحتل الصدارة في صف الصحابة عامة والتابعين له بإحسان خاصة، ليكون رائدهم ورمزهم وقدمتهم بعد أمير المؤمنين عليه السلام، والذي صار جزءاً وفرداً من أفراد بيت النبوة ومعدن الرسالة ومهبط الوحي والتنزيل، وذلك حين قال في حقه النبي صلى الله عليه وآله: «سلمان منا أهل البيت».

هذا واحد من الصفوة ومثال متكامل برز بين مجموعة صُنِّفت من الرعيل الأول، والطبقة المتميزة من الصحابة أمثال أبي ذر وعمار والمقداد و... وغيرهم.

وهناك نوع آخر أيضاً، كان يُعدّ من صحابة النبي صلى الله عليه وآله لكن كان من صنف آخر ونوع لا يحمل من الصحبة إلا اسمها، وهم الذين قال فيهم صلى الله عليه وآله: «إن من أصحابي اثني عشر منافقاً منهم ثمانية لا يدخلون الجنة» (١). وقال أيضاً: «ليردن عليّ الحوض رجال ممن صحبني ورآني حتى إذا ارفعوا إليّ اختلجوا دوني، فلاقولن: رب أصحابي، فليقالن: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك» (٢).

وفي سند آخر بزيادة: إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم (٣).

من هنا نعلم أنه ليس كل من صاحب النبي الأكرم صلى الله عليه وآله كان ذا مقام ومكانة، بل هو مقام من ثقلت موازينه، قال عز وجل: [فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ] (٤). وقال أيضاً: [فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ] (٥).

إذن، ليس من العدل والإنصاف أن نصنّف الصحابة كلّهم في مرتبة واحدة،

١- كنز العمال ١: ١٦٩.

٢- المصنف ٧: ٤١٥.

٣- المصدر نفسه ٨: ١٣٩.

٤- القارعة: ٦-٧.

٥- الزلزلة: ٧.

ص: ٢٣٦

والحق القول ما قاله عز وجل: [إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ] (١).

من هنا، رأينا ضرورة تصفح التاريخ والنظر في حياة كل صحابي حتى نصنّفه من أي الطائفتين هو، ولتعلم كل على حقيقته ويعطى كل ذي حق حقه، حتى لا نتولى من ليس أهلاً، أو نتبرأ ممن هو أهل، فنكون قد أجحفناهم، فرغنا من كان أهلاً للضعف، ووضعنا من كان أهلاً للرفعة.

وقد سعيت جاهداً تبيان الحقائق ونفض الغبار عنها، وإيقاف القارئ الكريم على الموارد التي حاول بعضهم أن ينال فيها من شخصية سلمان وأمثاله من الصحابة الأجلّة ويشوّه سمعته، ومنه تعالى نستمد التوفيق.

اسمه ونسبه

كان اسمه قبل الإسلام روزبه بن خشنودان، نشأ في بلدة تدعى رامهرمز من توابع بهبهان، وكانت من توابع شيراز سابقاً، ومن توابع خوزستان حالياً (٢)، خلافاً لما يدعيه بعض المؤرخين أنه من إصفهان من بلدة جي، فهو من أبناء وأشراف قومه، سمّاه رسول الله صلى الله عليه وآله سلمان بعد أن اعتقه.

كنيته: أبو عبدالله، أبو الحسن، أبو إسحاق، أبو البيّنات، أبو المرشد، واشتهر بالكنية الأولى. لقبه: المحمّدي كما سنقرأ ذلك فيما بعد، الخير.

قصة إسلامه

هناك قصة طويلة تنقل عنه يذكرها جمع من مؤرخي أهل السنّة تتضمن: أنه كان يسجد للشمس ويعبد النار، ثم صار نصرانياً، ثم أسلم بعد مجيئه إلى المدينة المنورة. إلا أن هذه القصة بخصوصياتها لم تثبت من المصادر المعتبرة، مضافاً إلى

١- الحجرات: ١٣.

٢- إكمال الدين: ١٥٩-١٦٤.

ص: ٢٣٧

وجود جمع من النصوص المعتبرة التي تثبت خلاف ذلك، خصوصاً وأن البعض حاول أن يستنتج من هذه القصة - من دون تفحص - أن سلمان رحمه الله كان إنساناً متقلّباً كلما رأى ديناً أخلص له وتمسك به من دون تثبت وتعقل.

لكننا إذا لاحظنا كيفية تعرفه على النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ومتابعة العلامات التي أعطيت له من قبل آخر راهب لازمه إلى حين وفاته، وبشّره بخروج النبي صلى الله عليه وآله من أنه يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة، وبين كتفيه خاتم النبوة، نعلم أنه لم يسلم له إلا بعد التثبت والتيقن.

منها: ما يذكر أنه حينما سمع بمقدم النبي صلى الله عليه وآله إلى المدينة، ذهب إليه آخذاً معه طبقاً من التمر أو اللحم، وقدمه إلى النبي صلى الله عليه وآله وقال له: هذا صدقة، فقال النبي صلى الله عليه وآله لأصحابه: كلوا وأمسك هو صلى الله عليه وآله. يقول سلمان: فقلت في نفسي هذه علامة، ثم ذهب وجاء مرة أخرى، وقدم طبقاً فيه تمر، وقال للنبي صلى الله عليه وآله: هذه هدية، فمد النبي صلى الله عليه وآله يده، وقال، بسم الله كلوا؛ يقول: فقلت في نفسي هذه علامة أخرى، ثم حاول التعرف على العلامة الثالثة فصار يدور خلف النبي صلى الله عليه وآله فأحس به النبي،

ص: ٢٣٨

فألقى بثوبه عن كتفيه فظهرت العلامة، يقول: فسقطت على قدمي رسول الله صلى الله عليه وآله وأقبلهما وأسلمت على يديه.
وقال الصدوق: ما سجد قط لمطلع الشمس، وإنما كان يسجد لله عز وجل، وكانت القبلة التي أمر بالصلاة إليها شرقياً، وكان أبواه
يظنان أنه إنما يسجد لمطلع الشمس كهيئتهم، وكان وصى وصى عيسى... (١).
وأما ما ينقل عنه أنه قال: «كنت ضالاً فهداني الله بمحمد صلى الله عليه وآله، وكنت مملوكاً فأعتقني الله بمحمد صلى الله عليه وآله». فيمكن الإجابة عليه بعدة أمور:

- ١- إذا ثبت صدورها عنه فلا شك أنه كان ممن يكتفئ إيمانه آنذاك، كما تشهد النصوص بذلك؛ خوفاً من أهله، كما أنه ترك الأهل والأوطان لأجل هذا.
- ٢- لعله كان يتماشى مع مرتكزات القوم، إذ كانوا يعتقدون أنه مجوسى لكونه قادماً من بلاد المجوسية، ومن أسرة مجوسية أيضاً، فهو لم يؤخذ بحرب ولا غزو، بل آجرهم نفسه فانقلبوا عليه وباعوه على أنه عبد وبقرينه قوله: كنت مملوكاً، مع أنا نعلم كما ينقل المؤرخون (٢) أنه أجبر على العبودية ظلماً (٣) لقاء مبلغ من المال، ومع هذا نراه يتكلم بحسب المرتكز والظاهر، فإنه كان في الظاهر عبداً وكافراً، لأنه لا يستطيع أن ينفي هذا الشيء عن نفسه.
- ٣- روى الكشي بإسناده عن أبي جعفر عليه السلام قال: جلس عدّة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله ينتسبون وفيهم سلمان الفارسي، وأن عمر سأله عن نسبه وأصله؟ فقال: أنا سلمان بن عبدالله، كنت ضالاً فهداني الله بمحمد، وكنت عائلاً فأغناني الله

١- إكمال الدين ١: ١٦٥.

٢- الأخبار الطوال: ٣١؛ والمعجم الكبير للطبراني ٦: ٢٢٨؛ ومناقب آل أبي طالب ١: ١٩.

٣- قال ابن اثير في أسد الغابة ٢: ٣٢٩... فمرّ بي ركب من العرب من كلب فقلت: أصحبكم وأعطيكم بقراتي وغنمي هذه وتحملوني إلى بلادكم؟ فحملوني إلى وادي القرى فباعوني من رجل من اليهود. انظر بحار الأنوار: ١٩: ١٠٥.

ص: ٢٣٩

بمحمّد، و كنت مملوكاً فأعتقني الله بمحمّد، فهذا حسبي ونسبي... إلى أن قال، فقال النبي صلى الله عليه وآله: يا سلمان ليس لأحد من هؤلاء عليك فضل إلا بتقوى الله، وإن كان التقوى لك عليهم فأنت أفضل (١).

إذن، هذه العبارة صدرت من سلمان في هذا الموقف الحرج من بعض الصحابة، وقد غضب النبي صلى الله عليه وآله لهذا النوع من التعامل، فكأن سلمان يريد أن يبين لهم بأن العبرة في من حسن إسلامه وثبتت عقيدته وكان مؤمناً عن صدق، وليس ممن دخل في الإسلام لأغراض مختلفة، كما هو الحال في بعض الصحابة الذين كشف النقاب عنهم القرآن المجيد: [يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ] (٢). وكان الميزان الصحيح هو قوله تعالى: [إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ] (٣) فلا يبعد أن يكون سلمان قد قال هذه الكلمات من باب التنزل: لو سلمنا أنني كنت ضالاً فقد اهتديت، أو كنت عائلاً فقد استغنيت، أو كنت مملوكاً فقد أعتقت، ولا فضل لأحد منكم عليّ، بل كل الفضل يرجع لنبي الرحمة محمد صلى الله عليه وآله.

ومما يدل على أن إسلامه كان عن تتبع واعتقاد، وأنه كان مؤمناً من ذي قبل وموحداً على المسيحية الصحيحة:

- ١- أنه حين أسلم عاد كما ولدته أمه، فلم يكن متأثراً بشيء من عادات المجوس والنصارى، بل كان أكثر الصحابة - بعد علي عليه السلام - متأثراً بالنبي الأكرم صلى الله عليه وآله، واتباعاً لأوامره ونواهيه، على العكس من بعض الصحابة الذين كانوا يتعمدون مخالفته، بل لم يتخلوا عن كثير من عادات الجاهلية، كتقديم القومية على الدين.
- ٢- أنه لم يترك دين آبائه طمعاً في شيء، بل ترك آباءه وأهله الذين هم من

١- اختيار معرفة الرجال ١: ٥٩.

٢- البقرة: ٩.

٣- الحجرات: ١٣.

ص: ٢٤٠

سلالة الملوك الدهاقين وفي رفاهية العيش، وابتعد عن الأوطان وتحمل مشاق السفر والفقر، ووقع في ظلم العبودية بحثاً عن معالم الدين، البعيدة عن الشرك وعبادة الأوثان، ولا يتحمل هذا العناء والشقاء إلا من يسعى وراء أمر مهم وهدف مقدس، دفعه إليه صرخة العقل والوجدان، إلى أن حظى بسعادة الإسلام، وصحبه النبي صلى الله عليه وآله.

٣- ورد في كتاب الاستيعاب: «وكان سلمان يطلب دين الله، ويتبع من يرجو ذلك عنده فداناً بالنصرانية [الصحيحة] وقرأ الكتب، وصبر في ذلك على مشقات» (١).

٤- وورد في كتاب الإصابة: ... وكان يسمع بأن النبي صلى الله عليه وآله سيبعث، فخرج في طلب ذلك، فأسر وبيع بالمدينة (٢).

٥- وما ورد في إكمال الدين وإتمام النعمة، وقد ذكرناه قبل قليل.

٦- ما قاله في خطبة له سنذكرها فيما بعد نذكر منها موضع الحاجة: ... حتى أتيت محمداً صلى الله عليه وآله فعرفت من العرفان ما كنت أعلمه، ورأيت من العلامة ما أخبرت بها. وهذا دليل على أنه كان يتلقى العلم من أهل المعرفة، وكان يتقرب هذه العلامات. وهذا القدر كافٍ لإثبات إسلامه، ولإدحاض حجة من يريد النيل من هذه الشخصية الفذة.

ونحن نذكر هنا قصة إسلامه المروية من طريق علمائنا الأبرار على أشهر الروايات، وهو ما رواه الشيخ الصدوق في إكمال الدين وإتمام النعمة، بإسناده إلى الإمام موسى بن جعفر عليه السلام قال: حدثني أبي صلوات الله عليه أن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وسلمان وأبازر وجماعة من قریش، كانوا مجتمعين عند

١- الاستيعاب، عنه الأعيان ٧: ٢٨٤؛ انظر إعلام الوری ١: ١٥١؛ بحار الأنوار ١٩: ١٠٥.

٢- الإصابة ٣: ١١٩.

ص: ٢٤١

قبر النبي صلى الله عليه وآله، فقال أمير المؤمنين عليه السلام: يا أبا عبد الله ألا تخبرنا بمبدء أمرك، فقال سلمان: والله يا أمير المؤمنين، لو أن غيرك سألتني ما أخبرته، أنا كنت رجلاً من أبناء أهل شيراز من الدهاقين، وكنت عزيزاً على والدي، فبينما أنا سائر مع والدي في عيد لهم، إذ أنا بصومعة وإذا فيها رجل ينادي: أشهد أن لا إله إلا الله وأن عيسى روح الله، وأن محمداً حبيب الله، فرصف حبّ محمداً صلى الله عليه وآله في لحمي ودمي، فلم يهثنى طعام ولا شراب، فقالت لي أمي: مالك اليوم لم تسجد لمطلع الشمس قال: فكابرتها حتى سكتت، فلما انصرفت إلى منزلي، إذ أنا بكتاب معلق من السقف، فقلت لأمي: ما هذا الكتاب فقالت: روزبه إن هذا الكتاب لما رجعنا من عيدنا رأيناه معلقاً، فلا- تقرب ذلك المكان فإنك إن قرئته قتلك أبوك، قال: فجاهدتها حتى جنّ الليل ونام أبي وأمّي، فقمّت فأخذت الكتاب، فإذا فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم، هذا عهد من الله إلى آدم عليه السلام، وأنه خلق من صلبه نبياً يقال له: محمداً، يأمر بمكارم الأخلاق وينهى عن عبادة الأوثان، يا روزبه أنت وصي عيسى، فأمن واترك المجوسية، قال: فصعقت صعقة وزادني شدة قال: فعلم أبي وأمّي بذلك، فأخذوني وجعلوني في بئر عميقة وقالوا- لي: إن رجعت وإلا- قتلناك، فقلت لهما: إفعلا بي ما شئتما، فإنّ حبّ محمداً لا يذهب من صدري، قال سلمان: ما كنت أعرف العربية قبل قراءة ذلك الكتاب، ولقد فهمني الله العربية من ذلك اليوم، قال: فبقيت في البئر، فجعلوا ينزلون إليّ أقراصاً صغاراً، قال: فلما طال أمرى رفعت يدي إلى السماء، فقلت: يا ربّ إنك حبيب محمداً صلى الله عليه وآله ووصيه إليّ، فبحق وسيلته عجل فرجي وأرحني ممّا أنا فيه، فأتاني آت عليه ثياب بيض، فقال: قم يا روزبه، فأخذ بيدي، وأتى بي إلى الصومعة، فأنشأت أقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن عيسى روح الله، وأن محمداً حبيب الله، فأشرف عليّ الديراني فقال: أنت روزبه؟ فقلت: نعم، فقال: اصعد، فأصعدني إليه، فخدمته حولين كاملين.

ص: ٢٤٢

فلما حضرته الوفاة قال: إني ميت، فقلت: على من تخلفني؟ قال: لا أعرف أحداً يقول بمقاتلي إلا راهباً بأنطاكية، فإذا لقيته فاقرأه مني السلام، وادفع إليه هذا اللوح، وناولني لوحاً، فلما مات غسلته وكفنته ودفنته، وأخذت اللوح وصرت به إلى أنطاكية، وأتيت الصومعة، وأنشأت أقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن عيسى روح الله، وأن محمداً حبيب الله، فأشرف عليّ الديراني فقال لي: أنت روزبه؟ فقلت: نعم، فقال: اصعد، فصعدت وخدمته حولين كاملين، فلما حضرته الوفاة قال: إني ميت، فقلت: على من تخلفني؟ فقال: لا أعرف أحداً يقول بمقاتلي هذه إلا راهباً بالإسكندرية، فإذا لقيته فاقرأه مني السلام، وادفع إليه هذا اللوح، فلما توفي غسلته وكفنته ودفنته، وأخذت اللوح وأتيت الصومعة، فأنشأت أقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن عيسى روح الله، وأن محمداً حبيب الله، فأشرف عليّ الديراني فقال لي: أنت روزبه؟ فقلت: نعم، فقال: اصعد، فصعدت إليه فخدمته حولين كاملين.

فلما حضرته الوفاة قال لي: إني ميت، فقلت: على من تخلفني؟ قال: لا أعرف أحداً يقول في الدنيا بمقاتلي هذه، وأن محمداً بن عبد الله بن عبدالمطلب قد حانت ولادته، فإذا أتيت فاقراه عنّي السلام، وادفع إليه هذا اللوح، قال: فلما توفي غسلته وكفنته ودفنته، وأخذت اللوح وخرجت، وصحبت قوماً فقلت لهم: يا قوم اكفوني الطعام والشراب أكفكم الخدمة، قالوا: نعم، قال: فلما أرادوا أن يأكلوا شدوا على شاة فقتلوا بالضرب، ثم جعلوا بعضها كباباً وبعضاً شويماً، فامتنعت من الأكل، فقالوا: كل، فقلت: إني غلام ديراني، وأن الديرانيين لا يأكلون اللحم، فضربوني فكدوا يقتلونني.

فقال بعضهم: أمسكوا عنه حتى يأتكم شرابكم، فإنه لا يشرب، فلما أتوا بالشراب قالوا: اشرب، فقلت: إني غلام ديراني، وإن الديرانيين لا يشربون الخمر، فشدوا عليّ وأرادوا قتلي، فقلت لهم: يا قوم لا تضربوني ولا تقتلونني، فإني

ص: ٢٤٣

اقر لكم بالعبودية، فأقررت لواحد منهم، فأخرجني وباعني بثلاثمائة درهم من رجل يهودى: قال: فسألني عن قصتي فأخبرته، وقلت: ليس لي ذنب إلا أنني أحببت محمداً ووصيه، فقال اليهودى: وإني لأبغضك وأبغض محمداً، ثم أخرجني إلى خارج داره، وإذا رمل كثير على بابه، فقال: والله يا روزبه لأن أصبحت ولم تنقل هذا الرمل كله من هذا الموضع لأقتلتك، قال: فجعلت أحمل طول ليلي فلما جهدني التعب، رفعت يدي إلى السماء فقلت: يا رب حببت محمداً صلى الله عليه وآله ووصيه إليّ فبحق وسيلته عجل فرجى وأرحني ممّا أنه فيه.

فبعث الله عز وجلّ ريحاً فقلعت ذلك الرمل من مكانه إلى المكان الذي قال اليهودى، فلما أصبح نظر إلى الرمل قد نقل كله فقال: يا روزبه! أنت ساحر، وأنا لا أعلم، فلأخرجنك من هذه القرية كي لا تهلكنا قال: فأخرجني وباعني من امرأه سليمية فأحبتني حباً شديداً، وكان لها حائط، فقالت: هذا الحائط لك كل منه ما شئت وهب وتصدق، قال: فبقيت في ذلك الحائط ما شاء الله، فبينما أنا ذات يوم في الحائط، وإذا أنا بسبعة رهط قد أقبلوا تظلمهم غمامة، فقلت في نفسي: والله ما هؤلاء كلهم بأنبياء وأن فيهم نبياً قال: فأقبلوا حتى دخلوا الحائط والغمامة تسير معهم، فلما وصلوا، إذا فيهم رسول الله صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام وأبوذر والمقداد وعقيل بن أبي طالب رضى الله عنه وحمزة بن عبدالمطلب وزيد بن حارثة، فدخلوا الحائط فجعلوا يتناولون من حشف النخل، ورسول الله صلى الله عليه وآله يقول: كلوا الحشف، ولا تفسدوا على القوم شيئاً.

فدخلت على مولاتي وقلت لها: يا مولاتي هبي لي طبقاً من رطب، فقالت:

لك ستة أطباق، قال: فجئت فحملت طبقاً من رطب، فقلت في نفسي: إن كان فيهم نبى فإنه لا يأكل الصدقة، فوضعت بين يديه وقلت: هذه صدقة، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وآله: كلوا، وأمسك رسول الله وأمير المؤمنين عليه السلام وحمزة بن عبدالمطلب وعقيل بن أبي طالب، وقال لزيد: مد يدك وكل، فقلت في نفسي: هذه علامة،

ص: ٢٤٤

فدخلت على مولاتي وقلت لها: هبى لى طبقاً آخر، فقالت: لك ستة أطباق، قال:

فجئت فحملت طبقاً من رطب فوضعت بين يديه، وقلت: هذه هدية فمد يده وقال:

بسم الله، كلوا، فمد القوم جميعاً أيديهم، فأكلوا فقلت فى نفسى: هذه أيضاً علامة.

قال: فيينا أدور خلفه إذ حانت من النبى التفاتة فقال: يا روزبه تطلب خاتم النبوة فقلت: نعم، فكشف عن كتفيه، فإذا أنا بخاتم النبوة

معجون بين كتفيه عليه شعرات، قال: فسقطت على قدم رسول الله صلى الله عليه وآله وأقبلها، فقال لى: يا روزبه! أدخل على هذه

المرأة وقل لها: يقول لك محمد بن عبد الله: تبيعنا هذا الغلام. فقالت: قل له لا أبيعك إلا بأربعمائة نخلة مائة منها صفراء، ومائة

نخلة منها حمراء، قال:

فجئت إلى النبى صلى الله عليه وآله فأخبرته، فقال: ما أهون ما سألت، ثم قال: قم يا على، إجمع هذا النوى كله وأخذه فغرسه، ثم قال:

اسقه فسقاه أمير المؤمنين عليه السلام، فما بلغ آخره حتى خرج النخل ولحق بعضه بعضاً.

فقال لى: أدخل إليها، وقل لها: يقول لك محمد بن عبد الله: خذى شيئك وادفعى إلينا شيئاً، قال: فدخلت عليها، وقلت لها ذلك،

فخرجت ونظرت إلى النخل فقالت: والله لا أبيعكم إلا بأربعمائة نخلة كلها صفراء، فهبط جبرائيل فمسح جناحه على النخل فصار كله

أصفر، قال ثم قال لى: قل لها: إن محمداً يقول لك خذى شيئك وادفعى إلينا شيئاً، فقلت لها فقالت: والله لنخلة من هذه أحب إلى

من محمد ومنك، فقلت لها: والله ليوم مع محمد أحب إلى منك، ومن كل شيء أنت فيه.

فأعتقنى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلمانى سلمان (١).

وأما زمان إسلامه: فالمشهور أنه أسلم فى المدينة المنورة، بعد هجرة النبى صلى الله عليه وآله، وقيل: إنه أسلم فى مكة المكرمة،

إلّا أنه لم يتحرر من العبودية إلّا فى المدينة وبعد مدة، اختلف فيها المؤرخون (٢).

١- إكمال الدين وإتمام النعمة، وانظر: الدرجات الرفيعة: ٢٠١.

٢- عنه طرائف المقال ٢: ٦٠١.

ص: ٢٤٥

زوجته:

المشهور أنه تزوج وله ذريته، ويشهد له ما نقله الشهيد الثاني عن ابن الجوزي، وما رواه ابن عساكر أن أمير المؤمنين علياً عليه السلام عزّاه بوفاء زوجته قائلاً:

ماتت في المدائن فحزن عليها، فبلغ أمير المؤمنين عليه السلام فكتب إليه: ... بلغني يا أبا عبد الله سلمان مصيبتك بأهلك وأوجعني بعض ما أوجعك، ولعمري مصيبة تقدم أجرها خير من نعمة تسأل عن شكرها، ولعلك لا تقوم بها والسلام عليك (١).

مضافاً إلى ما ذكره علماء الرجال من الفريقين من وجود رواة للحديث من ذريته (٢).

وهذا القدر كاف في إثبات أنه كان متزوجاً، وعندها لا يعتنى بقول من نفى ذلك أو اتهمه بأنه كان محبوباً، وهذا من تخرص الجهلة الحاقدين.

نعم يوجد تضارب في زمان وفاتها، فتارة تقول: إنها توفيت في حياته، كما ذكرنا قبل قليل وعزّاه أمير المؤمنين عليه السلام بها، وأخرى أنها كانت معه حين توفى، كما رواه الكشي وغيره أنه حين حضرته الوفاة قال لامرأته: قومي أجيئي الباب... (٣) فنقول: لا يبعد أن يكون قد تزوج ثانيةً بعد وفاة زوجته الأولى فتكون الثانية هي التي بقيت معه، وحضرت وفاته؛ جمعاً بين الأقوال، ويشهد له ما في إكمال الكمال.

إسمها: بقيرة (٤): قال ابن ماكولا في إكمال الكمال: وأما بقيرة، وهي آخر من

١- تاريخ دمشق ٢١: ٤٢٩.

٢- تاريخ بغداد ١: ١٨١، تهذيب الكمال ١١: ٢٤٩، تاريخ دمشق ٥: ٢٢٧، الفهرست: ٥٢، جامع الرواة ١: ٢١٢.

٣- اختيار معرفة الرجال ١: ٦٨. الطبقات الكبرى ٤: ٩٢. تاريخ دمشق ٢١: ٤٥٧، قريباً من عبارة الاختيار.

٤- الطبقات الكبرى ٤: ٩٢، التاريخ الصغير ٦: ٩٧، تهذيب الكمال ٥: ٤٥.

ص: ٢٤٦

تزوج من أزواجه، وشهدت موته (١). مضافاً إلى ما ذكره بعض المؤرخون أن التي كانت حين وفاته هي بقيرة.

أولاده:

- ١- عبد الله، وهو المشهور.
- ٢- محمد، قول منتجب الدين (٢).
- ٣- عبدالرحمان، قول ابن الأثير (٣).
- ٤- يحيى، قول بن عساكر (٤).
- ٥- وفي نفس الرحمن: إن له حفيداً من علماء خجنده اسمه ضياء الدين (٥).

سيرته وفضائله

- أخى رسول الله صلى الله عليه وآله وبينه وبين أبي ذر الغفاري، وما نقل من أنه أبا الدرداء فهو ضعيف، لأن رسول الله صلى الله عليه وآله كان يراعى الكفاءة في الإيمان بين الأخوين، وكان أبوذر أكفأ من أبي الدرداء، لعدة وجوه:
- ١- كانت في أبي الدرداء بقايا الجاهلية، وقد ذمه رسول الله صلى الله عليه وآله عليها قائلاً: فيك جاهلية، قال: أي جاهلية يا رسول الله؟ قال: جاهلية كفر، وهذه لم تكن في سلمان.
 - ٢- ثبت أبوذر مع أمير المؤمنين بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله حين مال الجميع عنه، ولم يكن منهم أبو الدرداء (٦).
 - ٣- أبو الدرداء صار من وعاظ السلاطين، حتى أن معاوية وولده يزيد مدحاه وأثنا عليه.
 - فكان سلمان من شرطة الخميس (٧).

١- الطبقات الكبرى ٤: ٩٢، تاريخ دمشق ٢١: ٤٥٧.

٢- الفهرست: ٥٢، جامع الرواة ٢١: ٢١٢.

٣- أسد الغابة ٥: ٤٤٠.

٤- تاريخ دمشق ٥: ٢٢٧.

٥- نفس الرحمن: ١٤٤-١٤٥.

٦- الفوائد الرجالية ٣: ٧٩.

٧- المصدر نفسه.

ص: ٢٤٧

وهو الذى أشار على رسول الله صلى الله عليه وآله بحفر الخندق فى السنة السادسة للهجرة، وأشار بالمنجنيق وعمله بيده (١).
 كان أحد الثلاثة الذين لم يرتدوا بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، والمقداد وأبوذر (٢).
 وكان أحد السبعة الذين صلوا على الصديقة فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وآله بعد أن أوصت علياً عليه السلام أن لا يصلى عليها أحد ممن ظلمها (٣).
 وكان وصى وصى عيسى عليه السلام فى أداء ما حمل، إلى من انتهت إليه الوصية من الأوصياء المعصومين (٤).
 أعتقنى رسول الله صلى الله عليه وآله وسمّانى سلمان
 وجه أميراً إلى المدائن من قبل الخليفة عمر فلم يفعل إلا بعد أن استأذن أمير المؤمنين عليه السلام فحضه (٥).
 وقال ابن شهر آشوب فى المناقب: كان عمر ووجه سلمان أميراً إلى المدائن، وإنما أراد له الختلة فلم يفعل إلا بعد أن استأذن أمير المؤمنين علياً عليه السلام، فمضى فأقام بها إلى أن توفى (٦).
 كان الأوحدي فى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام، وأكثرهم تأسيماً بأخلاقهما وسيرتهما، فكان يحطب فى عباءته، يفترش نصفها ويلبس نصفها، وقع

١- البداية والنهاية ٤: ٣٩٩.

٢- شرح نهج البلاغة ٤: ٢٢٥، الاختصاص ١٠، الدرجات الرفيعة: ٢١٣.

٣- بحار الانوار ٢٢: ٣٤٥، عن فرات الكوفى.

٤- التحرير الطاووسى: ٢٨٣. وقيل: إنه كان وصياً لعيسى عليه السلام، الدرجات الرفيعة: ٢٠١.

٥- الاحتجاج ١: ١٨٨.

٦- مناقب آل أبي طالب، الدرجات الرفيعة: ٢١٥.

ص: ٢٤٨

حريق في المدائن وكان أميرها، فلم يكن في بيته إلا مصحف وسيف، فرفع المصحف في يده وحمل السيف في عنقه وخرج قائلاً: هكذا ينجو المخفون.

وقد دخل عليه رجل فلم يجد في بيته إلا سيفاً ومصحفاً، فقال له: ما في بيتك إلا ما أرى، قال: إن أماننا منزل كؤود (١)، وإنا قد قدمنا متاعنا إلى المنزل.

كان عطاؤه خمسة آلاف، وكان أميراً على زهاء ثلاثين ألفاً من المسلمين، فإذا خرج عطاؤه تصدق به (٢).

وكان يسفّ الخوص ويبيعه ويأكل منه، ويقول: لا أحب أن آكل، إلا من عمل يدي، وكان قد تعلم سفّ الخوص في المدينة (٣).

وعن أبي وائل قال: ذهبت أنا وصاحب لي إلى سلمان، فلما جلسنا عنده قال:

لولا أن رسول الله صلى الله عليه وآله نهى عن الكلف لتكلفت لكم، ثم جاء بخبز وملح ساذج أبزار (٤) عليه، فقال صاحبنا: لو كان في ملحنا صعتر، فبعث سلمان بمطهرته فرهنها على الصعتر، فلما أكلنا قال صاحبي: الحمد لله الذي أقتعنا بما رزقنا، فقال سلمان: لو قنعت بما رزقك الله لم تكن مطهرتي مرهونة (٥).

ودخل رجلان على سلمان فسألما عليه وحيثاه ثم قالوا: أنت سلمان الفارسي؟

قال: نعم. قالوا: أنت صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله؟ قال: لا أدري، فارتابا وقالوا: لعله ليس الذي نريد، فقال لهما: أنا صاحبكما

الذي تريدان، وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وجالسته، وإنما صاحبه من دخل معه الجنة، فما حاجتكما؟

قالا: جئناك من عند أخ لك بالشام، قال: من هو؟ قالوا: أبو الدرداء، قال:

فأين هديته التي أرسل بها معكما؟ قالوا: ما أرسل معنا بهديته. قال: اتقيا الله وأدبوا الأمانة، ما جاءني أحد من عنده إلا جاء معه بهديته،

قالا: لا ترفع علينا هذا، إن لنا أموالاً فاحتكم فيها، قال: ما أريد أموالكما ولكن أريد الهدية التي بعث بها معكما،

١- أي شاقه المصعد.

٢- الإصابة ٣: ١٢٠.

٣- شرح نهج البلاغة ١٨: ٣٥.

٤- الأبزار: التوابل.

٥- شرح نهج البلاغة ٣: ١٥٥.

ص: ٢٤٩

قالا: واللّه ما بعث معنا شيء إلا أنه قال: إن فيكم رجل كان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا خلا به لم يبع أحدًا غيره، فإذا أتيتماه فأقرناه منى السلام. قال: فأى هدية كنت أريد معكما غير هذا، وأى هدية أفضل من السلام تحية من عند الله مباركة طيبة (١).
ومرّ سلمان على الحدادين بالكوفة وإذا بشاب قد صرع والناس قد اجتمعوا حوله، فقالوا: يا أبا عبد الله هذا الشاب قد صرع، فلو جئت فقرأت في أذنه، قال:

فجاء سلمان، فلما دنا منه رفع الشاب رأسه فنظر إليه فقال: يا أبا عبد الله لست في شيء مما يقول هؤلاء، لكني مررت بهؤلاء الحدادين وهم يضربون بالمرزاب (٢)، فذكرت قول الله تعالى: وَلَهُمْ مَقَامٌ مِّنْ حَدِيدٍ (٣)، فدخلت في سلمان من الشاب محبة فاتخذته أخًا، فلم يزل معه حتى مرض الشاب، فجاءه سلمان فجلس عند رأسه وهو في الموت، فقال: يا ملك الموت ارفق بأخي، فقال: يا أبا عبد الله إنني بكل مؤمن رفيق (٤).

وعن دوره في يوم السقيفة، يحدثنا الإمام الباقر عليه السلام قال: جاء المهاجرون والأنصار وغيرهم بعد ذلك إلى أمير المؤمنين على عليه السلام، فقالوا له: أنت والله أمير المؤمنين، وأنت والله أحق الناس وأولاهم بالنبي صلى الله عليه وآله، هلم يدك نبايعك، فوالله لنموتن قدامك، فقال على عليه السلام: إن كنتم صادقين فاغدوا غدًا عليّ محلّين، فحلّق أمير المؤمنين عليه السلام، وحلّق سلمان، وحلّق أبوذر، ولم يحلّق غيرهم... (٥).

وقال له أمير المؤمنين على عليه السلام: يا سلمان! اذهب إلى فاطمة فقل لها تتحفك من تحف الجنة، فذهب إليها سلمان، فإذا بين يديها ثلاث سلال، فقال: يا بنت رسول الله! أتحنيني، قالت: هذه سلال جاتني بها ثلاث وصائف، فسألتهن عن

١- المعجم الكبير للطبراني ٦: ٢١٩.

٢- الأرزبة التي يكسر بها المدر [أى المطرقة]، الصحاح ١: ١٣٥. المرزاب.

٣- الحج: ٢١.

٤- اختيار معرفة الرجال ١: ٧٢.

٥- بحار الأنوار ٢٢: ٣٤١.

ص: ٢٥٠

أسمائهن، فقالت واحدة: أنا سلمى لسلمان، وقالت الأخرى: أنا ذرة لأبي ذر، وقالت الأخرى: أنا مقدودة للمقداد، ثم قبضت فناولتني، فما مررت بملاء إلاملثوا طيباً لريحها (١).

قال الإمام الصادق: ... هو من أهل البيت، بلغ من علمه أنه مرّ برجل في رهط فقال له: يا عبد الله! تب إلى الله في الذي عملت في بطن بيتك البارحة واتق الله، فقال الرجل: استغفر الله وأتوب إليه، قال: ثم مضى وقال له القوم: لقد رماك بأمر وما دفعته عن نفسك، قال: إنه أخبرني بأمر ما اطلع عليه أحد إلا الله رب العالمين وأنا (٢).

وروى أنه كان سلمان يطبخ قدرًا فدخل عليه أبوذر، فانكبت القدر فسقطت على وجهها ولم يذهب منها شيء، فردّها على الأثافي، ثم انكبت الثانية فلم يذهب منها شيء، فردّها على الأثافي، فمرّ أبوذر إلى أمير المؤمنين عليه السلام، مسرعاً قد ضاق صدره مما رأى وسلمان يقفو أثره حتى انتهى إلى أمير المؤمنين عليه السلام، فنظر أمير المؤمنين إلى سلمان، قال له: يا أبا عبد الله ارفق بأخيكَ (٣). قال رسول الله صلى الله عليه وآله لأصحابه: أيكم يصوم الدهر؟ فقال سلمان: أنا يا رسول الله، فقال أيكم يحيى الليل؟ فقال سلمان: أنا يا رسول الله، فقال أيكم يختم القرآن كل يوم؟ فقال سلمان: أنا يا رسول الله. فغضب بعض الأصحاب، فقال: يا رسول الله، إن سلمان من الفرس يريد أن يفتخر علينا معاشر قريش...

... فقال صلى الله عليه وآله: مه يا فلان، أنّي لك بمثل لقمان الحكيم!! سله فإنه ينبئك... فقال سلمان: ... ليس حيث تذهب. إنى أصوم الثلاثة في الشهر، وقد قال الله عز وجل: مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ

١- اختيار معرفة الرجال ١: ٣٩.

٢- المصدر نفسه: ٥٢.

٣- الاختصاص: ١٢؛ اختيار معرفة الرجال ١: ٦٠ باختلاف.

ص: ٢٥١

عَشْرُ أَمْثَالِهَا (١)، وأصل شعبان بشهر رمضان فذلك الدهر، وأما إحياء الليل... فسمعت حبيبي رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: من بات على فراشه على طهر فكأنما أحيا الليل كله، فأنا أبيت على طهر.

وأما ختم القرآن... فسمعت حبيبي رسول الله صلى الله عليه وآله يقول لعلي عليه السلام: يا أبا الحسن مَتَلِّكْ فِي امْتِي مَثْلُ قُلِّ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ فَمَنْ قَرَأَهَا مَرَّةً فَقَدْ قَرَأَ ثَلَاثَ الْقُرْآنِ، وَمَنْ قَرَأَهَا مَرَّتَيْنِ فَقَدْ قَرَأَ ثَلَاثِي الْقُرْآنِ، وَمَنْ قَرَأَهَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فَقَدْ خَتَمَ الْقُرْآنَ، فَمَنْ أَحْبَبَكَ بِلِسَانِهِ فَقَدْ كَمَّلَ ثَلَاثَ إِيْمَانِهِ، وَمَنْ أَحْبَبَكَ بِلِسَانِهِ وَقَلْبِهِ فَقَدْ كَمَّلَ لَهُ ثَلَاثَ الْإِيْمَانِ، وَمَنْ أَحْبَبَكَ بِلِسَانِهِ وَقَلْبِهِ وَنَصْرَكَ بِيَدِهِ فَقَدْ اسْتَكْمَلَ الْإِيْمَانَ.

والذي بعثني بالحق نبياً يا علي! لو أحببك أهل الأرض كمحبة أهل السماء لك لما عذّب الله أحداً بالنار.

وأنا أقرأ: قُلِّ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ فِي كُلِّ يَوْمٍ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَقَامَ الرَّجُلُ كَأَنَّهُ الْقَمَّ حَجْرًا (٢).

تقول عائشة: كان لسلمان مجلس من رسول الله صلى الله عليه وآله ينفرد به بالليل، حتى كاد يغلبنا على رسول الله صلى الله عليه وآله و آله (٣).

وفي الحديث أن أبا سفيان مرّ على سلمان وصهيب وبلال في نفر من المسلمين، وقالوا: ما أخذت السيوف من عدوّ الله مأخذها وأبوسفيان يسمع قولهم. فقال لهم أبو بكر: أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدها؟! وأتى النبي صلى الله عليه وآله وأخبره. فقال: يا أبا بكر لعلك أغضبتهم، لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت الله، فأتاهم أبو بكر فقال: يا إخوانه لعلي أغضبتكم؟ قالوا: لا يا أبا بكر، يغفر الله لك (٤).

١- الأنعام: ١٦٠

٢- الدرجات الرفيعة: ٢١٢.

٣- شرح نهج البلاغة ١٨: ٣٦. بحار الأنوار ٢٢: ٣٩١.

٤- شرح نهج البلاغة ١٨: ٣٧.

ص: ٢٥٢

وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: السبّاق خمسة، فأنا سابق العرب، وسلمان سابق الفرس، وصهيب سابق الروم، وبلال سابق الحبش، وخباب سابق النبط (١).

عن الإمام الصادق عليه السلام قال: مرض رجل من أصحاب سلمان رحمه الله فافتقده، فقال: أين صاحبكم؟ قالوا: مريض، قال: امشوا بنا نعوده، فقاموا معه، فلما دخلوا عليه فإذا هو يوجد بنفسه، فقال سلمان: يا ملك الموت ارفق بوليّ الله، فقال ملك الموت بكلام يسمعه من حضر: يا أبا عبد الله إنني أرفق بالمؤمنين، ولو ظهرت لأحد لظهرت لك (٢).

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: عاد رسول الله صلى الله عليه وآله سلمان الفارسي، فقال: يا سلمان لك في علتك ثلاث خصال، أنت من الله عز وجل بذكر، ودعاؤك فيه مستجاب، ولا تدع العلة عليك ذنباً إلّا حطته، متعك الله بالعافية إلى منتهى أجلك (٣). وقال سلمان رحمه الله: بايعنا الله على النصح للمسلمين والائتمام بعلي بن أبي طالب، والموالاة له (٤).

وقال الإمام الصادق عليه السلام: آخى رسول الله بين سلمان وأبي ذر، واشترط على أبي ذر أن لا يعصى سلمان (٥).

قال ابن عباس: رأيت سلمان الفارسي رحمه الله في منامي فقلت له: سلمان فقال:

سلمان، فقلت: أأنت مولى النبي صلى الله عليه وآله؟ قال: بلى، وإذا عليه تاج من ياقوت وعليه

١- الخصال ١: ١٥٠، بحار الأنوار ٢٢: ٣٢٥.

٢- بحار الأنوار ٢٢: ٣٦٠ ح ٣، أمالي الطوسي: ٨٠.

٣- الدرجات الرفيعة: ٢١١.

٤- المصدر نفسه: ٢١٣.

٥- بحار الأنوار ٢٢: ٣٤٥، ح ٥٥.

ص: ٢٥٣

حلّي وحلل، فقلت: يا سلمان هذه منزلة حسنة أعطاكها الله عز وجل، فقال: نعم، فقلت: فماذا رأيت في الجنة أفضل بعد الإيمان بالله ورسوله؟ فقال: ليس في الجنة بعد الإيمان بالله ورسوله شيء هو أفضل من حبّ علي بن أبي طالب عليه السلام والاقتراء به ... (١)

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: ذكرت التقية يوماً عند علي بن الحسين عليه السلام فقال:

والله لو علم أبوذر ما في قلب سلمان لقتله، ولقد آخى رسول الله بينهما، فما ظنكم بسائر الخلق، إن علم العلماء صعب مستصعب، لا يحتمله إلا- نبي مرسل أو ملك مقرب، أو عبد مؤمن امتحن الله قلبه للإيمان، فقال: وإنما صار سلمان من العلماء؛ لأنه امرؤ منا أهل البيت، فلذلك نسبته إلى العلماء (٢).

أخلاقه

كان مثالاً للأخلاق والتواضع والمساواة للضعفاء، كيف لا وقد تربي على عظيمين من عظماء الإسلام: النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، وأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام.

كان يطحن مع الخادمة ويعجن عنها إذا أرسلها في حاجة، يقول: لا تجمع عليها عملين (٣).

واشترى رجل بيتاً في المدائن، فمرّ بسلمان- وهو أمير- فحسب سلمان عرجاً (٤)، فقال: يا فلان تعال، فجاء سلمان، فقال: احمل، فحمله فمضى به، فجعل يتلقاه الناس: أصلح الله الأمير، نحمل عنك أبا عبد الله نحمل عنك، فقال الرجل:

ثكلتني أمي وعدمتي، لم أر أحداً أسخّره إلّا الأمير، قال: فجعل يعتذر إليه ويقول: أبا عبد الله لم أعرفك رحمك الله.

١- بحار الأنوار ٢٢: ٣٤١، ح ٥٢.

٢- شرح نهج البلاغة ١٨: ٣٧.

٣- الدرجات الرفيعة: ٢١٦.

٤- العليج: الرجل من كفار العجم.

ص: ٢٥٤

قال: انطلق فانطلق به حتى بلغ به، منزله ثم دعاه فقال: لا تسخر بعد أحداً أبداً (١).

مواظبه وحكمه

إنه مضافاً إلى ما جسده من خلق سامية وآداب رفيعة في سيرته الذاتية، لم يأل جهداً في وعظ الناس وإرشادهم، فعن الإمام الباقر عليه السلام قال: إن رجلاً أتى سلمان الفارسي فقال: حدثني فسكت عنه، ثم عاد فسكت، فأدبر الرجل، وهو يقول ويتلو هذه الآية: إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ (٢).

فقال له: أقبل إننا لو وجدنا أميناً لحدّثناه، ولكن أعد لمنكر ونكير إذا أتياك في القبر فسألاك عن رسول الله صلى الله عليه وآله، فإن شككت أو التويت ضرباك على رأسك بمطرفة معهما تصير منه رماداً، فقلت: ثم مه؟ قال:

تعود ثم تعذب، قلت: وما منكر ونكير؟ قال: هما قعيدا القبر. قلت: أملكان يعذبان الناس في قبورهم؟! قال: نعم (٣).

وفي التوحيد: أنه أتاه رجل فقال: يا أبا عبد الله! إنى لا أقوى على الصلاة بالليل، فقال: لا تعص الله بالنهار، وجاء رجل إلى أمير المؤمنين عليه السلام فقال: يا أمير المؤمنين! إنى قد حرمت الصلاة بالليل، فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: أنت رجل قد قيدتك ذنوبك. (٤) وفي معدن الجواهر عن سلمان رضى الله عنه أنه قال: ابكتنى ثلاث وأضحكتنى ثلاث:

فأما المبكيات: ففراق رسول الله صلى الله عليه وآله، والهول عند غمرات الموت، والوقوف بين يدي الله عز وجل.

١- تاريخ دمشق ٢١: ٤٣٣؛ الطبقات الكبرى ٤: ٨٨.

٢- البقرة: ١٥٩.

٣- البرهان في علوم القرآن: ١٧٠.

٤- التوحيد: ٦٧.

ص: ٢٥٥

وأما المضحكات: فغافل بمغفول عنه، وطالب دنياه والموت يطلبه، وضاحك ملء لا يدري ضحكه رضى الله عزوجل أم سخط. (١)

وفى الغارات أنه مرّ على بن أبي طالب عليه السلام على بغلة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلمان فى ملاً، فقال سلمان: ألا تقومون تأخذون بحجزته تسألونه، فوالله الذى فلق الحبة وبرأ النسمة لا يخبركم سر نبيكم أحد غيره، وإنه لعالم الأرض وربائتها، وإليه تسكن، ولو فقدتموه لفقدم العلم وأنكرتم الناس (٢).

وفى البحار أن سلمان قام وقال: يا معاشر المسلمين! نشدتكم بالله وبحق رسول الله صلى الله عليه وآله، أستم تشهدون أن النبى صلى الله عليه وآله قال: سلمان من أهل البيت؟ فقالوا: بلى والله نشهد بذلك، قال: فأنا أشهد بأنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: على إمام المتقين، وقائد الغر المحجلين، وهو الأمير من بعدى (٣).

ولما حضر سلمان ونزل به الموت بكى، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: أما والله ما أبكى جزعاً من الموت ولا حرصاً على الرجعة، ولكن إنما أبكى لأمر عهده إلينا رسول الله صلى الله عليه وآله وأخشى أن لانكون حفظنا وصية نبينا صلى الله عليه وآله، إنه قال لنا: ليكن بلاغ أحدكم من الدنيا كزاد الراكب (٤).

وكتب أبو الدرداء إلى سلمان من الشام: أقدم يا أخى إلى بيت المقدس، فلعلك تموت فيه، فكتب إليه سلمان: أما بعد، فإن الأرض لا تقدر أحداً، وإنما يقدر كل إنسان عمله، والسلام (٥).

وقال جرير بن عبد الله: انتهيت مرة إلى ظل شجرة وتحتها رجل نائم قد استظل بنطع له، وقد جاوزت الشمس النطع فسويته عليه، ثم إن الرجل استيقظ،

١- معدن الجواهر: ٣٥.

٢- الغارات ١: ٢١.

٣- بحار الأنوار ٣٧: ٣٣١.

٤- الطبقات الكبرى ٤: ٩١.

٥- الدرجات الرفيعة: ٢١٩؛ تاريخ دمشق ٢١: ٤٤٣. باختلاف يسير.

ص: ٢٥٦

فإذا هو سلمان الفارسي، فذكرت له ما صنعت، فقال: يا جريراً! تواضع لله في الدنيا، فإنه من تواضع لله في الدنيا رفعه الله يوم القيامة، أتدري ما ظلمة النار يوم القيامة؟! قلت: لا، قال: فإنه ظلم الناس بعضهم بعضاً في الدنيا (١).

شعره:

عن ابن شهر آشوب قال: كان الناس يحفرون الخندق وينشدون سوى سلمان، فقال النبي صلى الله عليه وآله: اللهم أطلق لسان سلمان، ولو على بيت من الشعر، فأنشأ سلمان يقول:
 ما لي لسان فأقول الشعرأ أسأل ربي قوة ونصراً
 على عدوى وعدو الطهرا محمد المختار حاز الفخرا
 حتى أنال في الجنان قصرا مع كل حوراء تحاكي البدرا
 فضج المسلمون وجعلت كل قبيلة تقول: سلمان منّا، فقال النبي صلى الله عليه وآله: سلمان منّا أهل البيت (٢).
 ولا يخفى أن هذه الكلمات قالها رسول الله صلى الله عليه وآله في أكثر من موطن، وعمدتها كانت في مقام الانتقاص من شخصيته الدينية والاجتماعية.

١- الدرجات الرفيعة: ٢١٨.

٢- مناقب آل أبي طالب ١: ٧٥، الدرجات الرفيعة: ٢١٨.

ص: ٢٥٧

خطبه:

عثرنا له على خطبة واحدة، نذكر منها موضع الحاجة لطولها، قال: الحمد لله الذي هداني لدينه بعد جحودي له، وأنا مذكٍ ل نار الكفر، أهل لها نصيباً، وأثبت لها رزقاً، حتى ألقى الله عزوجل في قلبي حبّ تهامة، فخرجت جائعاً ظمأناً قد طردني قومي، وأخرجت من مالي ولا تحملني حمولة، ولا متاع يجهزني ولا مال يقوتني، وكان من شأنى ما قد كان، حتى أتيت محمداً صلى الله عليه وآله، فعرفت من العرفان ما كنت أعلمه، ورأيت من العلامة ما أخبرت بها، فأنقذني من النار، فثبت على المعرفة التي دخلت بها الإسلام.

ألا أيها الناس اسمعوا من حديثي ثم انقلوه عني، فقد اتيت العلم كثيراً، ولو أخبرتكم بكل ما أعلم لقات طائفة: إنه لمجنون، وقالت طائفة أخرى: اللهم اغفر لقاتل سلمان.

ألا- إن لكم منايا تتبعها بلايا، وإن عند على عليه السلام علم المنايا وعلم الوصايا، وفصل الخطاب على منهاج هارون بن عمران، ولكنكم أصبتم سنة الأولين (١) وأخطأتم سبيلكم، والذي نفس سلمان بيده لتركبن طبقاً عن طبق، سنّه بنى إسرائيل، القذّة بالقذّة. أما والله لو وليتموها علياً لأ- كلتم من فوقكم ومن تحت أرجلكم، فأبشروا بالبلاء، واقنطوا من الرخاء، ونابذتكم على سواء، وانقطعت العصمة فيما بيني وبينكم من الولاء.

أما والله لو أنى أدفع ضيماً أو أعزله ديناً لوضعت سيفي على عاتقي، ثم لضربت قدماً قدماً.

إلى أن يقول: فإذا رأيتم أيها الناس الفتن كقطع الليل المظلم يهلكك فيها الراكب الموضع والخطيب المصقع، والرأس المتبوع، فعليكم بآل محمد، فإنهم القادة إلى

١- أى: أصبتم سنة من خالف موسى في وصيه هارون.

ص: ٢٥٨

الجنّة، والدعاء إليها يوم القيامة، وعليكم بعلى، فوالله لقد سلمنا عليه بالولاء مع نبينا، فما بال القوم؟ أحسد؟ قد حسد قابيل هابيل، أو كفر؟ فقد ارتد قوم موسى عن الأسباط ويوشع وشمعون وابنى هارون شبر وشبير.
إلى أن يقول: أنزلوا آل محمد منكم منزلة الرأس من الجسد، بل منزلة العين من الرأس... ألا- إنى أظهرت أمرى وآمنت بربى، وأسلمت بنبىي، واتبعت مولاى ومولى كل مسلم.... (١)

ما قيل فيه:

قال النبى محمد صلى الله عليه وآله: ألا إن الجنّة اشتاقت إلى أربعة من أصحابى، فأمرنى ربى أن أحبهم... فأولهم على بن أبى طالب، والثانى المقداد بن الأسود الكندى، والثالث سلمان الفارسى، والرابع أبوذر الغفارى (٢).
وقال أيضاً... من أراد أن ينظر إلى رجل نور قلبه فلينظر إلى سلمان (٣).
وقال الإمام على عليه السلام حينما سئل عن سلمان: ذاك امرؤ منا وإلينا أهل البيت، من لكم بمثل لقمان الحكيم، علم العلم الأول والعلم الآخر، وقد قرأ الكتاب الأول وقرأ الكتاب الآخر، وكان بحراً لا ينزف (٤).
وقال الإمام الباقر عليه السلام للفضيل بن يسار... هل تدري ما عنى - بالعلم الأول والعلم الآخر - قال قلت: يعنى علم بنى إسرائيل وعلم النبى صلى الله عليه وآله، فقال عليه السلام: ليس هذا يعنى، ولكن علم النبى وعلم على وأمر النبى وأمر على صلوات الله عليهم (٥).
وقال الإمام على عليه السلام: ضاقت الأرض بسبعة، بهم ترزقون، وبهم تنصرون،

- ١- اختيار معرفة الرجال ١: ٧٦؛ معجم رجال الحديث ٩: ٢٠٥؛ ووردت هذه الخطبة فى مقام الاحتجاج على القوم، حين بايعوا أبا بكر.
- ٢- تاريخ دمشق ٦٠: ١٧٧.
- ٣- المصدر نفسه ٢١: ٤٠٧.
- ٤- الطبقات الكبرى ٤: ٨٦.
- ٥- الدرجات الرفيعة: ٢٠٩.

ص: ٢٥٩

وبهم تمطرون... سلمان الفارسي...

وقال أيضاً لأبي ذر: يا أبا ذر! إن سلمان باب الله في الأرض، من عرفه كان مؤمناً، ومن أنكره كان كافراً، وإن سلمان من أهل البيت (١).

وقال الإمام الباقر لمن ذكره بسوء: مه! لا تقولوا سلمان الفارسي، بل قولوا سلمان المحمدي، وذلك رجل من أهل البيت (٢).

وقال أبوهريرة: صاحب العلم الأول والآخر سلمان الفارسي (٣).

وقال أبو عمر روى عن رسول الله صلى الله عليه وآله من وجوه أنه قال: لو كان الدين في الثريا لثاله سلمان، وفي رواية أخرى: لثاله رجل من فارس (٤).

وقال الإمام الباقر عليه السلام: كان سلمان من المتوسمين (٥)، أي المتفرسين.

وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: المؤمن هاشمي، لأنه هشم الضلال والكفر والنفاق، والمؤمن قرشي لأنه أقر للشيء ونحن الشيء وأنكر اللاشيء الدلام وأتباعه... والمؤمن عربي لأنه أعرب عن أهل البيت... والمؤمن فارسي لأنه يفرس في الإيمان، لو كان الإيمان منوطاً بالثريا لتناوله أبناء فارسي، يعنى به المتفرس، فاختار منها أفضلها واعتصم بأشرفها، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله (٦).

وقال الإمام الصادق عليه السلام: إن سلمان بحر لايتزف (٧).

وسئل عليه السلام عن كثرة ذكره لسلمان؟ قال: إن الباعث على كثرة ذكره ثلاثة، فضيلة عظيمة له.

١- معجم رجال الحديث ٩: ٢٠١.

٢- اختيار معرفة الرجال ١: ٥٤.

٣- تاريخ دمشق ٢١: ٤٢٤.

٤- شرح نهج البلاغة ١٨: ٣٦.

٥- معجم رجال الحديث ٩: ٢٠٢.

٦- الاختصاص: ١٤٣.

٧- الفوائد الرجالية ٣: ٢٠.

ص: ٢٤٠

الأول: إنه اختار هوى أمير المؤمنين على عليه السلام على هوى نفسه.

الثاني: حبه للفقراء واختيارهم على الأغنياء وذوى الثروة والأموال.

الثالث: محبته للعلم والعلماء، وإن سلمان كان عبداً صالحاً حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين (١)، وقال أيضاً: إن سلمان علم الاسم الأعظم (٢).

وفى كتاب الامام الرضا عليه السلام إلى المأمون فى حديث طويل:... والمقتولين من الصحابة الذين مضوا على منهاج نبيهم صلى الله عليه وآله، ولم يغيروا ولم يبدلوا مثل سلمان الفارسى وأبى ذر... (٣).

وقال الفضل بن شاذان:... ويقال: انتهى علم الأئمة إلى أربعة نفر: أولهم سلمان الفارسى (٤). وحكى عنه أنه قال: مانشأ فى الإسلام رجل من كافة الناس كان أفقه من سلمان الفارسى (٥)، وقال أبوهريرة:... ومما زين الله به إصبهان (٦) وأهلها أن جعل سلمان الفارسى منها، ورزقه صحبة نبينا صلى الله عليه وآله، حتى قال فيه: سلمان منا أهل البيت (٧).

وقال كعب الأحبار: سلمان حشى علماً وحكمة (٨).

وقال النبى صلى الله عليه وآله: إن الجنة لأشوق إلى سلمان من سلمان إلى الجنة، وإن الجنة لأعشق لسلمان من سلمان إلى الجنة (٩).

١- معجم رجال الحديث ٩: ٢٠١، طرائف المقال ٢: ٦٠٠.

٢- الاختصاص: ١١.

٣- بحار الأنوار ١٠: ٣٥٨.

٤- اختيار معرفة الرجال ٢: ٧٨٠.

٥- المصدر نفسه ١: ٦٨.

٦- لا يخفى أن قوله هذا مبنى على رأى الشاذ أنه من إصبهان، والمحقق أنه من رامهرمز من توابع خوزستان حالياً كما بيناه.

٧- طبقات المحدثين ١: ٤٠٣.

٨- شرح نهج البلاغة ١٨: ٣٦، بحار الأنوار ٢٢: ٣٩١.

٩- الدرجات الرفيعة: ٢٠٨.

ص: ٢٤١

وقال أبو عبد الله عليه السلام: الإيمان عشر درجات، فالمقداد في الثامنة، وأبوذر في التاسعة، وسلمان في العاشرة.

ما نزل فيه من القرآن

نقتصر هنا على ذكر الآية النازلة في حقه، مع الإعراض عن ذكر القصة والسبب الذي لأجله نزلت مراعاة للاختصار.

١- «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ مِنَ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ» المائدة: ٦٩.

نزلت هذه الآية في سلمان الفارسي وأصحابه (١).

٢- «وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا» الكهف: ٢٨.

نزلت هذه الآية في سلمان الفارسي وجماعه (٢).

٣- «وَلَقَدْ نَعَلْنَا أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ» النمل: ١٠٣.

٤- «أَيُّحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ» الحجرات: ١٢.

نزلت في رجلين استغابا سلمان يوم كان في سفر معهما (٣).

١- تاريخ دمشق ٢١: ٤١٩؛ الدر المنثور ١: ٧٣.

٢- تفسير القرطبي ١٠: ٣٩٠؛ البرهان في علوم القرآن ١: ٢٠١؛ تفسير نور الثقلين ٣: ٢٥٧.

٣- الدر المنثور ٦: ٩٤؛ تفسير الصافي ٥: ٥٤.

ص: ٢٦٢

- ٥- «وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ» التوبة: ١٠٠.
- نزلت في سلمان والمقداد وأبي ذر (١).
- ٦- «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ... لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ» الأنفال: ٢.
- نزلت في أمير المؤمنين عليه السلام وسلمان وأبي ذر والمقداد (٢).
- ٧- «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا» الكهف: ١٠٧.
- نزلت في سلمان وأبي ذر وجماعة (٣).
- ٨- «وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ...» الحج: ٢٤.
- نزلت في سلمان وجماعة (٤).
- ٩- «وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَيَّ مُحَمَّدٍ مُحَمَّدًا» محمد: ٢١، نزلت في سلمان وجماعة (٥).
- ١٠- «فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي» آل عمران: ١٩٥ (٦).
- ١١- «وَالْعَصْرُ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ» العصر: ٣.
- نزلت في أمير المؤمنين علي عليه السلام وسلمان (٧).
- ١٢- «إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ» التين: ٤.

١- شواهد التنزيل ١: ٣٣٠؛ بحار الأنوار ٢٢: ٣٢٧.

٢- تفسير القمي ١: ٢٥٥؛ بحار الأنوار ٢٢: ٣٢٢.

٣- تفسير الصافي ٣: ٢٦٨؛ بحار الأنوار ٢٢: ٣٢٣.

٤- مناقب آل أبي طالب ٢: ٢٩٢.

٥- تفسير القمي ٢: ٣٠١؛ بحار الأنوار ٢٢: ٣٤٩.

٦- نور الثقلين ١: ٤٢٥.

٧- شواهد التنزيل ٢: ٤٨٢.

ص: ٢٦٣

هم سلمان و المقداد و عمار و أبوذر رضى الله عنهم، وأمير المؤمنين على بن أبي طالب عليه السلام، لهم أجر غير ممنون (١).

مالقيه من أذى الآخريين:

قد يتصور القارىء الكريم أن الأذى الذى لقيه سلمان كان من أبناء الديانات الأخرى التى اعتادت على منع أبنائها من اعتناق دين الإسلام، وإن كان ماعاناه من ترك دين آباءه وأجداده ليس بالقليل، إلا أنه منى بحرب ضروس استمرت إلى حين وفاته، لكن هذه المرّة كانت من أبناء ملته ودينه من أصحاب الصف الواحد ومن جمع من الصحابة المحيطين بنبي الإسلام صلى الله عليه وآله، إنه تيار كان يحمل أفكاراً جاهليةً يعتبر أن الإسلام ونيته حكر على العرب، بل على أبناء الجزيرة أيضاً، حمل هذا التيار فكراً منحرفاً زرع سموه فى صفوف المسلمين إلى يومنا هذا، أرادوا جعله ديناً مختصاً بأمة معينة، مع أنه جاء لجميع الامم، كرسوا بأفكارهم المنحرفة عدّة مفاهيم باطلة، طالما حاربها النبي صلى الله عليه وآله منها الطبقية، فُضِّل فيها العربى على غيره، فى الاحترام والإيمان والحدود والعطاء و... فيما نرى القرآن الكريم يقول:

«إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ» الحجرات: ١٣. والنبي صلى الله عليه وآله يقول:

«لا فضل لعربى على أعجمى... إلا بالتقوى» (٢).

فكان سلمان أوّل ضحية لهذا الفكر الزائف الذى شوّه سمعة الدين الحنيف، ولكن فى كلّ هذه الظروف الصعبة كان الرسول صلى الله عليه وآله و آلّه وأمير المؤمنين على بن أبي طالب عليه السلام إلى جنبه، فصبر وتحمل حتى أظهر الله تعالى فضله ومقامه لجميع المسلمين، كيف لا، وقد بلغ المرتبة العاشرة من الإيمان، كما قال أمير المؤمنين على عليه السلام. وكان قد تخطى سلمان حلقة قريش وهم عند رسول الله صلى الله عليه وآله فى مجلسه، فالتفت إليه رجل منهم فقال: ما حسبك وبمانسبك وما اجترأت أن تخطى

١- بحار الأنوار ٢٢: ٣٤٥. ح ٥٦؛ وانظر تفسير فرات الكوفى.

٢- المعجم الاوسط للطبرانى ٥: ٨٦.

ص: ٢٦٤

حلقة قریش!؟

قال: فنظر إليه سلمان، فأرسل عينيه وبكى وقال: سألتني عن حسبي ونسبي، خلقت من نطفة قدره، فأما اليوم ففكره وعبره، وغداً جيفة منتنة، فإذا نشرت الدواوين ونصبت الموازين، ودعى الناس لفصل القضاء، فوضعت في الميزان، فإن ارجح الميزان فأنا شريف كريم وإن أنقص الميزان فأنا اللئيم الذليل، فهذا حسبي وحسب الجميع.

فقال النبي صلى الله عليه وآله: صدق سلمان، صدق سلمان، صدق سلمان، من أراد أن ينظر إلى رجل نور قلبه فلينظر إلى سلمان (١). وعن الإمام الباقر عليه السلام قال: جلس عدّة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله ينتسبون وفيهم سلمان الفارسي، وأنّ عمر سأله عن نسبه وأصله؟

فقال: أنا سلمان بن عبد الله، كنت ضالاً فهداني الله بمحمد، وكنت عائلاً فأغناني الله بمحمد، وكنت مملوكاً فأعتقني الله بمحمد، هذا حسبي ونسبي، ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وآله فحدّثه سلمان وشكى إليه مالقى من القوم وما قال لهم، فقال النبي صلى الله عليه وآله: عليه وآله:

يا معشر قریش! إن حسب الرجل دينه ومعرفة خلقه وأصله عقله، قال الله تعالى:

«إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ» الحجرات: ١٣.

يا سلمان ليس لأحد من هؤلاء عليك فضل إلا بالتقوى، وإن كان التقوى لك عليهم فأنت أفضل (٢).

وفاته ومدفنه:

توفي سنة أربع وثلاثين للهجرة على المشهور، في عهد عمر بن الخطاب، في

١- تاريخ دمشق ٢١: ٤٠٧.

٢- أمالي الطوسي: ١٤٧.

ص: ٢٦٥

المدائن، جهّزه وصلى عليه أمير المؤمنين عليه السلام، وكان آنذاك في المدينة المنورة، وبعد صلاة الصبح أقبل على الناس فقال عليه السلام: معاشر الناس أعظم الله أجركم في أخيكم سلمان، فقالوا في ذلك: فلبس عمامة رسول الله صلى الله عليه وآله وأخذ قضيبه وسيفه، وركب على العضباء، وقال لقنبر: عدّ عشرًا، قال: فقلت، فإذا نحن على باب سلمان.

قال زاذان: فلما أدرك سلمان الوفاة قلت له: من المغسل لك؟ قال: من غسل رسول الله صلى الله عليه وآله، فقلت: إنك بالمدائن وهو بالمدينة؟ فقال: يا زاذان إذا شددت لحيي تسمع الوجبة، فلما شددت لحييه سمعت الوجبة وأدركت الباب، فإذا أنا بأمرير المؤمنين عليه السلام.

فقال: يا زاذان قضى أبو عبد الله سلمان؟

قلت: نعم يا سيدى. فدخل وكشف الرداء عن وجهه، فتبسم سلمان إلى أمير المؤمنين عليه السلام فقال له: مرحباً يا أبا عبد الله، وإذا لقيت رسول الله صلى الله عليه وآله فقل له: ما مرّ على أخيك من قومك، ثم أخذنى تجهيزه...

ص: ٢٦٦

وقال أبو الفضل التميمي:

سمعت يسيراً من عجائبه وكان أمر على لم يزل عجبا

درت عن ليلة سار الوصى بها إلى المدائن لما أن لها طلبا

فألحد الظهر سلماً وعاد إلى عراض يثرب والإصباح ما قربا

كأصف قبل رد الطرف من سبأ بعرض بلقيس وافى يخرق الحجبا

فكيف في آصف لم تغل أنت؟ بلى بحيدر أنا غالٍ أورد الكذبا

إن كان أحمد خير المرسلين؟ فذا خير الوصيين أو كل الحديث هبا (١)

وهناك أقوال آخر تقول: إنه توفى في عهد عثمان، وأخرى في عهد أمير المؤمنين على بن أبي طالب عليه السلام، وبعضها ينكر مجيئه عليه السلام من المدينة إلى المدائن، لكن المشهور ما ذكرناه، والنصوص الآتية الذكر أكبر شاهد على ذلك.

١- مناقب آل أبي طالب ٢: ١٣١؛ والأبيات فقط في الغدير ٥: ١٥.

ص: ٢٦٧

مكة وأسمائها وما ترمز إليه في اللغات السامية

إشارة

د. محمد خليفة حسن

مقدمة

تعددت أسماء مكة المكرمة، وقد زادت أسماؤها عن ثلاثين اسماً، تعبّر عن أوصاف وأحوال مختلفة (١)، وقد ورد بعض هذه الأسماء في القرآن الكريم، ومن أهمها: مكة (٢)، بكة (٣)، وأم القرى (٤)، والبلد الأمين (٥)، وقد شرحت هذه الأسماء عند المفسرين، فاصطاح على أن التسمية مكة تعنى التى تمك الجبارين، أى تدكهم وتحطمهم، أو أنها سميت بذلك لآزدحام الناس فيها. كما شرحت التسمية بكة بشروح شبيهة بمعنى التهشيم والقهر (٦)، وأن التسمية بأم القرى تشير إلى الزعامة والقيادة، والقداسة، فهى أعظم كل القرى، أما صفة البلد الأمين فتشير إلى أن من

- ١- الطيب الشريف، مكة فى وجدان شعراء ما قبل الإسلام، مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية، بحوث ودراسات إعداد د. أبوبكر باقادر، وزارة الحج، الندوة الكبرى لعام ١٤٢٣-١٤٢٤ هـ، ص ٥٦٧.
- ٢- الفتح: ٢٤.
- ٣- آل عمران: ٩٦.
- ٤- الشورى: ٧، الأنعام: ٩٢، القصص: ٥٩.
- ٥- التين: ٣.
- ٦- الطيب على الشريف: ٥٦٧.

ص: ٢٤٨

دخله كان آمناً، وأن أهلها آمنون على مدى التاريخ (١)، وقد أخذت هذه المعاني المختلفة لأسماء مكة من المعجم العربي، باعتبار أن أسماء مكة المختلفة أسماء عربية وبخاصة مكة و بكة، وبقية الأسماء هي صفات أو ألقاب لمكة المكرمة.

وقد اعتقد بعض الدارسين أن الاسمين: مكة و بكة يعودان- من الناحية اللغوية- إلى أصول بابلية (٢) أو عربية جنوبية (٣)، أو إلى أصول آرامية (٤)، وفي هذا البحث محاولة لتأصيل الاسمين: مكة و بكة تأصيلاً عربياً وسامياً من خلال العودة إلى مجموعة من المعاجم العربية والسامية للتعرف على الدلالات المختلفة لهذين الاسمين، والتأكد من الجذور العربية والسامية التي من الممكن أن يكون الاسمان مشتقين منها، وتحديد المعاني المعطاة لهذه الجذور، والاستقرار على أنسب الدلالات مع إعطاء النظائر السامية للجذور العربية، والابتعاد عن تحديد لغة سامية بعينها لكي تكون أصلاً أو مصدرًا لأسماء مكة، انطلاقاً من القاعدة التي رسمها علماء المعاجم العربية والسامية فيما يتعلق بمسألة التأصيل السامي للألفاظ، وهذه القاعدة تؤكد على تجنب تحديد لغة سامية بعينها لكي تكون أصلاً لجذر بعينه؛ لصعوبة الوصول إلى هذه النتيجة، والاكتفاء بتحديد ما يسمى بالنظائر السامية للجذور والألفاظ العربية.

وهناك ملاحظة أخرى جديرة بالإشارة وهي أن اللغة العربية احتفظت ببعض من أقدم الظواهر اللغوية، وبأكمل الأبجديات السامية، وتميزت باستمرارها في التاريخ، وعدم انقطاعها بخلاف بقية اللغات السامية التي لم تكتب لها هذه الاستمرارية.

١- الطيب على الشريف: ٥٦٧، ٥٦٩.

٢- حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ١: ٤٥، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة التاسعة، ١٩٧٩ م.

٣- أحمد إبراهيم الشريف، مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول: ٩٨، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٦٥ م.

٤- المصدر نفسه.

ص: ٢٦٩

ولهذا اعترف بعض علماء اللغات السامية بقدوم اللغة العربية، وبأنها أكثر اللغات السامية استحفاً لكي تكون أصلاً لبقية اللغات السامية وأماً لها (١)، مستنديين في ذلك إلى دليل تاريخي لغوي، فمن الناحية التاريخية تكوّنت كل الشعوب السامية أصلاً من هجرات عربية خرجت من شبه الجزيرة العربية متجهة إلى مناطق الوديان في الشرق الأدنى القديم، مكونةً لمجموعه شعوب عربية (٢)، تحدثت في البداية بلهجات عربية تطورت إلى لغات مستقلة عن الأصل العربي وهي اللغات الآرامية والعبرية والأكدية والحبشية، ولنا الحق في تسمية هذه اللغات بأسرة اللغات العربية، بدلاً من التسمية الاستشراقية «أسرة اللغات السامية» (٣). ومن الناحية اللغوية تشترك هذه اللغات مع اللغة العربية في نحوها، وصرفها، ودلالاتها المعجمية، وأصواتها، ومفرداتها، الأمر الذي يؤكد على عودة هذه اللغات إلى أصل واحد هو الأصل العربي.

وفي دراسة الاسمين: مكة وبكة، سنبدأ بالبحث عن دلالات جذور هاتين التسميتين في المعاجم العربية المختلفة، ثم نبحث عن دلالات جذورهما في معاجم اللغات السامية المختلفة، ونقارن حصيلة هذه الدلالات في اللغات السامية الأساسية وهي: الأكدية، والآرامية، والعبرية، والحبشية، والعربية الجنوبية، والسريانية، ونقابلها بالدلالات الموجودة في المعاجم العربية للوصول إلى تحديد دقيق لمعاني التسميتين: مكة وبكة.

١- أمين مدني، التاريخ العربي وبدايته: ٥٩، ١١٣-١١٤، ١١٨، الكتاب العربي السعودي، الطبعة الثانية، ١٤٠١ هـ، ١٩٨١ م، دار نشر تهامة، ١٤٠٠.

٢- روبرتسن سميث، محاضرات في ديانة الساميين، ترجمة عبد الوهاب علوب، مراجعة وتقديم محمد خليفة حسن، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ١٩٩٧ م، صفحات و، ز، ا، ١٠.

٣- محمد خليفة حسن، رؤية عربية في تاريخ الشرق الأدنى القديم وحضارته: ٧٧-٧٩، دار قباء، القاهرة، ١٩٩٨ م، وانظر أيضاً الأستاذ أمين مدني، التاريخ العربي وبدايته، مرجع سابق: ١١٣-١١٤؛ وانظر كذلك معروف الدواليبي، جزيرة العرب- مهد نشأة فكرة الحق والقانون: ٤٩٢، ٤٩٤، ٥٢٤، دار الشواف، الرياض.

ص: ٢٧٠

المبحث الأول: أسماء مكة

إشارة

أولاً: الاسمان «مكة» و «بكة»:

الاسمان «مكة» و «بكة» من أشهر الأسماء التي عرفت بها مكة، وهما أيضاً من أكثر الأسماء التي اختلف العلماء والمفسرون حول تفسير معانيهما.

ومن أهم الآراء فى معنى مكة:

١- سميت مكة لأنها تمكّ الجبارين أى تذهب نخوتهم (١).

٢- سميت مكة لازدحام الناس بها (٢).

٣- سميت مكة لأن العرب فى الجاهلية كانت تقول: «لايتم حجنا حتى نأتى مكان الكعبة فنمك فيه، أى نصفر صفير المكاء حول الكعبة، وكانوا يصفرون ويصفقون بأيديهم اذا طافوا بها» (٣).

٤- سميت مكة لأنها بين جبلين مرتفعين عليها وهى فى هبطة بمنزلة المكوك (٤).

٥- سميت مكة لأنها عبّدت الناس فيها، فأتونها من جميع الأطراف من قولهم: امتك الفصيل أخلاف الناقة، إذا جذب جميع ما فيها جذباً شديداً، فلم يبق فيها شيئاً (٥).

٦- سميت مكة لأنها لايفجر بها أحد إلا بكّت عنقه وقد التوت عنقه (٦).

١- ياقوت الحموى، معجم البلدان ٥: ٢١٠، تحقيق فريد عبد العزيز الجندى، دار الكتب العلمية، بيروت.

٢- المصدر نفسه: ٢١٠.

٣- المصدر نفسه: ٢١٠-٢١١.

٤- المصدر نفسه: ٢١١.

٥- المصدر نفسه.

٦- المصدر نفسه.

ص: ٢٧١

- ٧- سميت مكة من مكّ الثدى أى مصه، لقله مائها؛ لأنهم كانوا يمتكون الماء أى يستخرجونه (١).
- ٨- سميت مكة لأنها تمك الذنوب، أى تذهب بها، كما يمك الفصيل ضرع أمه فلا يبقى فيه شيئاً (٢).
- ٩- سميت مكة لأنها تمك من ظلم، أى تنقصه (٣).

ومن أهم الآراء التي قيلت في معنى «بكة»:

- ١- سميت بكة لأنها تبك أعناق الجابرة (٤).
- ٢- سميت بكة لازدحام الناس بها (٥).
- ٣- بكة اسم لبطن مكة، لأنهم يتباكون فيها أى يزدحمون (٦).
- ٤- سميت بكة لأن الأقدام تبك بعضها بعضاً، أو لبكّ الناس بعضهم بعضاً فى الطواف (٧).

الآراء التي قيلت فى التفرقة بين «مكة» و «بكة»:

- ١- مكة اسم المدينة، وبكة اسم البيت (٨).
- ٢- بكة اسم القرية، ومكة مغزى بذى طوى لا يراه أحد ممن مرّ من أهل الشام والعراق واليمن والبصرة، وإنما هى أبيات فى أسفل ثنية ذى طوى (٩).

١- المصدر نفسه.

٢- المصدر نفسه.

٣- المصدر نفسه: ٢١٠.

٤- الأزرقى، أخبار مكة، ١: ١٨٨-١٨٩.

٥- المصدر نفسه: ٢١١.

٦- ابن هشام، السيرة، ١: ١٢٥.

٧- المصدر نفسه: ٢١٠.

٨- المصدر نفسه.

٩- المصدر نفسه: ٢١١.

ص: ٢٧٢

- ٣- بكة موضع البيت، وماحول البيت مكة (١).
- ٤- بكة موضع البيت، وموضع القرية مكة (٢).
- ٥- بكة موضع البيت، ومكة هي الحرم كله (٣).
- ٦- بكة الكعبة والمسجد، ومكة ذو طوى، وهو بطن الوادى المذكور فى سورة الفتح (٤).

الآراء التي قيلت في ترادف «مكة» و «بكة»:

- ١- اعتبر بعض الدارسين «مكة» و «بكة» اسمين مترادفين، بمعنى أن مكة هي بكة والميم بدل من الباء، فى مثل قولهم ما هذا بضربة لازب ولازم (٥)، ومعنى هذا اشتراك مكة وبكة فى نفس الدلالات والمعانى.
- ٢- سميت مكة وبكة لازدحام الناس فيها (٦)، وفى هذا تخصيص لصفة الازدحام كدلالة مشتركة بين الجذرين مَكَّ و بَكَّ.

ثانياً: أسماء أخرى لمكة:

ومن الأسماء الأخرى التي أطلقت على مكة الأسماء التالية:

- ١- أم القرى: وهى تسمية وردت فى القرآن الكريم: «وَلْتُنذِرْ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا» (٧)، وهذا دليل على فضلها على سائر البلاد (٨).

١- المصدر نفسه.

٢- المصدر نفسه.

٣- المصدر نفسه.

٤- الفتح: ٢٤.

٥- ياقوت الحموى، معجم البلدان: ٢١٠.

٦- المصدر نفسه.

٧- الشورى: ٦.

٨- ياقوت الحموى، معجم البلدان: ٢١٢.

ص: ٢٧٣

- ٢- البلد الأمين: وهي تسمية وردت في القرآن الكريم: «وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونَ* وَطُورِ سِينِينَ* وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ» (١).
- ٣- البلد: وردت هذه التسمية في القرآن الكريم: «رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ» (٢)، وفي قوله تعالى: «لَأَأْتِئُكُمْ بِهَذَا الْبَلَدِ* وَأَنْتَ حَلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ» (٣).
- ٤- البيت العتيق: تسمية وردت في القرآن الكريم: «وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ» (٤)؛ لأنه عتق من الجبابرة (٥).
- ٥- البيت الحرام: تسمية وردت في القرآن الكريم: «جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ» (٦).
- ٦- النساسة: لأنها لا تقرر ظلماً ولا بغياً، ولا يبغى فيها أحد إلا أخرجته (٧).
- ٧- الحاطمة: لأنها تحطم من استخف بها (٨).
- ٨- الرأس: لأنها مثل رأس الإنسان (٩).
- ٩- القادس: لأنها تقدس من الذنوب أي تطهر (١٠)؟
- ١٠- الباسة: لأنها تبس أي تحطم الملحدين، وقيل: تخرجهم (١١).
- ١١- كوئي: اسم بقعة كانت منزل بني عبد الدار (١٢).

١- التين: ٣.

٢- ابراهيم: ٣٥.

٣- البلد: ١، ٢.

٤- الحج: ٢٩.

٥- معجم البلدان، مرجع سابق: ٢١١.

٦- المائدة: ٩٧.

٧- معجم البلدان: ٢١٥.

٨- المصدر نفسه: ٢١١.

٩- المصدر نفسه.

١٠- المصدر نفسه.

١١- المصدر نفسه.

١٢- المصدر نفسه: ٢١١-٢١٢.

ص: ٢٧٤

١٢- المذهب: ورد هذا الاسم فى قول بشار بن أبى خازم: وما ضَمَّ جِياذ المصلَّى ومُذَهَبٌ (١).

١٣- المقدسة.

١٤- الناس.

١٥- أم رُحَم.

١٦- معاذ.

١٧- صلاح.

١٨- الحرم.

١٩- العرش.

المبحث الثانى آراء المصادر والمراجع فى دلالات «مكة» و «بكة»

إشارة

قبل أن نعطى دلالات التسميتين «مكة» و «بكة»، نستطلع أولًا الآراء التى وردت فى المصادر القديمة والمراجع الحديثة حول معنى التسميتين؛ وذلك للحكم على مدى معرفة القدماء والمحدثين بدلالات التسميتين، وتحديد أقرب هذه الآراء إلى الصحة، بعد الاسترشاد بما ورد فى معاجم اللغة العربية واللغات السامية المختلفة.

أولًا: آراء المصادر والمراجع حول دلالات «مكة»:

يمكن حصر أهم الآراء التى وردت حول دلالات التسمية: مكة فى المصادر

١- المصدر نفسه: ٢١٢.

ص: ٢٧٥

القديمة والمراجع الحديثة بما يلى:

- ١- سميت «مكة» لأنها تَمُكُّ الجبارين والماردين والمعتدين عليها، أى تدكهم وتحطمهم (١).
- ٢- سميت «مكة» لآزدحام الناس فيها (٢).
- ٣- سميت «مكة» بمعنى «البيت»، ويعتقد أن مكة كلمة بابليّة معناها «البيت»، وسمته بها العماليق (٣).
- ٤- أن مكة هى بيت الله الحرام فيقال: مكة اسم المدينة، ومكة اسم البيت (٤)، وقد أخذت مكة اسمها من البيت لأنها قامت حوله (٥).
- ٥- أن مكة- بالميم- هى اسم الحرم كله، وذلك للفرقة بين مكة وبكة، حيث تعنى «بكة» المسجد خاصة، ويقول الزجاج: إن بكة موضع البيت، وسائر ما حوله مكة (٦).
- وفى قصة هاجر مع ابنها اسماعيل أنها نزلت هذا الوادى تبحث عن الماء
- ٦- مكة كلمة يمنية (عربية جنوبية) وتعنى بيت، ويرد مكرب فى لغة اليمن بمعنى بيت الرب، بمعنى أن مكرب اسم مركب من «مك» بمعنى بيت و «رب» بمعنى «رب» أو «إله»، فيصبح المعنى بيت الرب أو بيت الإله. وتذكر المصادر أن قبائل الجنوب أول من استعمر هذا الوادى، فالأرجح أن اسمها أخذ من لغة الجنوب (٧).

١- ياقوت الحموى، معجم البلدان: ١٨١؛ وانظر: الطيب على الشريف، مكة فى وجدان شعراء ما قبل الإسلام: ٥٦٧.

٢- المصدر نفسه: ٥٦٧.

٣- حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسى: ٤٥.

٤- ياقوت الحموى، معجم البلدان: ٣٣، ٤٥.

٥- أحمد إبراهيم الشريف، مكة والمدينة: ٩٧.

٦- المصدر نفسه: ٤٥، وانظر: المعجم الكبير، مجمع اللغة العربية، مادة ب ك ك: ٤٩٢، القاهرة، ١٩٨١ م؛ وانظر: حسن إبراهيم: ٤٥.

٧- أحمد إبراهيم الشريف: ٩٧.

ص: ٢٧٦

وقد وردت مكّة أو مكرب عند بطليموس بمعنى بيت الرب. وذكر بروكلمان أن مكّة مأخوذة من كلمة «مقرب» العربية الجنوبية ومعناها «الهيكل»، ويذكر بروكلمان أن بطليموس نقل هذا الاسم عن طريق الآراميين حيث يرد في اللهجة الآرامية الشرقية ماكورابا أو ماكارابا (١).

٧- مكّة بمعنى «الوادي» وكذلك «بكّة»، وهذا عند بروكلمان أدلّ على مركز مكّة؛ لأن مكّة في واد غير ذى زرع كما ورد أيضاً في القرآن الكريم (٢)، ويعطى بروكلمان مثلاً على ذلك الاسم بعلبك، بمعنى وادي البعل، وأن ماكورابا أو ماكارابا في اللهجة الآرامية الشرقية تعني «الوادي العظيم» أو «وادي الرب» (٣).

ومن المعروف أن وادي مكّة كان موثلاً للقوافل القادمة من الشمال والجنوب، وكان هذا الوادي مضرب خيام القوافل في الأوقات التي تفصل فيها القوافل من الشام إلى اليمن، أو من اليمن إلى الشام، وفي قصة هاجر مع ابنها إسماعيل أنها نزلت هذا الوادي تبحث عن الماء، وبعد تفجر مياه بئر زمزم بدأت القبائل العربية تتجه للإقامة على مقربة من البئر التي جعلت الحياة ممكنة في هذا الوادي الأجرد، وشيّد إسماعيل البيت الحرام الذي قامت مكّة بعد ذلك من حوله (٤). وهو الوادي الذي به مكّة حتى اليوم، وكانت قبيلة جرهم أولى القبائل التي أقامت في مكّة بعد تفجر بئر زمزم (٥)، ويقال أيضاً: إن العمالقة كانوا أول من سكنها.

ثانياً: آراء المصادر والمراجع حول دلالات بكّة:

- ١- نقلًا عن أحمد إبراهيم الشريف: ٩٨.
- ٢- إبراهيم: ٣٧.
- ٣- نقلًا عن أحمد إبراهيم الشريف: ٩٨.
- ٤- محمد حسين هيكل: حياة محمد: ٨٦.
- ٥- ابن هشام: سيرة ابن هشام، طبعة السقا، ١: ١٢٣-١٢٤.

ص: ٢٧٧

ويمكن حصر أهم الآراء الخاصة بدلالات «بكة» فيما يلي:

- ١- ورد في بعض المصادر أن بكة هي مكة في لغة الجنوب، وذلك بقلب الميم إلى باء على عادة أهل الجنوب (١).
 - ٢- أن بكة تعنى الوادى، وأن مكة لغة أخرى بنفس المعنى، ويستشهد على هذا المعنى بالاسم «بعلبك»، ومعناه وادى البعل. وأن مكة تعنى الوادى، ويستشهد على ذلك بالاسم ماكورابا أو ماكارابا بمعنى «الوادى العظيم» أو «وادى الرب» فى اللهجة الآرامية الشرقية (٢)، وهو الاسم الذى استخدمه بطليموس الإسكندرى فى المصادر اليونانية والرومانية، وربما نقلًا عن المصادر الآرامية (٣).
 - ٣- أنها سميت «بكة» من البك أى التهشيم والتمزيق والقهر والإجهاد (٤).
 - ٤- أن بكة كلمة بابلية بمعنى البيت، أطلقها العماليق عليها.
 - ٥- سميت بكة لبك الناس بعضهم بعضاً فى الطواف.
 - ٦- سميت بكة لأنها تبك أعناق الجابرة (٥).
 - ٧- أن بكة اسم لبطن مكة لأنهم يتباكون فيها أى يزدحمون (٦).
- ومن هذا نخرج بالنتيجة التالية وهى: أن المصادر اعتبرت «بكة»، إما كلمة عربية من البك بمعنى التهشيم، أو عربية جنوبية تقابل مكة بقلب الميم إلى باء، أو آرامية شرقية بمعنى «الوادى»، أو أن بكة كلمة بابلية بمعنى البيت.

ثالثاً: التفرقة بين «مكة» و «بكة»:

لاحظنا أنه فى الوقت الذى اعتبرت فيه العديد من المصادر «بكة» لغة فى «مكة» وأن «مكة» و «بكة» اسمان لمكان واحد، نجد اتجاهاً فى بعض المصادر الأخرى إلى التفرقة بين مكة وبكة باعتبارهما حاملتين لدلالات مختلفة، ومن أهم

١- أحمد إبراهيم الشريف: ٩٨.

٢- رأى بروكلمان نقلًا عن أحمد إبراهيم الشريف: ٩٨.

٣- أحمد إبراهيم الشريف: ٩٨.

٤- الطيب على الشريف: ٥٦٧.

٥- الأزرقى، أخبار مكة، طبعه خياط ١: ٥٠.

٦- ابن هشام، سيرة ابن هشام: ١١٤.

ص: ٢٧٨

وجوه التفرقة بين مكة وبكة:

- ١- أن مكة بالميم تعنى الحرم كله، بينما بكة بالباء تعنى المسجد فقط (١).
- ٢- أن بكة اسم آخر لمكة مختلف في الدلالة، حيث يعنى التهشيم.
- ٣- أن بكة تعنى «البيت» في البابلية، وربما يصبح معنى الأثر «أنا الله ذوبكة الحرام»، أى صاحب البيت الحرام، كما ورد في بعض الآثار التاريخية (٢)، وبكة تسمية أطلقها العمالقة عليها.
- ٤- أن «بكة» موضع البيت، وسائر ما حوله «مكة» (٣).

المبحث الثالث مكة وبكة في المعاجم العربية

إشارة

بعد إعطاء الدلالات التي وردت للتسميتين مكة وبكة في المصادر القديمة والمراجع الحديثة، ننتقل إلى الجزء الثاني من هذا البحث وهو الخاص بتحديد دلالات مكة وبكة في معاجم اللغة العربية، وفي المعاجم السامية، وبخاصة المعاجم الآرامية والعبرية والحبشية والأكادية والعربية الجنوبية.

أولاً: دلالات مكة وبكة في المعاجم العربية:

١- دلالات مكة:

وردت في المعجم العربي عدة مواد أو جذور يجب مراجعتها دلالاتها الأساسية والفرعية في محاولة لتحديد دلالة التسمية مكة، ومن هذه المواد: م ك ك، م ك ك، م ك ك،

١- حسن إبراهيم نقلًا عن ياقوت الحموي، ٨: ٢٢.

٢- ورد في الآثار التاريخية أنه وجد مكتوباً على حجر في ربوع مكة: «أنا الله ذو بكة الحرام وضعتها يوم وضعت الشمس والقمر»، انظر الطيب الشريف: ٥٦٩، نقلًا عن ياقوت الحموي، معجم البلدان ٥: ١٨٣.

٣- المعجم الكبير، حرف الباء: ٤٩٢، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٨١ م.

ص: ٢٧٩

ومع الأخذ في الاعتبار الصلة الصوتية بين صوتي الكاف والقاف فهناك بعض المواد ذات الصلة مثل: م ق ق، م ق ا، م ق ه. وفيما يلي دلالات كل جذر من هذه الجذور:

أ- الجذر م ك ك:

يأتي الجذر مَكَّ ومن استخداماته:

- مَكَّ العظم مَكَّا: مَصَّ جميع ما فيه.

- مَكَّ غريمه: أَلَحَّ عليه في الاقتضاء.

- وَمَكَّ الشيء: نقصه أو أهلكه.

وتدور معظم الاشتقاقات من هذا الجذر حول هذه المعاني مثل: مَكَّك على غريمه، أي مَكَّك وامتَكَّك العظم أي مَكَّك، تمكَّك بمعنى امتَكَّك، والمكَّاك المخ الممصوص، واللبن الممصوص، والمكَّاك أي المكَّاك، والمكُّوك: طاس يُشرب به، أعلاه ضيق، وسطه واسع، ومكيال قديم. ويرد أيضاً مَكَّمَك بمعنى تدحرج في المشي، ومكَمَك العظم: مَصَّ جميع ما فيه (١).

ب- الجذر م ك ا:

- مكا مَكَّاء ومَكَّوًّا: صفر بفيه أو شَبَّكَ بأصابع يديه، ثم أدخلها في فيه، ونفخ فيها، ويقال: مكا الطائر. وفي القرآن الكريم: «وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً» (٢).

- تمكَّى الغلام: تَطَهَّرَ للصلاة، وتمكَّى الفرس: ابتل بالعرق، ومنه المَكَّا: جحر الثعلب والأرنب (٣).

ومن الجذور القريبة صوتياً:

١- المعجم الوسيط: ٩١٦-٩١٧، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، الطبعة الثالثة، القاهرة، ١٩٨٥ م.

٢- الأنفال: ٣٥.

٣- المعجم الوسيط: ٩١٧.

ص: ٢٨٠

أ- الجذر م ق ق:

- مَقَّ الشفء مَقًّا: ففحه، والعفن: قلعها.

- مَقَّ الرجل أو الفرس مَقًّا: كان فاحش الطول فى دقة.

- ومَقَّ ما بفن الشفئفن: بعد ما بفنهما.

- وبلد أمق: بعفد الأطراف.

- وأرض مَقَّاء: بعفدة الأرجاء أو بعفدة ما بفن الطرفين.

- ومَقَّق على عفاله: ضفَّق عفهم، ومَقَّق الطائر فرخه: أطفمه.

- ومنه امتقَّ الفصفل ما فى الصَّرع: شربه كله.

- تَمَقَّق الشفء: طال وتباعد.

- تَمَقَّق ما فى العظم: اسفخرجه، والشراب: شربه شفئاً بعد شفء (١).

- مَقَّم الشفء: ذلله.

ب- الجذر م ق ه:

- الأمقة: المكان القفر لا فبف فف شجر، والأمقه من الناس: الذى ففم على وجهه لا فدرى أفن ففوجه (٢).

ج- الجذر م ق ا:

- مفا السفف مقوًا: جلاه، وفقال مَقَّا الفصفل أمَّة: رضعها رضعاً شفدفاً (٣).

٢- دلالات بكة فى المعجم العربف:

وردت فى المعجم العربف عده مواد أو جذور ففب مرافعتها ففما ففعلق بالاسم «بكة» للفرع على الدلالات الأساسية والفرعفة لهذه

المواد:

١- المعجم الوسفط: ٩١٦.

٢- المصدر نفسه.

٣- المصدر نفسه.

ص: ٢٨١

أ- المادة: ب ك ا:

- بكأت البئر: قلّ ماؤها.

- وبكأ الحفوان الحلوب: قلّ لبنه.

- بكأ الرجل: قلّ كلامه.

- وأبكأ فلان: قلّ خفره (١).

ب- المادة: ب ك ب ك:

- بكبك الشىء: هزه وطرح بعضه على بعض.

- والبكبة: المجرىء والذهب، والبكبة الازدحام (٢).

ج- المادة: ب ك ك:

- بك الشىء بكأ وبكأ: هشمه ومزقه.

- ويقال بك عنقه: كسره.

- وبك الرجل: قهره وكسره من نخوته.

- وبك الرجل: زحمه.

- وبك الدابة: أثقل حملها وجهدها فى السفر (٣).

- وفر أيضاً: تباك الجمع: زحم بعضهم بعضاً.

د- المادة: ب ق ق:

- بق الرجل بقاً: أكثر القول فى صواب أو خطأ.

- وبقت المرأة: كثر ولدها.

- وبق الكلام: لفظه بقوة.

- وبق الخبر: أذاعه.

١- المصدر نفسه: ٦٩.

٢- المصدر نفسه.

٣- المصدر نفسه.

ص: ٢٨٢

- وبَقَّ المال: فَرَّقَه (١).

- ومنه التَّبُّ: الواسع العريض، الواضح (٢).

ثانياً: دلالات «الباسَّة» و «البسَّاسَة» في المعجم العربي:

الباسَّة والبسَّاسَة اسمان من الأسماء التي أُطلقت على مكة، وتم تعليل معنى الباسَّة لأنها تَبَسُّ، أي تحطم الملحدين وقيل: تخرجهم (٣). وبالرجوع إلى المعجم العربي مادة (ب س س) اتضح أن معاني بَسَّ هي على النحو التالي:

بَسَّ الرجل بساً: طَلَبَ وَجَهَدَ، بَسَّ الشَّيْءَ: فَتَّهَ، وقد ورد في القرآن الكريم: «وَبَسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا»، وَبَسَّ الشَّيْءَ فَرَّقَهُ وأذهب منه شيئاً؛ وَبَسَّ الرجل:

طرده وَنَحَّاه (٤)، وانبَسَّ الماء: تَفَرَّقَ.

ومن خلال هذه الدلالات للمادة بَسَّ، يتضح أن الباسَّة والبسَّاسَة - كاسمين لمكة - يشيران إلى صفتها كَمُفْتَتَّةً، ومُفَرَّقَةً، وطاردةً للملحدين، ومحطمة لهم.

وتشير بعض المصادر إلى أن كلمة «بس» تعنى بيت، أو هي علم على البيت الذي بنته غطفان للعزى، وقد ورد في معجم البلدان لياقوت: بُسًّا وهو بيت بنته غطفان، وسمته بُسًّا مضاهاةً للكعبة، وقد أخذت هذه التسمية من قولهم: «لا أفعل ذلك ما أبس عبد بناقة»، وهو طوفانه حولها ليحلبها، وهو يشير إلى استحلاب الرزق في الطواف حوله (٥).

١- المصدر نفسه: ٦٨.

٢- المصدر نفسه.

٣- السيد عبد العزيز سالم، تاريخ العرب قبل الإسلام: ٢٩٦، طبعه الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٠ م.

٤- المعجم الوسيط: ٥٧-٥٨.

٥- ياقوت، معجم البلدان: ٦٠٩.

ص: ٢٨٣

ويقال: إن «بس» ليس بيتاً، ولكنه ماء ورد فيه شعر (١). وقد ذكر الإصفهاني في كتابه الأغاني: أن «بس» بناء بنته غطفان شَبَّهوه بالكعبة وكانوا يحجّون إليه ويعظمونه ويسمونهم حرماً (٢).
ونصل من هذا إلى نتيجة مهمة وهي أن الباسة والبساسه من الأسماء التي أطلقت على مكة، وأن «بس» بيت بنته غطفان للعزى أو أنه ماء، وأنها لا تعنى بيتاً بشكل مطلق.

ثالثاً: دلالات «النَّاسَةُ» و «النَّسَاسَةُ» في المعجم العربي:

النَّاسَةُ والنَّسَاسَةُ اسمان من أسماء مكة، ومن دلالات المادة (ن س س) في المعجم العربي:
نَسَّ الشيء: يَبْسُ، نَسَّ فلان: اشتد عطشه، نَسَّ الدابة: ساقها وزجرها، وأنس الشيء: بلغ غاية الجهد، ومنه المنسوس: المطرود (٣).
ومن هذه الدلالات يتضح أن معنى النَّاسَةُ والنَّسَاسَةُ: الطاردة والزَّاجِرَةُ، وهي من الدلالات المشتركة مع مادة (بَسَّ).

رابعاً: أسماء مكة في المعاجم العربية: نتائج نهائية:

إشارة

من هذا العرض السابق لأسماء مكة في المعاجم العربية نخرج بالنتائج المهمة التالية في تحديد دلالات أسماء مكة:

١- اشتقاق مكة من الجذر (م ك ك) يعطى مكة عدة دلالات:

١- انظر سباتينو موسكاتي، الحضارات السامية: ٣٤٤، ترجمة وتعليق د. السيد يعقوب بكر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٧.

٠م

٢- الإصفهاني، كتاب الأغاني، طبعه بولاق ١٢: ٢٦.

٣- المعجم الوسيط: ٩٥٤.

ص: ٢٨٤

أ- لأنها تُهلك الجبارين وتضعفهم، وذلك من مَكَّ الشيء أهلكه ونقصه. وقد ذكر هذا المعنى أبو بكر بن الأنباري في قوله: «سميت مكة؛ لأنها تمكَّ الجبارين، أي تذهب نخوتهم» (١).

ب- سميت مكة لأنها تَمَكُّ الذنوب، أي تذهب بها، وهذه الدلالة مأخوذة من مَكَّ الفصيل ضرع أمه فلم يبق فيه شيئاً، ومَكَّ الشيء نقصه (٢).

ج- سميت مكة من مَيَكَّ بمعنى امتصَّ، أو مَصَّ؛ لأن أهل مكة كانوا يتمكنون الماء، أي يستخرجونه وذلك لقلته، وهذه الدلالة مأخوذة من مَكَّ الثدي أي مصَّه، ومَكَّ العظم: مَصَّ جميع ما فيه (٣).

د- لأنها بين جبلين مرتفعين عليها، فهي في هبطة بمنزلة المكوك (٤)، والمكوك طاس يشرب به، أعلاه ضيق، ووسطه واسع (٥).

ه- اشتقاق مكة من امْتَكَّ، فقد «امتكت الناس، أي جذبتهم من جميع الأطراف» (٦). وقد أخذت هذه الدلالة من امتكَّ الفصيل ما في ضرع أمه أي استقصاه بالمصَّ (٧).

٢- اشتقاق مكة من الجذر (م ك ا) يعطى اسم مكة الدلالات التالية:

أ- سميت مكة؛ لأن العرب في الجاهلية كانت تَمَكُّ في مكان الكعبة؛ لأنها كانت تقول: لا يتم حجنا حتى نأتي مكان الكعبة فتمكَّ فيه، أي نصفر صفير المكاء حول الكعبة، فكانوا يصفرون ويصفقون (٨).

١- ياقوت الحموي، معجم البلدان، ٥: ١٨١.

٢- ياقوت، معجم البلدان: ١٨٢، وانظر السيد عبد العزيز سالم، تاريخ العرب قبل الإسلام: ٢٩٥.

٣- المعجم الوسيط: ٥١٦.

٤- ياقوت: ١٨٢.

٥- المعجم الوسيط: ٥١٦.

٦- المصدر نفسه. وانظر ياقوت: ١٨٢.

٧- المعجم الوسيط: ٥١٦.

٨- ياقوت: ١٨٢؛ وانظر السيد عبد العزيز سالم، تاريخ العرب قبل الإسلام: ٢٩٤.

ص: ٢٨٥

وقد اشتقت هذه الدلالة من الجذر مَكَا مَكَاءً، أى صفر بفيه، أو شبك أصابع يديه ثم أدخلها فى فيه ونفخ فيها (١). وقد ورد فى هذا المعنى قوله تعالى: «وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً» (٢). وقد سُمى طائر المَكَاءِ بذلك؛ لأنه يجمع يديه ثم يصفر فيهما صفيراً حسناً (٣)، ويقال: مكا الطائر أى صَفَّرَ (٤).

ب- سميت مكة من التطهر للصلاة، ففى المعجم: تمكى الغلام أى تطهر للصلاة، وتمكى الفرس أى ابتل بالعرق (٥).

٣- اشتقاق اسم مكة من الجذر (م ق ق):

يعطى اشتقاق اسم مكة من الجذر (م ق ق) الدلالات المقترحة التالية:

أ- يشترك الجذر (م ق ق) مع الجذر (م ك ك) فى بعض الدلالات، مثل: امتقَّ الفصيل ما فى الضَّرْع: شربه كله، وهى نفس دلالة امتكَّ فى امتكَّ الفصيل ما فى ضرع أمه أى استقصاه بالمص (٦). ويرد: تمقق ما فى العظم: استخرجه، وهو قريب من دلالة امتكَّ العظم، وقريب من الناحية الصوتية من تمكك بمعنى امتكَّ (٧).

وبالتالى تنطبق على اسم مكة هذه الدلالة المشتركة بين الجذرين (م ك ك) و

١- المعجم الوسيط: ٩١٦.

٢- الأنفال: ٣٥.

٣- المعجم الوسيط: ٩١٧.

٤- المصدر نفسه.

٥- المصدر نفسه.

٦- المصدر نفسه: ٩١٦.

٧- المصدر نفسه.

ص: ٢٨٦

(م ق ق).

ب- يختص الجذر (م ق ق) ببعض الدلالات الخاصة التي لا يشترك فيها مع الجذر (م ك ك)، و من أهم هذه الدلالات الخاصة: - دلالة مَّقَّ على الفتح في مَقَّ الشيء فتحه، ومَقَّ العين قلعها، ومَقَّ ما بين الشئين أى بَعَدَ ما بينهما، ومنه أرض مَقَّاء: بعيدة الأرجاء أو بعيدة ما بين الطرفين، وبلد أمق: بعيد الأطراف، وتَمَقَّق الشيء: طال وابتعد (١). - دلالة التضييق في مَقَّق بمعنى ضَيَّق، مثل مَقَّق على عياله أى ضَيَّق عليهم (٢).

وقد اجتمع في هذه الدلالات صفات الفتح، وبعْد الأرجاء، والتضييق، والإطعام، وصفة الفتح تقترب من دلالة الإهلاك والإضعاف، والإنقاص التي احتواها الجذر (م ك ك). صفة بعْد الأرجاء قد تنطبق على الطبيعة الجغرافية لمكة من حيث إنها ممتدة ومتباعدة الأطراف بسبب طبيعتها الجبلية، وصفة التضييق قد تنطبق على الطبيعة الجغرافية لمكة من حيث إن جبالها تضيق على أهلها في حركتهم وحياتهم، وصفة الإطعام تنطبق على مكة أيضاً؛ حيث إنها اهتمت بإطعام الحجيج، فكانها مثل الطائر الذي يُمَقَّق فرخه أى يطعمه.

١- المصدر نفسه.

٢- المصدر نفسه.

ص: ٢٨٧

٤- اشتقاق اسم مكة من الجذر (م ق ا):

يعطى الدلالة التالية المشتركة مع إحدى دلالات الجذر (م ك ك) والجذر (م ق ق) وهي مقاً بمعنى رضع رضعاً شديداً كما فى: مقاً الفصيل أمه أى رضعها رضعاً شديداً (١).

٥- اشتقاق اسم مكة من الجذر (م ق ه):

يعطى دلالة جديدة، حيث ورد من مشتقات هذا الجذر كلمة الأمقه، وهو المكان القفر لا ينبت فيه شجر، وكذلك الأمقه من الناس، وهو الذى يهيم على وجهه لا يدرى أين يتوجه (٢).

وربما يتفق الوصف الأول مع صفة المكان الذى نزل فيه إبراهيم عليه السلام مع زوجته هاجر وابنه إسماعيل، وهو المكان الذى وصفه القرآن الكريم بقوله: «رَبَّنَا إِنِّي أَسِيَّكْتُ مِنْ دُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ» (٣). أما الوصف الثانى فربما يتفق مع حالة هاجر أم إسماعيل وهى تبحث عن الماء لابنها، حيث كانت لا تدرى إلى أين تتجه.

٦- اشتقاق اسم بكه من الجذر (ب ك ك) يعطى الدلالات التالية:

أ- أن اسم بكه يدل على التهشيم، والتمزيق، والكسر كما ورد فى بك الشىء بكاً وبكه بمعنى هشمه ومزقه، وكما ورد فى بك عنقه أى كسره (٤).

ويصبح معنى بكه هنا المهشمة، والممزقة، والكاسرة.

ب- أن اسم بكه يدل على القهر وكسر النخوة كما ورد فى بك الرجل أى قهره وكسره من نخوته، كما فى بك عنقه بمعنى كسره (٥). إشارة إلى الكسر المعنوى

١- المصدر نفسه.

٢- المصدر نفسه.

٣- إبراهيم: ٣٧.

٤- المعجم الوسيط: ٩١٦.

٥- المصدر نفسه.

ص: ٢٨٨

والمادى معاً، ويصبح معنى بكَّة القاهرة والكاسرة للنخوة.

- ج- أن اسم بكَّة يدل على الزحام والازدحام كما ورد في يَكُّ الرجل: زحمه، وكما ورد في تباكَّ الجمع: زحم بعضهم بعضاً (١).
وورد البكبكة بمعنى الازدحام (٢)، وبمعنى المجيء والذهاب (٣). ويصبح معنى بكَّة هنا المزدحمة والمثقلة، وربما كان في البكبكة-
بمعنى المجيء والذهاب- إشارة إلى حالة هاجر وهي تبحث عن الماء بين المجيء والذهاب؛ سعياً وراء الماء.
د- أن اسم بكَّة يدل على الثقل والجهد كما في: بَكَّ الدابة أى أثقل حملها وجهدها في السير (٤).

٧- أن اشتقاق اسم بَكَّة من الجذر (ب ق ق) يعطى الدلالات التالية:

الكثرة والشدة كما ورد في بَقَّت المرأة: كثر ولدها، وبَقَّت السماء:

- أمطرت بغزارة وشدة، وبَقَّ الرجل: أكثر القول، وبَقَّ الكلام: لفظه بقوة، وبَقَّ الخبر: أذاعه، وبَقَّ المال: فَرَّقَه. والبَقُّ: الواسع العريض (٥)،
ويصبح معنى بكَّة هنا يدور حول الكثرة، والقوة، والشدة، والتفتيت، والتجزئة، والنشر والاتساع.

٨- أن تسمية مكة بالباسة والباسة:

١- المصدر نفسه.

٢- المصدر نفسه.

٣- المصدر نفسه.

٤- المصدر نفسه.

٥- المصدر نفسه: ٦٨.

ص: ٢٨٩

يعطى الدلالات المرتبطة بالتفتيت، والتفريق، والتحطيم، والطرْد، فيكون معنى الباسه والبساسة كاسم لمكة: المحطمة، والمفرقة، والطاردة، والمفتته، وهى دلالات قريبة من معانى مكة وبكة المرتبطة بالتحطيم والتهشيم.

٩- أن تسمية مكة بالناسه أو النساسة:

يعطى الدلالات المرتبطة بالطرْد، والزجر، والجهد، واشتداد العطش، والئبس. وبعض هذه الدلالات مشترك مع دلالات الباسه والبساسة، ومشارك أيضاً مع بعض دلالات مكَّ وبَكَّ.

المبحث الرابع دلالات أسماء مكة فى المعاجم السامية

إشارة

ورد فى بعض المصادر أن الاسمين مكة وبكة مأخوذان من بعض اللغات السامية، ودخلتا فى اللغة العربية، ومن أهم هذه الآراء ما يلى:
١- ورد اسم مكة فى جغرافية بطليموس فى صيغة ماكورابا Macoraba القريبة من صيغة مكرب عند السبئيين. ويرجح أن يكون معناها المقرب إلى الله (١).

٢- ذكر بروكلمان أن مكة مشتقة من مكرب أو مقرب العربية الجنوبية ومعناها عنده الهيكل (٢)، ويعتقد أحد الدارسين أن اسم مكة كان مكرب بمعنى مقدس قبل أن يصبح مكة (٣).

٣- ذكر جورجى زيدان أن مكة مشتقة من مك فى البابلية بمعنى «البيت» (٤).

وللبحث عن حقيقة هذه الآراء لابد من الرجوع إلى بعض المعاجم السامية للبحث عن دلالات هذه التسميات، وعلاقتها بالدلالات العربية الخالصة لأسماء مكة المكرمة، ومحاولة الوصول إلى تحديد دقيق لأصل التسمية مكة وبكة وغيرهما. وهل هى تسميات عربية خالصة، أم أنها تسميات سامية؟ وما هو

١- جواد على، المفصل فى تاريخ العرب ٤: ٨٨.

٢- السيد عبد العزيز سالم، تاريخ العرب قبل الإسلام: ٢٩٥.

٣- المصدر نفسه: ٢٩٧.

٤- جورجى زيدان، العرب قبل الإسلام: ٢٧٥، دار الهلال، القاهرة.

ص: ٢٩٠

الدليل على ساميتها؟ وسيتم ذلك كله في ضوء المعرفة المتاحة عن اللغات السامية، وفي ضوء علاقة اللغة العربية باللغات السامية، وفي ضوء معطيات التاريخ العربي القديم في علاقته بتاريخ الشعوب السامية القديمة، وكذلك داخل إطار ما يعرف بالدخيل السامي في اللغة العربية. وقد اخترنا اللغات السامية التالية وهي العبرية والسريانية والحبشية والعربية الجنوبية والبابلية (الأكادية).

أولاً: التسمية «مكة» في المعجم العبري:

إشارة

يجب أن نشير في البداية إلى أن اسم مكة يرد في المعجم العبري كاسم علم على مدينة هي مكة المكرمة، والكلمة كاسم علم ليس لها تأصيل عبري. ولم يهتم أحد من علماء العبرية ببحث دلالاتها على مستوى اللغة العبرية. ونظراً لاشتراك اللغة العبرية مع اللغة العربية في العديد من المواد والجذور التي تندرج تحت إطار المشترك السامي، فإن البحث عن معنى التسمية «مكة» يتم هنا داخل إطار التأصيل السامي الذي يهتم بتحديد النظائر السامية، وذلك من خلال البحث عن الجذور المشتركة.

وقد تم تحديد الجذور العبرية التي يمكن اشتقاق الاسم مكة وبكدها وغيرهما منها، وهي الجذور (م ك ك)، (م ق ق)، (ب ك ك)، (ب ق ق) وغيرها. ومهمتنا الآن البحث عن هذه الجذور في المعجم العبري، وتحديد دلالاتها المختلفة، والتعرف على الدلالات المشتركة بين اللغتين العبرية والعربية، والدلالات غير المشتركة والتي تخص كل لغة على حدة.

١- الجذر Makhakh مآخخ:

الجذر (مآخخ) يقابل الجذر (م ك ك) أو مَيْكَّ في اللغة العربية، والمضارع منه (يَمَّخ) الذي يقابل (يَمُكُّ) في العربية، وتقرب دلالات (مآخخ) من دلالات الفعل العربي مَكَّ، حيث يعني الفعل العبري: تَحَطَّم، ضَعُفَ، تَحَلَّلَ، خَضَعَ، ذَلَّ، ذَابَّ،

ص: ٢٩١

افتقر، اخترق، هلك، احتقر (١)، وقد رأينا أن مَكَّ في المعجم العربي أت بمعنى أهلك، نَقَصَ، مَصَّ، حَطَمَ، فَتَحَ، قَلَعَ.

٢- الجذر العبري (مَوْخ) (مَا أُنْ):

ومن دلالات هذا الجذر العبري: اخترق، افْتَقَرَ (٢). ومن استخداماته في العهد القديم: اللاويون ٢٥: ٢٥، ٣٥، ٣٩، ٤٧.

٣- الاسم (مَكَّا) makkah:

وهو اسم مفرد مؤنث مشتق من الفعل الماضي (نَاخَا) (٣)، ويشبه في نطقه صوتياً الاسم مَكَّة، وهو ينتهي بالهاء. وإلى جانب التشابه الصوتي هناك تشابه في الدلالة، فالاسم المؤنث العبري مَكَّا يعني: ضربة، اختراق، طعن، مدقوق، ذبح، قتل (٤). وفي المعجم العبري الحديث يأتي الفعل العبري مَكَّا Makkah يحمل الدلالات: ضَرَبَ، قَهَرَ، هَزَمَ، جَرَحَ، طَعَنَ (٥)، والاسم مَكَّا: ضربة، لطمة، إصابة، جرح، انحدار، ضائقة، وباء (٦).

٤- الجذر العبري (مَاقُق) يقابل الجذر (م ق ق) في العربية:

ويحمل هذا الجذر بعض الدلالات المشتركة مع الجذر (مَاقُح)، ومن هذه

١- Gesenius, p. ٥٠٤، وانظر بعض استخدامات هذا الجذر في المزمير ٤٣: ١٠٦، وفي الجامعة ١٨: ١٠، وأيوب ٢٤: ٢٤.

٢- Gesenius, p. ٥٠٢ وانظر قاموس قوجمان عبري-عربي: ٤٣٥، دار الجيل، بيروت.

٣- Gesenius, p. ٤٧١

٤- وردت استخدامات مختلفة في أسفار العهد القديم: انظر مثلاً الملوك الثاني ٢٩: ٨، ١٥: ٩، التثنية ٣: ٢٥، أخبار الأيام الثاني ٢٩: ٨ اللاويون ٢١: ٢٦، أشعيا ٦: ١.

٥- NTC'S Hebrew and English Dictionary by Arie Comy and Naomi Tsur NTC Pub، Chicago، ١٩٩٧، p. ٣٦٣.

٦- ي. قوجمان، قاموس عبري-عربي: ٤٣٤، دار الجيل، بيروت.

ص: ٢٩٢

الدلالات: ذاب، اخترق، تحلل، وبعض هذه الدلالات مشتركة مع الجذر العربي مَقَّ، ومن هذه الدلالات: اخترق، فتح.

ثانياً: التسمية «بَكَ» في المعجم العبري:

١- الجذران (بَاخًا) و (باخا):

ورد في معجم جيزنيوس الجذر (باخا)، وهو جذر غير مستخدم ومعناه:

يَسْقُطُ نقطةً نقطةً (١)، ويقابل في العربية بَكَأ بمعنى: يَصُبُّ نقطةً نقطةً (٢)، أما الجذر المستخدم فهو (بَاخًا) ومعناه بكى، اذرف الدموع (٣).

ومن الجذر الأول يأتي الاسم (باخا) بمعنى بُكَاء، رثاء (٤). ويقابله في العربية بُكَاء، بُكَاء.

ويشير جيزنيوس إلى أن المقطع الأساسي لهذين الجذرين هو (بَخْ)، وهو يعطى صوت نقاط الماء الساقطة (٥).

وقد وردت عدة أسماء أماكن بالعبرية استخدم فيها اسم مشتق من هذا الجذر بَاخًا. ومن بينها وادي البكاء (عِمِيقُ هَبَّاخًا) وهو اسم علم على واد في فلسطين، وقد ورد في المزامير «المارين بوادي البكاء يجعلونه ينايع» (٦).

ويرد الاسم (بِخَائِيم) وهو اسم شجرة سميت بذلك الاسم؛ لإسقاطها نقاطاً وكأنها تبكي (٧). ومن أسماء الأماكن الأخرى (بوخيم) Bochim، وهو مكان بالقرب من الجلجال، ومعناها الحرفي بكاؤون (٨).

١- Gesenius, p. ١١٩

٢- المعجم الوسيط: ٦٦.

٣- Gesenius, p. ١١٩

٤- Ibid, p. ١١٩

٥- Gesenius, p. ١١٩

٦- المزامير ٧: ٨٤.

٧- صموئيل الثاني، ٥: ٢٣، ٢٤، وأخبار الأيام الأولى ١٤: ١٤، ١٥.

٨- Gesenius, p. ١٢٠

ص: ٢٩٣

٢- الجذر (بَاقَقْ) بمعنى صَبَّ، أَفْرَع:

ومن معانيه أيضاً: أخلى أرضاً من السكان، استأصل (١). ويرد (بوقيق) منتشر، ممتد، وورد اسم العلم (بُقي) ويعنى (دمار يهوه).

ثالثاً: المعجم السرياني:

اقترح بروكلمان أصلاً آرامياً شرقياً لكلمة ماكورابا التي استخدمها بطليموس للدلالة على مكه، واقترح أن يكون معناها الوادي العظيم أو وادي الرب. وقد ورد في المعاجم الآرامية والسريانية عدة جذور مناظرة للجذور العربية التي منها اشتقت الأسماء مكه وبكه.

١- الجذر (مَخْ) والجذر (مَآخْ):

ورد الجذر (مَخْ) (٢) بمعنى ائبطح، خضع، استسلم، سجد أو ركع، امتد، والمضعف منه (مَخَّخْ): اضطجع، خضع، تواضع، ذل، ركع (٣).

٢- الجذر (مَخَّخْ) ويقابل مَكَّ:

ويفس الدلالات السابقة في مَخْ ومَآخْ.

٣- الجذر (فَخْ) أو (يَخْ):

يحمل الجذر المذكور الدلالات التالية: هشم، حطم، كسر، دمر، وهو يقابل بَكَّ أو فَكَّ في اللغة العربية، والاسم المشتق منه (فَخْ) معناه: ضربته، لطمه (٤).

Ibid, p. ١٣٦-١

٢- أصل الكلمة مَكَّ، ولكنها تنطق رخوة في نهاية المقطع أو بعد الحركة الطويلة كما في مَآخْ.

٣- ١٩٦٧ R. Payne Smith, A Compendious Syriac Dictionary, Oxford, The Clarendon, p. ٢٧٠.

Ibid, p. ٤٤٥-٤

ص: ٢٩٤

٤- الجذر (بَحَا) بمعنى بَكَى: ومنه (بَحَى) بَكَاء (١).

٥- الجذر (بَقَى) بمعنى تَحَلَّلَ، ذَابَ، بَحَثَ، امْتَحَنَ، ابتلى.

وورد أيضاً (بَقَّيْتُ) بمعنى عَلَى، بَحَثَ عن شيء وهو مرتبك، تَحَسَّسَ (٢)، وتقابل بَكَبَكَ في العربية بمعنى: جَاءَ وَذَهَبَ، والبكبة: المحجىء والذهاب.

٦- الجذر (بَقَى) والمضعف منه (بَقَّقَ)

ويحمل الدلالات التالية: يتكلم بدون وضوح، يثرثر، يتكلم بحماقة (٣).

رابعاً: في المعجم الحبشي:

وردت عدة جذور حبشية تعطي دلالات مشتركة مع الجذور العربية التي تمت مناقشتها من قبل، وأهم هذه الجذور الحبشية:

١- الجذر (مَكَّ) بمعنى: اعتمد على.

٢- ورد الجذر (مَكْوَى) بمعنى: حَمَى، حَرَسَ، رَاقَبَ (٤).

٣- ورد الاسم (ماكوتا): هدية، تَوَسَّلَ، خَضوع، دُعَاء (٥).

٤- ورد الجذر (مَكَّن) بمعنى: قَاحَلَ، أَجْدَبَ، غَيْرَ مَثْمَرٍ، عَاقَرَ، ومنه:

(مَكَّانٌ) مُجْدَبٌ، قَاحِلٌ بدون زرع، بدون ثمر، عَاقِرٌ (٦).

٥- الجذر (مَقَّقَ) أو (مَقَّ) بمعنى ذاب، فسد (٧).

٦- الجذر (بَكَّ) bakka بمعنى: ذبل، اختفى، أصبح بلا جدوى (٨)، ومنه (بَيْكَّ) بمعنى: أَجْدَبَ، أَعْزَبَ غير مَثْمَرٍ، أَعْزَلَ، خَالَ، خَاوٍ، غير نافع، أصبح عادماً (٩).

Ibid, p. ٤٥ -١

Ibid, p. ٥٢ -٢

Ibid, p. ٤٥٤ -٣

Harrassowitz ,Wiesbaden ,١٩٨٧ ,p .٣٤١ .Otto Wolf Leslau ,Comparative Dictionary of -٤
Gecez Classical Ethiopic

Ibid., p. ٣٤١ -٥

Ibid., p. ٣٣٩ -٦

Leslau, p. ٩٤ -٧

Ibid., p. ٩٤ -٨

Ibid., p. ٩٤ -٩

ص: ٢٩٥

ومنه (بَكُّ): بدون جدوى، غير نافع، بدون هدف (١).

وورد أيضاً (بَكُّ) و (بُوكُّ) بمعنى: جَرَحَ، حَدَشَ، ويقابله لسلاو بالجذر العربى بَكَّ بمعنى كَسَّرَ، مَزَّقَ، احتقر (٢).

٧- الجذر (بَكَّى) بمعنى: بكى ناح، رثى، ومنه (بُكى): بكاء، ويقابل فى العربىة بكى، وهو جذر سامى مشترك فى كل اللغات السامية.

وقد ورد نفس الفعل بمعنى: ذبل، اختفى (٣).

٨- الجذر (بَقَّ) بمعنى: كَسَّرَ، قَسَمَ، ويعتقد لسلاو أنه يقابل الجذر العربى بَقَّ بمعنى: قَسَمَ، انْفَصَلَ (٤).

٩- الجذر (بَقَوَ) بمعنى: فَصَلَ، قَسَمَ، كَسَّرَ، قَطَعَ، فَتَحَ، مَدَّ (٥).

خامساً: فى العربىة الجنوىبة:**إشارة**

اعتبر بعض الباحثين الاسم ماكورابا Macoraba الوارد فى جغرافىة بطليموس (القرن الثانى الميلادى) دالاً على مكة (٤)، ويشرح جواد على لفظة مكربة (مكربا) بأنها لفظة عربىة أصابها بعض التحريف ليناسب النطق اليونانى، أصلها مكربة أى مقربة من التقريب (٧). ويعتقد جواد على أن لفظة «مكربة» ليست علماً على مكة ولكنها نعت لها،

Ibid., p. ٩٤-١

Ibid., p. ٩٤-٢

Ibid., p. ٩٤-٣

Ibid., p. ١٥١-٤

Ibid., p. ١٥١-٥

٦- جواد على، المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام ٤: ٩؛ وانظر أحمد إبراهيم الشريف، مكة والمدىنة، مرجع سابق: ٩٤.

٧- جواد على ٤: ١٠.

ص: ٢٩٦

كما فى «بىت المقدس» و «القدس» فهما فى الأصل نعت للمدینة وتحوّلا إلى اسمى علم لها (١)، وقد جاء لفظ «مكربة» لیدل على أن مكة مُقَرَّبَة من الآلهة، فهى تقرب الناس إليهم، وهى أيضاً مقدسة وحرام، وقد أشار جواد على إلى أن حکام سباً لقبوا بالمكاربة، فقد لقب كل واحد منهم نفسه بلقب مُكْرَب mukarreb لأنه مُقَرَّب الناس إلى آلهتهم، وهو أقرب الناس إلى الآلهة، وهو مقدس لنطقه باسم الآلهة، وعلى هذا النحو فسّر جواد على لفظة «مكرب» كعلم على مكة بأنها مُقَرَّبَة من الآلهة (٢). ولا يستبعد جواد على أن يكون سكان مكة من أصل يمنى قديم، وربما كانت مكة مستوطنة يمنية على الطريق الممتد من اليمن إلى أعالى الحجاز (٣).

اعتبر بعض الباحثين الاسم «ماكورابا» الوارد فى جغرافىة بطلميوس دالاً على مكة ويرجح بعض الدارسین أن اسم مكة أُخذ من لغة الجنوب فمكة أو مكرب كلمة يمنية مكونة من «مك» و «رب»، ومك بمعنى بىت فیصبح معنى مكرب «بىت الرب» أو بىت الإله. ومن هذه الكلمة أخذت «مكة» أو «بكة» بقلب الميم باءً على عادة الجنوب (٤). ومعنى هذا أن مكة أو بكة تسمىة عربیة جنوبیة قديمة، ویدلل أصحاب هذا الرأى على ذلك بأن قبائل الجنوب كانت أول من استعمر وادى مكة، وأن قبيلة جرهم اليمنية هى أولى القبائل التى أقامت فى مكة بعد تفجر بئر زمزم، وأن إسماعیل بن إبراهیم علیهما السلام تزوج فتاة جرهمیة ولدت له أولاده (٥).

وقد ورد الاسم «مكى» علماً على بعض الرجال فى بعض الكتابات التمودیة، ولكن بدون إشارة إلى سبب التسمىة (٦).

١- المصدر نفسه.

٢- المصدر نفسه.

٣- المصدر نفسه: ١٢.

٤- أحمد إبراهیم الشریف: ٩٨.

٥- المصدر نفسه: ٩٧.

٦- جواد على: ١١.

ضعف الأدلة في كون مكربة اسماً لمكة:

ولا يخلو هذا الرأي الخاص بأن «مكربة» اسم لمكة من وجوه ضعف عديدة، أولها أن المصدر الأول لهذه التسمية مصدر غير عربى وهو جغرافيه بطليموس، وليس من المؤكد أن «مكربة» اسم لمكة، لأن هذا الاسم لم يعرف بين العرب فى الشمال أو الجنوب كعلم على مكة، ولم يكن معروفاً إلا كاسم لحكام سبأ فى عصر المكاربه، حيث أطلق على الواحد منهم صفة «مكرب»، والأرجح أن معناها المقرب بين الناس والآلهة، وهى وظيفة دينية اكتسبها حكام سبأ الذين جمعوا بين السلطة الدينية والديوية، وحكموا الناس باسم الآلهة، وفسرها موسكاتى بمعنى «الكاهن الأكبر» (١).

من ناحية أخرى، إذا كان الاسم «مكربة» مأخوذاً من الجذر «قرب»، والمكرب هو المقرب للناس إلى الآلهة، أو مقدم القرابين؟! فلماذا أخذه من العربية الجنوبية وهو موجود فى عربية الشمال، بل هو جذر مشترك بين كل اللغات السامية؟! ولا تؤيد اشتقاق «مكربة» بمعنى «مقرب» من الجذر «قرب»، لأن هذا الجذر موجود فى العربية وفى معظم اللغات السامية، كما أنه موجود فى العربية الجنوبية (ق ر ب) بمعنى قَرَبَ، اقترب، اتصل، قَرَّبَ (قرباناً) (٢)، ولا يوجد مبرر لاشتقاق مكرب من قرب، والأولى اشتقاقه من k r b (ك ر ب) بمعنى وَحَّدَ، جَمَعَ، رَبيطَ، زَوَّجَ، ويكون معنى «مكرب» كلقب للحاكم فى عصر المكاربه المِوَحِّد، الجامع أى

١- ١٨٥. p, ١٩٥٧, S. Moscati, Ancient Semitic Civilizations, New York

٢- ٤٤٠. p, Leslau

ص: ٢٩٨

الموحد أو الجامع بين السلطتين الدينية والديوية.

ويؤيد هذا وجود نفس كلمة مقرب في الحبشة (مَقْرَب) بمعنى مُقَرَّب (مقدم القرابين)، ووجود كلمة قربان في العربية الجنوبية qrbn (ق ر ب ن) وفي الحبشية (قِرْبَان)، وفي العربية (قُرْبَان) وفي بقية اللغات السامية (١)، واعتبرها نولدكه مأخوذة من الأصل السرياني (قوربانا) (٢).

والأمر الثالث الذي يحتاج إلى تعليل: لماذا اختفى الاسم «مكربة» كعلم لمكة، و بقيت التسمية «مكة»؟ وهل مكة هنا اختصار للتسمية مكرب؟ بمعنى سقوط الجزء الأخير «رب» وبقاء الجزء الأول «مَك»، ويصبح معنى (مَك) هنا «بيت» فقط؟

والمسألة الرابعة التي يجب فهمها كيف تحوّلت «مَك» (بيت) إلى مكة؟ ومن أين أتت هذه التاء؟ وما هي دلالاتها؟ ويؤكد على ضعف أن تكون «مكربة» اسماً عربياً جنوبياً لمكة أن بروكلمان يقترح أصلاً آرامياً شرقياً لكلمة «ماكورابا» أو «ماكارابا» بمعنى «الوادي العظيم» أو «وادي الرب» ويقترح بروكلمان أن بطليموس أخذ الاسم عن طريق الآراميين (٣)، واقترح بروكلمان أيضاً أن معنى مكرب «هيكل».

ومن وجوه ضعف هذا الرأي على أن مكة أصلها «مكربة» أن قلب الميم في مكة إلى بكة حسب لغة الجنوب يحتم بالضرورة قلب الأصل «مكربة» إلى باء فيقال «بكربة»، وهذا غير وارد في العربية الجنوبية.

وللتأكيد على ضعف أدلة كون مكربة اسماً لمكة أن الإخباريين العرب والمؤرخين لتاريخ مكة لم يذكروا هذه التسمية التي وردت عن بطليموس في جغرافيته.

ونعتقد أن كلمة «مكرب» العربية الجنوبية قد تكون الصفة التي وصف بها أهل الجنوب «مكة»، وذلك لأن كلمة مكرب mkrb في اللغة الجنوبية تحمل الدلالة العامة: معبد، هيكل، حرم، مقدس (٤)، ويعتقد أنها مشتقة من الجذر krb (ك ر ب)،

١- Ibid., p. ٤٤٠

٢- Ibid., p. ٤٤٠

٣- أحمد إبراهيم الشريف: ٩٨.

٤- Leslau, p. ٣٤١

ص: ٢٩٩

ويرد في الأكادية (كَرَابُو) بمعنى: صَلَّى، دعا (١). ومكرب في العربية الجنوبية هو مكان الصلاة والدعاء، أي مكان العبادة بشكل عام. ويرد في الحبشية (مَكُورَاب) بنفس هذه الدلالة العامة: معبد، هيكل، سناجوج (عند اليهود) (٢). ويعتقد أن الكلمة الحبشية هنا أصلها من العربية الجنوبية مكرب.

ومكة عند أهل الجنوب هي مكرب بمعنى معبد، هيكل، لأنها المكان الذي يؤدي فيه العرب صلاتهم ويقدمون فيه دعاءهم إلى الآلهة، وهي بذلك ليست اسماً لمكة، ولكنها وصف لها، ولذلك يمكن أن نقول: مكة مكرب، أي مكة معبد أو هيكل، أو مكان للعبادة بشكل عام أو حرم، أو مَقْدِس إلى غير ذلك من هذه الدلالات العامة لكلمة «مكرب» العربية الجنوبية. ونخلص من هذا إلى ترجيح كون كلمة مكرب (أو مكورابا عند بطليموس) صفة عامة لمكة وليست اسماً لها، وينطبق هذا أيضاً على الصيغة المركبة (مك+رب) بمعنى بيت الرب أو بيت الإله، فهذه أيضاً صفة لمكة وليست اسماً، ويمكن أن نقول: مكة مكرب، بمعنى مكة بيت الرب.

الخاتمة: فائدة المعاجم العربية والسامية في تحديد دلالات أسماء مكة

Ibid., p. ٣٤١ – ١

Ibid., p. ٣٤١ – ٢

ص: ٣٠٠

بعد العرض السابق لدلالات «مكة» و «بكة» في المعاجم العربية والسامية (الآرامية، والحبشية، والعبرية الجنوبية، والأكدية) نخرج بالتائج المهمة التالية في تحديد دلالات «مكة» و «بكة»:

أولاً: أن «مكة» و «بكة» تسميتان عربيتان أصيلتان مشتقتان من جذور عربية خالصة لها نظائر في بعض اللغات السامية مثل العبرية، والآرامية، والحبشية، والأكدية، والعربية الجنوبية. ووجود هذه النظائر في اللغات السامية ليس مبرراً علمياً كافياً لرد أصول هاتين التسميتين إلى إحدى اللغات السامية المذكورة، ولو صحَّ ردها إلى إحدى هذه اللغات، فاللغة العربية أولى بهذا من غيرها؛ لكونها، باتفاق علماء اللغات السامية، أقدم اللغات السامية، وأكثرها أصالة، ولاعتبارها عند بعضهم ممثلة لما يسمى عندهم باللغة السامية الأم (Ur- Semitism). وقد فضلنا في دراسات سابقة تسمية هذه المجموعة من اللغات باسمها الحقيقي، وهو مجموعة اللغات العربية، بدلاً من التسمية الاستشراقية التي فضلت - لأسباب أيديولوجية - اختيار التسمية «السامية» بدلاً من العربية (٢).

ثانياً: أن الحكم بأصالة التسميتين «مكة» و «بكة» يتطلب الاعتماد في تحديد دلالاتهما على الجذور أو المواد العربية الخالصة التي وردت في المعاجم العربية مثل (مَيْكٌ) و (يَيْكٌ)، ويعتبر ورود بعض هذه الجذور في واحدة أو أكثر من اللغات السامية وبنفس الدلالات العربية تأكيداً للمعنى العربي بوجود نظائر له في اللغات السامية الأخرى.

ثالثاً: أنه بعد البحث في كل الدلالات الواردة للجذور العربية والسامية المختلفة اتضح أن المعاني الأساسية لأسماء مكة تدور حول التهشيم، والتحطيم، والقهر، والتفتيت، والازدحام، والتمزيق، والإهلاك، والإنقاص، والكسر، والإجهاد.

١- ٣٥, ٣١, ٢٥. p. S. Moscati, ancient Semitic Civilization

٢- انظر كتابنا: رؤية عربية في تاريخ الشرق الأدنى القديم وحضارته، دار قباء، القاهرة، ١٩٩٨ م؛ وانظر أيضاً: بهجت القبيسي، ملامح في فقه اللهجات العربية من الأكادية والكنعانية حتى السبئية والعدنانية، دار شمال، دمشق، ١٩٩٩ م.

ص: ٣٠١

ويلاحظ أن هذه الدلالات العامة تشترك فيها معظم الجذور المقترحة التي تم استخراجها من المعاجم العربية والسامية، وهي: مَكَّ (م ك ك)، مَقَّ (م ق ق)، مَقَّه (م ق ه)، مَقَّا (م ق ا)، وكذلك الجذور: بَكَّ (ب ك ك)، بَكَّا (ب ك أ)، بَكَبَك (ب ك ب ك)، بَقَّق (ب ق ق).

رابعاً: أن بعض أسماء مكة الأخرى - بخلاف مكة وبكة - تحمل نفس دلالات مكة وبكة، ومن هذه الأسماء: الباسَّة والبساسة، والناسَّة والنساسة، والحاطمة، حيث تدور دلالات هذه التسميات حول معاني التهشيم، والتفتيت، والطرْد، والتحطيم، والزجر، والتيس، والجهد. ولاشك في أن وجود سبع تسميات لمكة تدور حول هذه الدلالات السابقة فيه تأكيد على صحة هذه المعاني، وبخاصة أن معظم التسميات الأخرى هي مسميات تم استنباطها من مكانة الكعبة وقدسيتها في نفوس العرب، أو اقتضتها ضرورة الأوصاف والأحوال المختلفة للموقع (١)، ومن ذلك تسميتها بأَم القرى، وبالبلد الأمين وغير ذلك، وهذه التسميات التي تحمل نفس الدلالات تقريباً هي: مكة، بكة، الباسَّة، البساسة، النساسة، الحاطمة.

خامساً: تحمل تسميات مكة الحاملة لنفس الدلالات صيغة اسم الفاعل مثل الباسَّة، والناسَّة، والبساسة، والنساسة، والحاطمة. ولذلك نعتقد أن التسميتين «مكة» و«بكة» يحملان صيغة اسم الفاعل، وربما كان الأصل فيهما (الماكة) و (الباكَّة)، وربما يفسر هذا وجود التاء في نهاية «مكة» و«بكة»، فهي ربما تكون تاء التأنيث الخاصة باسم الفاعل المذكر «الماك» و«الباك»، وربما كانت مكة وبكة صيغة اسم فاعل مؤنث بمعنى: الداكة، والمهشمة، والمحطمة، والمفتتة، والممزقة، إلى آخر هذه المعاني والدلالات المتشابهة. وتؤيد بعض اللغات السامية الأخرى هذه الصيغة حيث نجد في العبرية اسم

١- الطيب على الشريف، مكة في وجدان شعراء ما قبل الإسلام، مرجع سابق: ٥٦٧.

ص: ٣٠٢

الفاعل (مَكَّاه) أو (مَكَّا) بمعنى: الضاربة، المحطمة، وهي صيغة مأخوذة من الفعل المضعف، وهي قريبة صوتياً من التسمية مَكَّه، وفي حالة الإضافة تصبح (مَكَّت) حيث تنقلب الهاء إلى تاء.

ونرجح في هذه الحالة أن تكون (مَكَّه) و (بَكَّه) صيغة اسم فاعل مؤنث من الجذر (مَكَّ، بَكَّ)، وقد سقطت أداة التعريف (ال) ربما مع تحول هاتين الدالتين من صفة مؤنثة للمكان إلى اسم علم للمكان، وحدث تغير صوتي مع مرور الزمن تمثل في تقصير حركة الميم في الماكَّة، وحركة الباء في الباكَّة من فتحة طويلة إلى فتحة قصيرة.

ونقترح في النهاية تصورين للتطور الذي حدث للتسميتين:

التصور الأول: هو التطور من اسم الفاعل المؤنث المعروف إلى اسم العلم:

الماكَّة - ماكَّة - مَكَّه

الباكَّة - باكَّة - بَكَّه

التصور الثاني: وهناك تصور آخر باقتراح عدم وجود أداة التعريف مع الصفة أصلاً، ويصبح تطور الكلمة على النحو التالي:

ماكَّة - مَكَّه

باكَّة - بَكَّه

ولا يضعف هذا التصور الأخير سوى أن تسميات مكة الأخرى الواردة في صيغة اسم الفاعل المفرد المؤنث أتت معرفة بأداة التعريف (الباسَّة، والناسَة...) واحتفظت بأداة التعريف.

ونستند في هذا الترجيح إلى التسميات الأخرى التي وردت في صورة اسم الفاعل المؤنث مثل: الناسَة، والباسَّة، والنَّساسة، والبساسَة، والحاطمة، وربما يكون هذا التغير الصوتي الناتج عن تقصير الحركة قد حدث مع التسميتين: مَكَّه

ص: ٣٠٣

وبكّة؛ لشهرتهما وشيوعهما فى الاستخدام، وورودهما فى القرآن الكريم كتسميات صريحة لمكّة، وعدم حدوث هذا مع التسميات الأخرى لندرتهما فى الاستخدام، وعدم شيوعها، والله أعلم.

سادساً: أن الاستعانة بالمعجم السامى قد ساعد كثيراً فى التأكيد على دلالات مكّة وبكّة فى المعجم العربى، حيث اشتركت اللغات السامية المختلفة فى نفس الجذور والمواد، وأعطت دلالات مناظرة للدلالات العربية مع وجود بعض الدلالات الأخرى المغايرة والخاصة ببعض هذه اللغات دون العربية، كما وجدت فى العربية دلالات تخصّها وليست موجودة فى اللغات السامية الأخرى.

سابعاً: أن الفروق التى وضعت للفرقة بين مكّة و بكّة ليست صحيحة، وذلك للاشتراك الصريح فى دلالات الجذرين (مكّ) و (بِكّ)، فالتسميتان مترادفتان، ولاداعى إلى التمييز بينهما بالقول - مثلاً -: إن بكّة موضع البيت وأن مكّة ما وراءه، أو القول بأن البيت مكّة وما والاها بكّة (١). فهذه الفرقة لا تقوم على أسس دلالية بقدر ما هى تقسيم جغرافى للمكان.

تعريف مركز

بسم الله الرحمن الرحيم

جاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/٤١).

قال الإمام علي بن موسى الرضا - عليه السلام: رَحِمَ اللَّهُ عَبْدًا أَحْيَا أَمْرًا... يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَيُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بناذر البحار - في تلخيص بحار الأنوار، للعلامة فيض الاسلام، ص ١٥٩؛ عيون أخبار الرضا(ع)، الشيخ الصدوق، الباب ٢٨، ج ١/ ص ٣٠٧).

مؤسس مجتمع "القائمية" الثقافي بأصفهان - إيران: الشهيد آية الله "الشمس آبادي" - رَحِمَهُ اللَّهُ - كان أحدًا من جهابذة هذه المدينة، الذي قد اشتهر بشعفه بأهل بيت النبي (صلوات الله عليهم) ولاسيما بحضرة الإمام علي بن موسى الرضا (عليه السلام) و بساحة صاحب الزمان (عجل الله تعالى فرجه الشريف)؛ ولهذا أسس مع نظره و درايته، في سنة ١٣٤٠ الهجرية الشمسية (= ١٣٨٠ الهجرية القمرية)، مؤسسه و طريقة لم ينطفي مصباحها، بل تتبع بأقوى و أحسن موقف كل يوم. مركز "القائمية" للتحري الحاسوبى - بأصفهان، إيران - قد ابتدأ أنشيطه من سنة ١٣٨٥ الهجرية الشمسية (= ١٤٢٧ الهجرية القمرية) تحت عناية سماحه آية الله الحاج السيد حسن الإمامي - دام عزه - و مع مساعده جمع من خريجي الحوزات العلميه و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، في مجالات شتى: ديتيه، ثقافيه و علميه...

الأهداف: الدفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثقافه الثقلين (كتاب الله و اهل البيت عليهم السلام) و معارفهما، تعزيز دوافع الشباب و عموم الناس إلى التحري الأذق للمسائل الدينيه، تخليف المطالب النافعه - مكان البلايتي المتبدله أو الرديئه - في المحاميل (=الهواتف المنقوله) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوترية)، تمهيد أرضيه واسعة جامع ثقافيه على أساس معارف القرآن و أهل البيت -عليهم السلام - بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطلاب، توسعه ثقافه القراءه و إغناء أوقات فراغه هواه برامج العلوم الإسلاميه، إناله المنابع اللازمه لتسهيل رفع الإبهام و الشبهات المنتشرة في جامعه، و... - منها العدالة الاجتماعيه: التي يمكن نشرها و بثها بالأجهزة الحديثه متصاعده، على أنه يمكن تسريع إبراز المرافق و التسهيلات - في آكناف البلد - و نشر الثقافه الاسلاميه و الإيرانيه - في أنحاء العالم - من جهه أخرى. - من الأنشطة الواسعه للمركز:

(الف) طبع و نشر عشرات عنوان كتب، كتيبه، نشره شهريه، مع إقامة مسابقات القراءه

(ب) إنتاج مئات أجهزة تحقيقيه و مكتبيه، قابله للتشغيل في الحاسوب و المحمول

(ج) إنتاج المعارض ثلاثيه الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرسوم المتحركه و... الأماكن الدينيه، السياحيه و...

(د) إبداع الموقع الانترنتي "القائمية" www.Ghaemiyeh.com و عدده مواقع أخرى

(ه) إنتاج المنتجات العرضيه، الخطابات و... للعرض في القنوات القمرية

(و) الإطلاق و الدعم العلمى لنظام إجابة الأسئلة الشرعيه، الاخلاقيه و الاعتقاديه (الهاتف: ٠٠٩٨٣١١٢٣٥٠٥٢٤)

(ز) ترسيم النظام التلقائى و اليدوى للبلوتوث، ويب كاشك، و الرسائل القصيره SMS

(ح) التعاون الفخرى مع عشرات مراكز طبيعيه و اعتباريه، منها بيوت الآيات العظام، الحوزات العلميه، الجوامع، الأماكن الدينيه كمسجد جمكران و...

(ط) إقامة المؤتمرات، و تنفيذ مشروع "ما قبل المدرسه" الخاص بالأطفال و الأحداث المشاركين في الجلسه

(ي) إقامة دورات تعليميه عموميه و دورات تربيه المربى (حضوراً و افتراضاً) طيله السنه

المكتب الرئيسي: إيران/أصفهان/ شارع "مسجد سيد" / ما بين شارع "بنج رمضان" ومفترق "وفائي" / "بنايه" القائمية "

تاريخ التأسيس: ١٣٨٥ الهجرية الشمسية (= ١٤٢٧ الهجرية القمرية)

رقم التسجيل: ٢٣٧٣

الهوية الوطنية: ١٠٨٦٠١٥٢٠٢٦

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الإلكتروني: Info@ghaemiyeh.com

المتجر الإلكتروني: www.eslamshop.com

الهاتف: ٢٥-٢٣-٢٣٥٧٠ (٠٠٩٨٣١١)

الفاكس: ٢٢-٢٣٥٧٠ (٠٣١١)

مكتب طهران ٨٨٣١٨٧٢٢ (٠٢١)

التجارية والمبيعات ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩

امور المستخدمين ٢٣٣٣٠٤٥ (٠٣١١)

ملاحظة هامة:

الميزاتية الحالية لهذا المركز، شعبيته، تبرعته، غير حكومية، و غير ربحية، اقتنيت باهتمام جمع من الخيرين؛ لكنها لا توافي الحجم المتزايد والمتسع للامور الدينية والعلمية الحالية و مشاريع التوسعة الثقافية؛ لهذا فقد ترجى هذا المركز صاحب هذا البيت (المسمى بالقائمة) و مع ذلك، يرجو من جانب سماحة بقية الله الأعظم (عجل الله تعالى فرجه الشريف) أن يوفق الكل توفيقاً متزائداً لإعانتهم - في حد التمكن لكل احد منهم - إيانا في هذا الأمر العظيم؛ إن شاء الله تعالى؛ و الله ولي التوفيق.

مركز
للبحوث والتحريات الكمبيوترية
أصبحان
الغائمي



للحصول على المكتبات الخاصة الأخرى
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم

www.Ghaemiyeh.com

www.Ghaemiyeh.net

www.Ghaemiyeh.org

www.Ghaemiyeh.ir

و للإيحاء من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٥٩

